نوتشيو أوردينه

Nuccio Ordine

لوجهِ ما لا يلزم

L'utilità dell'inutile

دار الجديد

نوتشيو أوردينه
Nuccio Ordine

لوجهِ مالا يلزم

L'utilità dell'inutile

يليه

في لُزومِ المعارِفِ التي لا لُزومَ لها

بقلم

أبراهام فلكسنر

دار الجـــديد

دار الجـــديد

حقوق التَّرْجَمَة العربيّة محفوظة
الطبعـــــة الأولـــى، ٢٠١٩

دارة محسن سليم، حارة حريك
صنـــــدوق بريـــــد: ٥ - ٢٥
الغبيـــري بيروت ـ لبنان
هاتف: ٠٥ ٣٦ ٥٥ ١ ٩٦١
www.dar-al-jadeed.com
daraljadeedbeirut@gmail.com

ISBN 978-9953-1-139-1

خطوط الغلاف: علي عاصـــي

صدر هذا الكـــتـــاب، في طبعتـه الإيطاليّة، تحت عنـــوان:
L'utilità dell'inutile
© 2013 Nuccio Ordine
© Giunti Editore S.p.A Firenze-Milano جميع الحقوق محفوظة لـ
first published under the imprint Bompiani in 2013.

هذه التَّرْجَمَةُ بَلْ هذا التَّلْخيص...

... وَما يَزالُ بَعْضُهُم، كُلَّما نَقَلَ كِتابًا مِنْ لُغَةٍ مِنَ اللُّغاتِ إلى العَرَبِيَّةِ، يَحْتَجُّ لِما دَعاهُ إلى نَقْلِ هذا الكِتابِ إلَيْها بِحُجَّةٍ مِنْ قَبيلِ أنَّ نَقْلَهُ هذا الكِتابَ، أوْ ذاكَ، يَسُدُّ نَقْصًا ـ (فادِحًا... يا لَلْهَوْلِ!) ـ يَعْتَوِرُ المَكْتَبَةَ العَرَبِيَّةَ بِعُوارِهِ، أو يَرْأَبُ صَدْعًا يَعيبُ بُنْيانَها.

وَحَقَّ لِدارِ الجَديدِ أنْ تَتَكاسَلَ، وأنْ تَحْتَجَّ لِما دَعاها إلى نَقْلِ هذا الكِتابِ بِتِلْكَ الحُجَّةِ، مُثْنِيَةً عَلَيْها، مَثَلًا، بِأنَّ هذا الكِتابَ قَدْ تُرْجِمَ، حتّى الآنَ، بِبِضْعِ عَشَرَةِ لُغَةٍ، وأنَّهُ لا يَليقُ بالعَرَبِيَّةِ أنْ تَتَخَلَّفَ عَنْ رَكْبِ اللُّغاتِ، وما يَجْري مَجْرى هذا الكَلامِ السّاقِطِ مِنْ تَفاهاتٍ ومِنْ حَماقات.

بَيْدَ أنَّنا لا نَفْعَلُ، ولا يَعْنينا أنْ نَفْعَلَ، لِسَبَبَيْنِ اثْنَيْنِ: أوَّلًا لِقليلِ اقْتِناعِنا بأنَّ مِنْ شَأْنِ أيِّ كِتابٍ، سَواءٌ أكانَ مَوْضوعًا بِالعَرَبِيَّةِ ابْتِداءً أمْ مُتَرْجَمًا إلَيْها، أنْ يَسُدَّ ثَقْبًا أو أنْ يُصْلِحَ نَقْصًا أو ما شابَهَ، أيْ أنْ يُرَتِّبَ لِوَظيفَةٍ مِنْ قَبيلِ الرَّتْقِ أو التَّرْميمِ؛ وثانِيًا لأنَّ هذا الكِتابَ، والمَكْتوبُ يُقْرَأُ مِنْ عُنوانِهِ، لا يَقْبَلُ أصْلًا أنْ يُنْقَلَ إلى العَرَبِيَّةِ لِهَذِهِ الغايَة.

كُلُّ ما في الأمْرِ أنَّ صَديقًا عَزيزًا، الأُسْتاذَ يوسف مُعَوَّض، أهْدى دارَ الجديدِ لِنَحْوِ عامٍ خلا، في سِياقِ ما بَيْنَهُ وبَيْنَها مِنْ حَبْلِ كَلامٍ وقِراءَةٍ مَوْصولَيْنِ، هذا الكِتابَ، وَوَقَعَ الكِتابُ مِنّا، بَعْدَ مُطالَعَتِهِ، مَوْقِعَ الحَفاوَةِ بِهِ، وأخْطَرَتْ لنا هذِهِ الحَفاوَةُ فِكْرَةَ نَقْلِهِ إلى العَرَبِيَّة!

وإذْ تَعَذَّرَ على دارِ الجَديدِ أنْ تَتَّصِلَ بِمُتَرْجِمٍ يَنْقُلُ النَّصّ مِنَ الإيطاليَّةِ، لُغَتِهِ الأصْلِيَّةِ، إلى

العَرَبِيَّـةِ، وإذْ وَافَـقَ مُؤَلِّفُـهُ الأُسـتاذُ نوتشـيو أوردينـه علـى أنْ يُنْقَـلَ الكِـتابُ مِـنَ الفَرَنْسِـيَّةِ التـي وَقَـفَ بِنَفْسِـهِ علـى تَرْجَمَـةِ كِـتابِهِ هـذا إلَيْهـا، ارْتـأتْ دارُ الجَديـدِ، نَظَـرًا إلـى تَـنَوُّعِ مـادَّةِ الكِـتابِ وثَرائِهـا، أنْ يُتَرجَـمَ الكِـتابُ على مَرحَلَتَيْـنِ اثْنَتَيْـنِ، فأوْكَلَـتْ، بِدايَـةً، إلـى الأُسـتاذِ مُحَمَّـد علـي بَـدَوي أن يُعِـدَّ مُسَـوَّدَةَ تَرْجَمَـةٍ، فَفَعَـلَ مَشْـكورًا واضِعًـا مَعارِفَـهُ الثَّرَّةَ فـي تَصَرُّفِ هـذا العَمَـلِ، ثُـمَّ تَعَهَّـدَتْ، دارُ الجديـدِ، بِقَلَمِهـا، تَوْجيـهَ هَـذِهِ التَّرْجَمَـةِ الوُجْهَـةَ التي قَـرَأَتْ، هِـيَ، علـى هَـدْيٍ مِنْهـا، هـذا الكِـتاب.

مِـنْ ثَـمَّ، وبالنَّظَرِ إلـى النَّصِّ العَرَبِيِّ الـذي انْتَهَيْنا إلَيْـهِ مِـنْ مَنْظـورِ «الأصْـلِ» الـذي اعْتَمَدْنـا عَلَيْهِ، أي طَبْعَتَـيِّ النَّـصِّ الفَرَنْسِـيِّ الأوْلـى والثّانِيَـةِ، لا نَـرى غَضاضَةً في القَـوْلِ إنَّهُ أدْنى إلـى التَّلْخيصِ، بالمَعْنـى الـذي تَدَبَّـرَتْ بِـهِ العَرَبِيَّـةُ التَّلْخيـصَ، مِنْـهُ بالتَّرْجَمَـةِ الحَرْفِيَّـةِ؛ (ومِـنْ نافِلِ القَـوْلِ إنَّ

التَّلْخيص، بِهَذا المَعْنى، أبْعَدُ ما يَكونُ عَنِ الإيجازِ والاخْتِصار).

أخْذًا بِمَذْهِبِ التَّلْخيصِ هذا، وتَلْبِيَةً لِهذهِ النِّيَّةِ في نَقْلِ هذا النَّصِّ إلى العَرَبِيَّةِ، وبِناءً على أنَّ مَتْنَ **لِوَجْهِ ما لا يَلْزَمُ** وحواشِيهِ وهوامِشَهُ مَبْنًى واحِدٌ أحَدٌ، بدا لَنا أيْضًا أنَّ اطِّراحَ المَراجِعِ التي يُحيلُ إلَيْها المُؤَلِّفُ، وإضافَةَ عَدَدٍ مِنَ الهَوامِشِ المُخْتارَةِ التي تَأْخُذُ بِيَدِ القارِئِ في شِعابِ هذا النَّصِّ المَوْسوعِيِّ على قَليلِ صَفَحاتِهِ، لَيْسَ مِمّا يُخالِفُ ما قَصَدَ إلَيْهِ الأكاديميُّ نوتشيو أوردينه مِنْ وَراءِ وَضْعِهِ هذا الكِتابَ الذي يَصِفُهُ هو نَفْسُهُ بـ«البَيانِ» («المانيفستو»)، ولا هوَ مِمّا يَتَقَوَّلُ عَلَيْهِ ما لَمْ يَقْصِدْ إلَيْه.

لِوَجْهِ ما تَمَتَّعْنا بِهِ خِلالَ مُطالَعَتِنا هذا الكِتابَ/ البيانَ إذًا، بَلْ عِرْفانًا بِما تَمَتَّعْنا بِهِ، نَقَلْنا هذا

الكِـتابَ إلـى العَرَبِيَّـةِ علـى النَّحْـوِ المَذْكـورِ، فَعَسـى أنْ نَـكونَ قَـدْ أصَبْنا فـي ما ذَهَبْنـا إلَيْه مِـن اجْتِهـادٍ، وأن تُؤْجَـرَ مُتْعَتُنـا بِمِثْلِهـا!

نَقـولُ قَوْلَنـا هـذا، ويَنْعَقِـدُ أمَلُنـا علـى هـذا المُؤَمَّـلِ، غَيْـرَ أنَّـهُ لَيْـسَ مِمّـا نَمُـلُّ مِنْـهُ أنْ نُـرَدِّدَ المَـرَّةَ تِلْـوَ المَـرَّةِ قَوْلَ القاضـي البيسـانِيِّ مِنْ أنَّهُ «لا يَكْـتُبُ أحَدٌ كِـتابًا في يَوْمِهِ إلّا قالَ في غَدِهِ: لَـو غُيِّـرَ هذا لَـكانَ أحْسَـنَ، ولـو زيدَ هذا لَـكانَ يُسْتَحَسَـنُ، ولـو قُدِّمَ هذا لَـكانَ أفْضَـلَ، ولو تُرِكَ هـذا لَـكانَ أجْمَلَ، وهذا أعْظَـمُ العِبَرِ، وهو دَليلٌ علـى اسْـتيلاءِ النَّقْصِ علـى جُمْلَةِ البَشَـر»؛ فأنْعِمْ بِـهِ مِـنْ نَقْـصٍ وأنْعِمـي، وتَمَتَّـعْ وتَمَتَّعي...

دار الجـــديد

بيروت، تشرين الأوّل ٢٠١٨

إلى روزاليا

«وَمِنْ آياتِ الفَلْسَفَةِ
أنَّها تَـكْشِفُ لَنا جَدْوى ما لا جَدْوى
مِنْهُ، أو قُلْ: مِنْ آياتِها أنَّها تُعَلِّمُنا أنْ نُمَيِّزَ
بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ لِكَلِمَة جَدْوى».

بيار هادو(*)

مَدْخَل

(*) بيار هادو، (١٩٢٢-٢٠١٠)، فَيْلَسوفٌ فَرَنْسِيٌّ مُتَبَحِّرٌ في الفَلْسَفَةِ القَديمَةِ، ولا سِيّما الفَلْسَفَةَ النيوأفْلاطونيّة.

حَـقُّ الطِّبـاقِ الذي أتَّخِـذْهُ عُنْوانًا لِهذا الكِـتابِ أنْ أُبَيِّـنَ بَعْـضَ مَقاصِدِه.

فالجَـدْوى أو اللُّـزومُ اللَّـذانِ يَـدورُ عَلَيْهِمـا كَلامـي هُنا، لا شـأنَ لَهُما بالجَدْوى أو اللُّزومِ اللَّذَيْن يُـقالُ باسْـمِهِما، على سَـبيلِ المِثالِ، إنَّ العُلومَ الإنْسـانِيَّةَ، والمَعـارِفَ النَّظَرِيَّـةَ عُمومًا، لا لُـزومَ لها ولا جَدْوى مِنهـا. وإنَّمـا اصْطَنِـعُ لِهَذَيْـنِ المَفْهومَيْـنِ، فـي الصَّفَحـاتِ التّالِيَـةِ، مَعْنًى أكْـثَرَ انْبِسـاطًا وكُلِّيَّة.

فَمَـدارُ تَفْكيـري، وَمَـدارُ حَديثـي، هُنا، علـى لُزومِ المَعـارِفِ التـي لا صِلَـةَ، ولا رَحِـمَ، بَيْـنَ قَدْرِهـا وَقيمَتِهـا مِـنْ حَيْـثُ هـي كـذا ــ وعلـى جَدْواهـا اسْـتِطرادًا ــ وبَيْـنَ الغايـاتِ والمَـآرِبِ النَّفْعِيَّـةِ، أيًّا تَـكُنْ هـذِهِ الغايـاتُ والمَـآرِب.

نَعَمْ، لِبَعْضِ المَعارِفِ والعُلومِ غايَةٌ مُضَمَّنَةٌ فـي نَفْسِـها؛ ولأنَّ هـذهِ المَعـارِفَ، وهـذهِ العُلـومَ، مُتَرَفِّعَـةٌ عَـنِ الغاياتِ وعـنِ المَـآرِبِ العَمَلِيَّـةِ والرِّبْحِيَّـة، فَمِـنْ شَـأْنِها أنْ تُسـاهِمَ إسْـهاماتٍ حاسِـمَةً فـي تَطَـوُّرِ الفِكْـرِ، وفـي تَرَقّـي السُّـلوكِ البَشَـرِيِّ والحَضـارَةِ الإنْسـانِيَّة.

وإذْ هَوْ كَذلِكَ، فلا مُؤَدّى لاسْتِعْلاءِ المَنْطِقِ الرِّبْحِيِّ على ما سِواهُ إلّا تَقْويضُ أُسُسِ المُؤَسَّساتِ والمَرافِقِ التي يُفْتَرَضُ بِها أنْ تَرْعى هَذِهِ المَعارِفَ والعُلومَ في مَنأى مِنْ هاجِسِ الرِّبْحِ الآنِيِّ وَوَسْواسِ الاسْتِخْدامِ العَمَلِيِّ، وأعْني بِهَذِهِ المُؤَسَّساتِ والمَرافِقِ المَدارِسَ والجامِعاتِ والمَراكِزَ العِلْمِيَّةَ والمُخْتَبَراتِ والمَكْتَباتِ وما يُعادِلُها مِنْ دورِ الثَّقافَةِ والفُنون.

بِالطَّبْعِ، يُمكِـنُ لِلمَتاحِـفِ ولِلمَواقِـعِ الأثَرِيَّـةِ أنْ تَـدُرَّ عَوائِـدَ مالِيَّـةً لا يُسْـتهانُ بِها أحْيانًـا غَيْـرَ أنَّ السَّـبَبَ المُوجِبَ لإنْشـاءِ هـذا المُتْحَفِ أو ذاكَ، والسَّـبَبَ المُوجِـبَ لِرِعايَـةِ هـذا المَوقِـعِ الأثَرِيِّ

أو ذاكَ، لَيْسَ في الجَدْوى، بالمَعْنى التِّجاريِّ، مِنْهُ، وإنَّما في أصْلِ فِكْرَةِ وُجودِ هذا المُتْحَفِ، أوْ ذاكَ، وفي أصْلِ فِكْرَةِ المُحافَظَةِ على هذا المَوْقِعِ الأثَريِّ، أو ذاكَ، وإتاحَتِهِ أمامَ الزُّوّار. مَقولُهُ: إنَّ وُجودَ هذا المُتْحَفِ أو ذاكَ يَنْبَغي ألّا يَرْتَبِطَ، بِخِلافِ ما يُرَوِّجُ لَهُ البَعْضُ، بِما يَدُرُّهُ مِنْ عَوائِدَ أو لا يَدُرُّه.

وعلى غِرارِ المَتاحِفِ والمَواقِعِ الأثَرِيَّةِ، المَكْتَباتُ ومَراكِزُ التَّوْثيقِ وما يَجْري مَجراها مِمّا يَجِبُ أنْ يُنْزَلَ في مَنْزِلَةِ الوَقْفِ الجَماعِيِّ المَوْقوفِ للخَيْرِ العامِّ، ومِمّا يَجِبُ أنْ يُرْتَخَصَ في سَبيلِ وُجودِهِ وبقائِهِ الغالي والنَّفيس.

أبْني على هذا لأُضيفَ بأنَّ صِفَةَ الوَقْفِ هذِهِ حُجَّةٌ كافِيَةٌ وافِيَةٌ للمُخالَفَةِ على أولَئكَ الذينَ يَستَبيحونَ كُلَّ شَيءٍ بِذَريعَةِ أنَّ الأوْقاتَ عَصيبَةٌ، وأنْ الزَّمَنَ زَمَنُ ضائِقَةٍ اقْتِصادِيَّةٍ وأنَّ أحْكامَ السّوقِ والمُضارَبَةِ تُبَرِّرُ التَّضْييقَ

المُطَّرِدَ على ما لا لُزومَ لَهُ، ولا نَفْعَ مِنْهُ، بِداعي ضَبطِ النَّفَقاتِ وما شابَه.

مِنْ ثَمَّ، لا ضَيْرَ مِنَ القَوْلِ، بِلا وَجَلٍ ولا تَرَدُّدٍ، إنَّ لُزومَ المَعارِفِ غَيرِ المُجْدِيَةِ هو السَّدُّ المَنيعُ الذي يُمْكِنُ أنْ يَحولَ دونَ أنْ يَغْمُرَنا طُوْفانُ فِكْرَةِ الجَدْوى ـــ الجَدْوى بِمَعْنى أوَّلِيَّةِ المَنافِعِ الاقْتِصادِيَّةِ البَحْتِ ـــ وأنْ نَغْرَقَ في لُجَجِه.

فالجَدْوى، بِالمَعْنى المَذكورِ، أشْبَهُ بِقاتِلٍ مُحْتَرِفٍ تَسيلُ على يَدَيْهِ، دونَ أنْ يَرُفَّ لَهُ جَفْنٌ، دِماءُ الذّاكِرَةِ والعُلومِ الإنْسانِيَّةِ واللُّغاتِ القَديمَةِ وحُرِّيَّةِ البَحْثِ والفُنونِ والفِكْرِ النَّقْدِيِّ أعني: تَسيلُ على يَدَيْهِ دِماءُ كُلِّ المَعارِفِ والمَلَكاتِ التي تَتَأسَّسُ عَلَيْها الحَضارَةُ والتي يُفْتَرَضُ أنْ تَكونَ الغايَةَ المَرْجَوَّةَ لأيِّ جَهْدٍ بَشَرِيّ.

لِقُرونٍ خَلَتْ، في القَرْنِ الثّامِنَ عَشَرَ، كَتَبَ جان جاك روسّو(*):

(*)جان جاك روسّو: أديبٌ فَيْلسوفٌ عالِمٌ كانَتْ ولادَتُهُ في جنيفَ سَنَةَ ١٧١٢. يُعْتَبَرُ روسّو مِنْ وُجوهِ التَّنْويرِ الأوروبِيِّ حَيْثُ كانَ لأفْكارِهِ ونَظَرِيّاتِهِ تَأثيرٌ بالِغٌ في السِّياسَةِ والتَّرْبِيَةِ والآداب.

«كانَـتِ الأخْلاقُ والفَضائِلُ حَديثَ السَّاسَـةِ القُدامى، أمّـا أهْـلُ زَمانِـنا فَلَيْـسَ على ألْسِـنَتِهِم سِـوى حَديثِ التِّجـارَةِ والمال».

مُـؤَدّاهُ: كُلُّ مـا لا يَسْـتَجْلِبُ النَّفْعَ المـادِيَّ، والرِّبْحَ المُباشَـرَ، كَمالِـيٌّ نافِـلٌ لا فائِـدَةَ مِنْـهُ ولا لُـزومَ لَهُ، بَـلْ مُضَيِّـعٌ للوَقْـتِ وصـادٌّ عمّـا يَعودُ بالكَسْـب.

أمّـا رائِـدُ عَصْـرِ الأنـوارِ دِنيـه ديـدرو(*) فَيُلاحِـظُ بِـدَوْرِهِ أنَّ

«كُلَّ مـا لا جَـدْوى مِنْهُ، ولا لُزومَ لَـهُ، مُحْتَقَرٌ ومَوْضِعُ ازْدِراء... [فـ] الوَقْـتُ [فـي زَمانِـنا] أثْمَـنُ مِـنْ أنْ يُنْفَـقَ [علـى مـا يُحْمَـلُ على مَحْمَـلِ] التُرَّهـاتِ التي لا طائِـلَ مِنْهـا».

أمّا الكَلِمَةُ الفَصْلُ فَتَبْقى لِشارل بودلير(**)، ولأبْياتِهِ الخالِدَةِ التي يَصِفُ فيها مِحْنَةَ الشّاعِرِ بَيْنَ النّاس. لا يَجِدُ بودلير ما يُشَبِّهُ بِهِ الشّاعِرَ إلّا طائِرَ القَطْرَس

(*) دنيـه ديـدرو، (١٧١٣ ـ ١٧٨٤)، مَوْسـوعِيٌّ وَفَيْلَسـوفٌ فَرَنْسـيٌّ مِـنْ أعْلامِ التَّنْويـرِ الأوروبِيّ.

(**) شـارل بودليـر، (١٨٢١ ـ ١٨٦٧)، شـاعِرٌ وناقِـدٌ فَرَنْسـي. أشْـهَرُ دواوينـه **أزهار الشَّـرّ**.

الذي يَحولُ جَناحاهُ المارِدانِ، ما إنْ يَحُطَّ على يابِسَةٍ، بَيْنَهُ وبَيْنَ السَّيْرِ، ويَصيرُ أُضْحوكَةَ النّاظرين:

كذاكَ بَيْنَ النّاسِ حالُ الشّاعِرِ
حَظُّــهُ بَيْنَهُــم كَحَــظِّ الطّــائِرِ
يَقْتَحِمُ الإعْصــارَ في الظَّــلامْ
ولا يَــخْشــى رَمْيَــةَ كُـــلِّ رامْ
لكِنَّـــهُ عــلى الأرْضِ أسيــرُ
يُذْهِلُـــهُ التَّصْفيـــقُ والصَّفيــرُ
مِن ثِقَــلِ جَناحِهِ العِمْــلاقِ
يُعْجِزُهُ المَشْيُ مَشْيَ ذي السّاقِ(*)

لا تَدَّعي صَفَحاتُ هذا الكِتابِ الصَّغيرِ أنَّها تُحيطُ إحاطَةً مُسْتَغْرِقَةً بالمَوْضوعِ الذي تَتَصَدّى لَهُ. جُلُّ أمْرِها أنَّها رَجْعُ صَدىً لأفكارٍ وتأمُّلاتٍ أخْطَرَها لي هذا المَوضوع. وإذْ ذَهَبْتُ إلى وَصْفِها بـ«البيانِ»، («مانيفستو»)، على بَيِّنَةٍ مِنْ أنَّها لا تَسْتَوْفي، مِنْ حَيْثُ الإحاطَةُ مُقْتَضياتِ «البَيانِ»، فَتَدْليلًا على طَبيعَتِها «المُلْتَزِمَةِ» وهي

(*) تَرْجَمَة عبد الهادي الإدْريسي.

طَبيعَةٌ لَمْ تَنْفَكَّ سِمَةً تَسِمُني شَخْصِيًّا، وَتَسِمُ ما أنْشَطُ لَه.

لَقَدْ أرَدْتُ هذِهِ الصَّفَحاتِ إطارًا أُدْرِجُ تَحْتَهُ جُمْلَةً مِنَ المُخْتاراتِ ومِنَ التَّأَمُّلاتِ التي تَجَمَّعَتْ لَدَيَّ خِلالَ السَّنَواتِ الطِّوالِ التي قَضَيْتُها في التَّعْليمِ والبَحْث. وأعْتَرِفُ، ابْتِداءً، بأنَّني جَمَعْتُ هَذِهِ المُنْتَخَباتِ وهَذِهِ التَّأَمُّلاتِ على سَجِيَّتي، ومِنْ ثَمَّ فَلَعَلَّها أقْرَبُ ما تكونُ إلى مُسَوَّدَةٍ بِرَسْمِ أنْ تُسْتَكْمَلَ وتُسْتَتَمَ مِنْها إلى الكِتابِ الذي يَسْتَوْفي الغَرَضَ مِنْه. وبِهذا الاعْتِبارِ، وشَأنَ كُتُبِ المُنْتَخَباتِ والمُخْتاراتِ، فَلَعَلَّ شَيْئًا أهْمَلْتُهُ أو مَرَرْتُ دونَهُ أنْ يَبْدوَ للمُطالِعِ أجْدَرَ بالإثْباتِ مِمّا كانَ إثْباتُه.

على بَيِّنَةٍ مِنْ هَذِهِ العُيوبِ الأصْلِيَّةِ، رَسَمْتُ لِهذا البَيانِ أنْ يَدورَ على مداراتٍ ثَلاثَةٍ:

- مَدارٍ أوَّلٍ خَصَصْتُهُ بِجَدْوى الأدَبِ بِلِحاظِ ما يَبْدو عَلَيْهِ الأدَبُ مِنْ لاجَدْوى ومِنْ نُفول؛

- ومَدارٍ ثانٍ خَصَصْتُهُ بالعَواقِبِ الفادِحَةِ التي

تَسْتَجرُّها سِيادَةُ المَنْطِقِ النَّفْعِيِّ على التَّعْليمِ والبَحْثِ العِلْمِيِّ وسِواهُما مِنَ النَّشاطاتِ الثَّقافِيَّة؛

- ومدارٍ ثالِثٍ أرَدْتُ مِنْ وَرائِهِ مَزيدَ إيْضاحٍ لِما رَمَيْتُ إلَيْه، فَعَرَضْتُ على مَتْنِ صَفَحاتِهِ أمْثِلَةً بالِغَةً على ما بَيْنَ اللُّزومِ وأضْدادِهِ مِنْ جَدَلٍ واسْتَعَدْتُ مُخْتاراتٍ بِقَلَمِ عَدَدٍ مِنْ أعْيانِ الأدَبِ، على مَرِّ العُصورِ، تُسَفِّهُ هاجِسَيِّ الحِيازَةِ والتَمَلُّكِ، وتُبَيِّنُ الطَّبيعَةَ الوَهْمِيَّةَ للشَّأْنِ والقَدْرِ اللَّذَيْنِ نَنْسِبُهُما لَهُما وتُدَلِّلُ على ما يَتَرَتَّبُ مِنْ أثَرٍ فادِحٍ مِنْ جَرّاءِ اسْتِعْلاءِ ذَيْنِكَ الهاجِسَيْنِ ولا سِيَّما على سَعْيِ الإنْسانِ إلى الكَمالِ وسَعْيِهِ إلى الحُبِّ والحَقيقَة.

كَذَلِكَ فَلَقَدِ اسْتَحْسَنتُ أنْ أسْتَكْمِلَ تأمُّلاتي بأنْ أُضيفَ إلَيْها بَحْثًا فَذًّا وَضَعَهُ أبراهام فلكسنر(*)

(*) أبراهام فلكسنر، (١٨٦٦ ـ ١٩٥٩)، مُرَبٍّ أميركيٌّ كانَ لَهُ دَوْرٌ حاسِمٌ في إصْلاحِ القِطاعِ التَّرْبَويِّ/التَّعْليميِّ في الوِلاياتِ المُتَّحِدَةِ الأميركيَّةِ وكَنَدا، ولَهُ يَعودُ الفَضْلُ بِتأسيسِ «مَعْهَد الدِّراساتِ المُتَقَدِّمَةِ» المُلْحَقِ بِجامِعَةِ برينستون.

سَـنَةَ ١٩٣٧ ونُشِـرَتْ مِنْـهُ نُسْـخَةٌ مُنَقَّحَـةٌ بَعْدَ ذَلِكَ بعامَيْـنِ اثْنَين.

ولِمَـنْ لا يَعْـرِفُ، فـإنَّ الفَضْـلَ فـي إنْشـاءِ «مَعْهَدُ الدِّراسـاتِ المُتَقَدِّمَـةِ» التَّابِـعِ لِجامِعَةِ بِرينسـتون إنمـا يعودُ لَـهُ ولإصْـرارِهِ. والمَعْهَـدُ المَذْكـورُ إنَّما أُنْشِـئَ لإتاحَـةِ الفُرْصَـةِ أمـامَ العُلَمـاءِ والباحِثِينَ لِيَنْصَرِفـوا إلـى عُلومِهِـم وأبْحاثِهِـم مُتابِعيـنَ نِداءَ الفُضـولِ فـي مَنْأى مِـنْ أيِّ مُوجِـبٍ أو اشْـتِراطٍ نَفْعـيٍّ أو عَمَلِـيٍّ.

وَحَسْـبُنا أنْ نُذَكِّـرَ بـأنَّ عِظامًـا مِـنْ مِثْـلِ ألبـرت آينْشـتاين(*) وروبرت أوپنهايمر(**) قَدْ قَضيا بَعْضًا مِـنْ عُمْرِهِمـا فـي هـذا المَعْهَـدِ لِنُـدْرِكَ مَكانَتَـهُ كَصَـرْحٍ عِلْمِـيٍّ نَسـيجَ وَحْـدِه.

(*) ألبِرْت آينشـتاين، (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥)، عالِمٌ ألمانيُّ المَوْلِدِ، سويسـرِيُّ الجِنْسِيَّةِ وأميركِيُّهـا، مَوْلـودٌ لأبَوَيْـنِ يَهودِيَّيْـن، وهـو واضِـعُ نَظَرِيَّتَـيْ النِّسْبِيَّةِ الخاصَّـةِ وَالعامَّـةِ. حـازَ فـي عـامِ ١٩٢١ جائِـزَةَ نوبـل فـي الفيزياء.

(**) روبـرت أوپنهايمـر، (١٩٠٤ ـ ١٩٦٧)، فيزيائـيٌّ أمريكـيٌّ شَـغَلَ مَنْصِبَ المُديـرِ العِلْمِـيِّ لـ«مَشْـروع مانهاتـن» الـذي أثْمَـرَ تَصْنيـعَ أوَّلِ سِـلاحٍ نَـوَوِيٍّ اسْـتُخْدِمَ فـي تاريـخِ البَشَـرِيَّة.

فـي هـذا النَّصِّ الرّائِـعِ الـذي أضْفنـاهُ إلـى كِـتابِنا هـذا، يَـرْوي لَنـا فلكسـنر سـيرَةَ بَعْـضِ الاكْـتِشافاتِ العِلْمِيَّـةِ الكُبْـرى مُبَيِّنًا فـي مَعْرِضِ رِوايَتِـهِ كَـيْفَ أنَّ أبْحاثًـا عِلْمِيَّـةً حُمِلَـتْ أوَّلَ الأمْـرِ علـى مَحْمَـلِ النّافِلَةِ والتي لا لُـزومَ لها ولا جَـدْوى مِنها لِخُلُـوِّ نِيَّـةِ أصْحابِها مِـنْ أيِّ غَـرَضٍ عَمَلِـيٍّ أو نَفْعِيٍّ، مَهَّدَتِ السَّـبيلَ إلى اخْتِراعاتٍ، مِـنْ قبيـلِ الكَهْرَبـاءِ والتَّواصُـلِ اللّاسِـلْكيِّ، غَيَّرَتْ وَجْـهَ البَشَـرِيَّةِ.

فـي مـا يَعنينـي، لا بُـدَّ لـي مِـنَ الاعْتِـرافِ بـأنَّ بَحْـثَ فلكسـنر هـذا أعانَنـي علـى تَبْديدِ مـا قَدْ يَغْشـى مَواقِفـي مِـنْ الْتِبـاس.

فَبِطَبيعَـةِ الحـالِ، ومِمّـا لا أحْتـاجُ إلـى التَّأكيـدِ عليـه، أنَّـهُ لَيْـسَ فـي نِيَّتـي أنْ أنْصُـبَ المَعـارِفَ الإنْسـانِيَّةَ مَنْصِـبَ العَـداءِ مِنَ المَعـارِفِ العِلْمِيَّةِ علـى نَحْوِ ما سـادَ ابْتِـداءً مِنْ خَمْسـينيّاتِ القَرْنِ العِشْـرين تَحْتَ تَأْثيرِ بَحْثٍ شَـهيرٍ نَشَرَهُ أيّامذاكَ

تشـارلز پرسي سـنو(*). ولو أنّني سَعَيْتُ إلى ذَلِكَ لَـكُـنْتُ كَمَـن يُحـاوِلُ نَفْـخَ النّـارِ في رَمـادٍ بارِدٍ، أو كَمَـنْ يُحَمِّـلُ نَفْسَـهُ حِمْـلًا ثَقيـلًا ويَمْشـي بِهِ فـي رِمـالٍ مُتَحَرِّكَـة، وَلَأَثْبَـتُّ علـى نَفْسـي قَليـلَ فَهْمـي لِمـا يَحُمُّ مِنَ ضـرورَةِ الدَّعْـوَةِ إلى وَحْدَةِ المَعـارِف أي إلـى ذَلِـكَ «الحِلْـفِ الجَديدِ» الذي رافَـعَ عَنْـهُ، فـي صَفَحـاتٍ وَضيئَـةٍ، حامِـلُ جائِزَةَ نوبـل إليـا پريغوجيـن(**) وهـي الوَحْـدَةُ التـي يَتَهَدَّدُهـا اليَـوْمَ الإفْـراطُ فـي تَبْعيـضِ المَعـارِفِ والتَّخَصُّصـاتِ العِلْمِيَّـةِ وتَجْزِئَتِها.

ومِمّـا نَديـنُ بِهِ لفلكسـنر في بَحْثِـهِ هذا، مـا يُبَيِّنُهُ بالدَّليـلِ القاطِـعِ مِـنْ أنَّ العُلـومَ شـاهِدٌ علـى لُزومِ مـا لا يَلْـزم، ومِـنْ أنَّ لِـرُوّادِ العُلـومِ البَحْـتِ يَـدًا لا تَـتَدَنّى عَـنْ يَـدِ عُلمـاءِ الإنْسـانِيّاتِ فـي الحَـرْبِ

(*) تشـارلز پرسـي سـنو، (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠)، أديـبٌ وكيميائـيٌّ بريطانِـيّ. مِـنْ أشْـهَرِ آثـارِهِ **الثّقافَـتان**، (١٩٥٩)، الـذي يَرْثـى فيـه للقَطيعَـةِ بَيْـنَ مَنْ يُسَـمّيهم «المُثَقّفيـنَ الأدَبِيّيـن» وَمَـنْ مَـنْ يُسَـمّيهم «المُثَقّفيـنَ العِلْمِيّيـن».

(**) إليـا پريغوجيـن، (١٩١٧ ـ ٢٠٠٣)، كيميائـيٌّ وفيزيائـيٌّ بلجيكـيٌّ مِـنْ أصْـلٍ روسِـيّ. حـازَ جائِـزَةَ نوبـل عـام ١٩٧٧.

علـى تَسَـلُّطِ مَنْطِـقِ الرِّبْـحِ وتَسَـيُّدِهِ، وفـي الدِّفاعِ عَـنْ حُرِّيَّـةِ البَحْـثِ العِلْمِـيِّ ومَجانِيَّـةِ المَعْرِفـة.

بِشَـهادَةِ جُمْلَـةٍ مِمّـا انْتَهـى إلَيْنـا مِـنْ تَأَمُّـلاتِ أرسـطو(*)، وبشـهادَةِ عَدَدٍ مِـنْ أخْبـارِ إقليدس(**) وأرخميـدس(***) وغَيْرِهِما، لَـمْ يَفُتْ أهْلَ العُصورِ الخَوالـي التَّمْييـزُ بَيْـنَ بابَيْـنِ مِـنَ العِلْـمِ: عِلْـمٍ تَأَمُّلـيٍّ مُتَرَفِّـعٍ عَـنِ الرِّبْحِيَّـةِ وعَنِ المَنافِـعِ الآنِيَّةِ، وعِلْـمٍ ذي وُجْهَـةٍ تَطْبيقيَّـةٍ نَفْعِيَّـةٍ عَمَلِيَّـة.

فَمِمّـا يَتَعَـذَّرُ، حَـدَّ الاسْتِحالَةِ، أنْ تُـكالَ القِيَـمُ، وأنْ تُقـاسَ، بِمَوازيـنِ الكَيْـلِ والقِيـاسِ الصّالِحَـةِ لِكَيْـلِ الكَمِيّـاتِ. وَبِما أنَّ هـذه المَوازينَ لا تَصْلُحُ بِطَبيعتها لكَيْـلِ الكَيْفِيّـاتِ وقياسِـها لا بُـدَّ مِـنَ

(*) أرِسْطو، (٣٨٤ ق.م. ـ ٣٢٢ ق. م)، فَيْلَسـوفٌ يُونانـيٌّ، تَـتَلْمَذَ علـى أفلاطـون وتَلْمَـذَ الإسـكندر الأكبر.

(**) أقليـدس: فَيْلَسـوفٌ ورِياضِـيٌّ يُونانـيٌّ كانَ مَوْلِـدُهُ حوالـى ٣٠٠ قَبْلَ الميلاد. لَـهُ تُنْسَـبُ «الهَنْدَسَـةُ الإقليديَّـة»، وَكِتابُـهُ **العَناصِـر** دُسْـتورٌ مِـنْ دَسـاتيرِ العِلْـمِ الرِّياضِـيِّ فـي تاريخِ البَشَـرِيَّة.

(***) أرخميـدس، (٢٨٧ ق.م. ـ ٢١٢ ق. م)، عالِـمُ فَلَـكٍ وطَبيعيّـاتٍ وفيزيائيّـاتٍ ومُهَنْـدِسٌ ومُخْتَـرِعٌ يُونانيّ.

التَّسْـليمِ بـأنَّ كُلَّ الاسْـتِثْماراتِ لا تُـزانُ بِعَوائِدِهـا المُباشَـرَةِ فَحَسْـب.

بَـلْ أكْــثَرُ مِنْ ذلكَ: إنَّ المَعـارِفَ، بِحَدِّ ذاتِها، هي سَـدٌّ مَنيـعٌ يَقْطَـعُ الطَّريقَ علـى أوْهـامِ الجَبَروتِ التـي يُزَيِّنُها امْتِـلاكُ الثَّرَواتِ والمُقَـدَّراتِ الماليَّة.

نَعَـم، لِلْمـالِ أنْ يَشْـتَرِيَ كُلَّ ما لَـهُ مِـنْ ثَمَـن: يَشْـتَري المـالُ لِصاحِبِـهِ مَقْعَـدًا فـي المَجْلـسِ النِّيابـيِّ، أو فـي مَجْلِـسٍ مِـنْ مَجالِـسِ القَضـاء... يَشـتري لَـهُ وَجاهَـةً اجتماعيَّةً أو مَنْصِبًـا حُكومِيًّا؛ نَعَـم، يَشْـتَري المـالُ هـذهِ «الأشْـياءَ» وسِـواها كَـثيرٌ غَيْـرَ أنَّـهُ لَيْـسَ للمـالِ أنْ يَشْـتَرِيَ لِصاحِبِـهِ العِلْـمَ والمَعْرِفَـة!

فَثَمَـنُ العِلْـمِ والمَعْرِفَـةِ مِـنْ طَبيعَـةٍ مُخْتَلِفَةٍ كُلَّ الاخْتِـلافِ عَمّـا يُمْكِـنُ للمـالِ أنْ يَشْـتَريه: حَتّـى شـيكٌ علـى بَيـاضٍ، شـيكٌ مَفْتـوحٌ، لا يُمْكِنـهُ أنْ يُحْـرِزَ لِحامِلِـه، تِلقائِيًّـا، مـا يَصْبو إلى إحْـرازِهِ مِنْ عِلْـمٍ ومَـنْ مَعْرِفَة. فلا إحْـرازَ للعِلْـمِ والمَعْرِفَةِ إلّا

مِنْ طَرِيقِ بَذْلِ الجَهْدِ، ولا بَذْلَ لِجَهْدٍ إلّا شَوْقًا إلى أمْرٍ أو تَوْقًا مَشْبوبًا إلَيْه.

نَعَم، لِطالِبِ الوَجاهَةِ العِلْمِيَّةِ أن يَشْتَرِيَ دَرَجَةً عِلْمِيَّةً، ولكنْ هَلْ تَزيدُهُ هذه الشَّهادَةُ المُشْتَراةُ كما تُشْرى السِّلَعُ عِلْمًا؟ بالطَّبْع كلّا!

ثُمَّ لنا أنْ نَذْهَبَ إلى أبْعَدَ مِمّا ذَهَبْنا إلَيْه: فَمِنْ شيمَةِ المَعارِفِ أنْ تَتَحَدّى قَوانينَ السّوقِ على وَجْهٍ آخَرَ: لا يَنْتَقِصُ مِنْ مَعارِفِ الواحِدِ مِنّا شَيئًا أنْ يُشْرِكَ الآخرينَ بِمَعارِفِه. بَلْ لَعَلَّ هذا الإشْراكَ أنْ يُنَمِّيَها وأنْ يُضاعِفَها! فَعِنْدَما يُعَلِّمُ واحِدٌ مِنَ النّاسِ واحِدًا آخَرَ نَظَرِيَّةَ النِّسْبِيَّةِ، أو يُفَسِّرُ لَهُ صَفْحَةً مِنْ أدبِ ميشال دو مونتينه(*) لا يُقَلِّلُ هذا التَّعْليمُ مِنْ عِلْمِهِ، هو، بالنِّسْبِيَّة أو بأدَبِ دو مونتينه في شَيْءٍ بَلْ يُتيحُ لَهُ أنْ يُثْرِيَ عِلْمَهُ بِهِما مِنْ خِلالِ التَّفاعُلِ بَيْنَهُ وبَيْنَ مَنْ يُعَلِّم، وهكذا

(*) ميشال دو مونتينه، (١٥٣٣ ـ ١٥٩٢)، أديبٌ ومُفَكِّرٌ فَرَنْسِيٌّ مِنْ أعْلامِ عَصْرِ النَّهْضَةِ الأوروبِيّ.

يَنْقَلِبُ العاطي كاسِبًا، والمُفْضِلُ مُفْضَلًا عَلَيْه، وهو ما يُخالِفُ قَوانينَ السّوقِ ومَنْطِقَه.

يَتَعَذَّرُ، نَعَم، في عالَمٍ، يَحْكُمُ فيه، وعَلَيْه، «الكائِنُ الاقْتِصاديُّ»، (الـ«هومو إيكونوميكوس»)، ـــ يَتَعَذَّرُ أنْ نُدْرِكَ بِيُسْرٍ لُزومَ ما لا يَلْزَمُ وجْدواه، ولا جَدْوى ما يَلْزَمُ وَنُفولَهُ، ومِصْداقُ هذا التَّعَذُّرِ أنَّ الكَثيرَ مِنَ السِّلَعِ النّافِلَةِ تُباعُ مِنّا بِوَصْفِها مِنَ الضَّروريّات!

وبِمِقْدارِ ما يَتَعَذَّرُ ذَلِكَ، يُفْجِعُ، كُلَّ الفَجيعَةِ، ما نَراهُ مِنِ انْصِرافِ الكَثيرينَ مِنْ بَني البَشَرِ إلى تَكْديسِ الثَّرَواتِ والاسْتِئْثارِ بالسُّلْطَةِ، وَيُفْجِعُ كُلَّ الفَجيعَةِ ما نَراهُ على الشّاشاتِ وفي وَسائِلِ التَّواصُلِ الاجْتِماعِيِّ مِنْ تَقَمُّصِ «النَّجاحِ» على صُورَةِ مُقاوِلٍ أو رَجُلِ أعْمالٍ يَتَيَسَّرُ لَهُ، بِطُرُقِ الاحْتِيالِ، بِناءُ إمْبراطوريَّةٍ مُتَرامِيَةِ الأطْرافِ، أو على صورَةِ سِياسِيٍّ فاسِدٍ لا يُفْلِتُ مِنْ نَيْلِ العِقابِ على جرائِمِهِ فَحَسْب بَلْ يُهينُ مَفْهومَ التَّمْثيلِ الشَّعْبيِّ بأنْ يَجْعَلَ بَرْلَمانَ البَلَدِ الذي

يَنْتمي إلَيْهِ يُصَوِّتُ على قوانينَ وتَشريعاتٍ يُفيدُ مِنْها هو شَخْصِيًّا، بَلْ يُفْجِعُ، كُلَّ الفَجيعَةِ، أنْ يَتَحَوَّلَ الرِّبْحُ والإثْراءُ إلى أرْضِ ميعادٍ تَهْفو إلَيْها القُلوبُ ويُهْرَعُ النّاسُ إلَيْها لا مُبالينَ بِما تَدوسُ عَلَيْهِ أقْدامُهُم في هَرَعِهِم هذا مِنْ ذَخائِرَ طَبيعيَّةٍ لا تَوازُنَ بيئِيًّا بِدونِها ولا كَرامةَ بَشَرِيَّة.

ضِفْ إلَيهِ أنَّ الناسَ في سِباقِهِم المَجنونِ هذا إلى أرْضِ الميعادِ تِلْكَ يُعْمونَ عُيونَهُم بأيْديهِم عَنْ مُتَعِ الحَياةِ والكَوْنِ وجَمالاتِهِما: عَنْ جَمالِ غُروبِ الشَّمْسِ أو جَمالِ السَّماءِ المُرَصَّعَةِ بالنُّجومِ، عَنْ جَمالِ زَهْرَةٍ تَتَفَتَّحُ أو فَراشَةٍ تَطيرُ أو طِفْلٍ يَبْتَسِمُ ولا يُسْتَهانَنَّ بِهَذِهِ الجَمالاتِ على بَساطَتِها فَهَيْهاتَ مِمَّنْ لا يَتَذَوَّقُ هذهِ التَّفاصيلَ أنْ يَسْتَمْتِعَ بِما هو فَوْقَها وأكْبَر مِنها.

ولَكَمْ أصابَ أوجين يونسكو(*) عِنْدما قال: «مَنْ

(*) أوجين يونسكو، (١٩٠٩ ـ ١٩٩٤)، مُؤَلِّفٌ مَسْرَحِيٌّ فَرَنْسِيٌّ رومانيُّ الأصْل. مِنْ أشْهَرِ مَسْرَحِيّاتِهِ المُعَرَّبَة **الكَراسي** و**المُغَنِّيَة الصَّلْعاء**.

لا يَفْقَهُ لُزومَ ما لا يَلْزَمُ ونُفولَ ما يَلْزَمُ، لا يَفْقَهُ مِنَ الفَنِّ شَيْئًا». ومِنْ قَبْلِ أنْ تَوَصَّلَ يونسكو إلى قَناعَتِهِ هذِهِ كانَ مُثَقَّفٌ يابانِيٌّ، هو النّاقِدُ أوكاكورا كاكوزو، (١٨٦٢ ـ ١٩١٣)، قَدْ ذَهَبَ إلى ما مُفادُهُ أنَّ اللَّحْظَةَ التي انْفَصَلَ فيها الإنْسانُ عَنِ الكائِناتِ الحَيَّةِ الأُخْرى هي تِلْكَ اللَّحْظَةُ التي انْحَنى فيها لِأَوَّلِ مَرَّةٍ وقَطَفَ فيها زَهْرَةً لِيُهْديها لِصاحِبَتِهِ:

«فإنَّما دَلَفَ الإنْسانُ إلى مَلَكوتِ الفَنِّ عِنْدما أحْسَنَ تَصْريفَ ما لا لُزومَ لَهُ مِنْ فِعْلٍ ومِنْ سُلوك».

مُنْتَهى القَوْلِ: لا شاعِرِيَّةَ مُمْكِنَةً إلّا في مَنأى مِنَ العَجَلَةِ ومِنْ حِساباتِ الرِّبْحِ والخِسارَةِ.

يَقولُ راينر ماريا ريلكه(*):

«لا يَكونُ الفنانُ فنّانًا حَقًّا إلّا مَتى أعْرَضَ عَنِ الحِسابِ وعَنِ الإحْصاء... لا يَكونُ الفَنّانُ فَنّانًا حَقًّا إلّا متى أشْبَهَ شَجَرَةً لا تَسْتَعْجِلُ دَورانَ

(*) راينر ماريا ريلكه، (١٨٧٥ـ ١٩٢٦)، شاعِرٌ نِمْساوِيٌّ مِنْ أبْرَزِ آثارِهِ **مَرْثِيّات دوينو** و**رَسائِل إلى شاعِرٍ شابٍّ**.

النُّسْغِ فـي أغْصانِها وعُروقِها ـــ شَـجَرَةً تَصْمُـدُ لِعواصِـفِ الرَّبيـعِ واثِقَـةً مِـنْ أنَّ الرَّبيـعَ علـى الأبـواب...».

نَعَمْ، حاجَتُنا إلى النّافِلِ وما لا لُزومَ لَهُ كحاجَتِنا إلى الهَواء.

أعودُ عَوْدي إلى يونِسْكو:

«الشِّـعْرُ والخَيـالُ والإبْـداعُ أشْـكالٌ مِـنَ التَّنَفُّـسِ الـذي لا حَيـاةَ مِـنْ دونِـه».

وهـو كَذَلِـكَ: فَهَـذِهِ النَّشـاطاتُ التـي يَعُدُّهـا الكَثيـرونَ نافِلَـةً وغَيْرَ ذاتِ نَفْـعٍ وجدَوى هي ما يَمُدُّنـا بِمـا نَحْتـاجِ إلَيْـهِ مـن عَـزْمٍ لِنَتَصـوَّرَ عالمًا أفْضَـلَ مِـنَ العالَـمِ الـذي نَعيـشُ فيـهِ أو لِنُؤَلِّفَ عَوالِـمَ مِثالِيَّـةً تَنْتَفـي فيهـا المَظالِـمُ والفَـوارِقُ المُؤْلِمَـةُ التـي تَسـودُ علـى عالَمِنـا هـذا.

ويَزيـدُ مِـنْ إلْحـاحِ حاجَتِنـا إلى النّافِـلِ وما لزومَ لَـهُ مـا يكـونُ فـي أوْقـاتِ الأزمـاتِ الاقْتِصاديَّـةِ مِـنْ تَقْديمٍ لِهاجِسِ اسْـتِجلابِ المَنافِـعِ. فالأنانِيَّةُ بأسْـوأِ مـا يُمْكِن أن تَـتَهَيَّأَ عَلَيْه مِـنْ هَيْئَةٍ تَصيرُ

البُوصَلَـةَ التـي يُؤْتَـمُّ بِها، وخَشَـبَةَ الخَـلاصِ التي لا نَجـاةَ إلّا علـى مَتْنِها.

ففـي هَـذِه الأوْقـاتِ، أكْـثَرَ مِـنْ سِـواها، يَلْزَمُنا أنْ «نَفْقَـهَ، علـى مـا يَقـولُ عالِمـانِ مَشْـهودٌ لَهُمـا(*)، بِـأنَّ جَـدْوى مـا لا جَـدْوى مِنـه هـو رَفيـقُ الحَيـاةِ والإبْـداعِ والحُـبِّ والرَّغَبـاتِ لأنَّ مـا لا جَـدْوى مِنْهُ هـو الشَّـجَرَةُ التي تُثْمِـرُ لنـا الثَّمَـراتِ التـي نَحْـنُ بأمَـسِّ الحاجَـةِ إلَيْهـا، وأمَسُّ مـا نَحتاجُ إلَيْـهِ أحيانًا هـو أنْ نَعِـيَ أنَّ الحَيـاةَ لَيْسَـتْ دائِمًـا مُسـابَقَةً للوَقْـتِ تَحْـتَ عُنـوانِ عَـدَمِ إضاعَتِـه!».

ويَحْضُرُنـي هُنـا مـا قالَـهُ ماريـو فارجـاس لوسّـا(**) بِمناسَـبَةِ تَسَـلُّمِهِ جائِـزَةَ نُوبـل عـام ٢٠١٠:

«إنَّ عالَمًـا خاليًـا مِنَ الآدابِ والفُنـونِ لَهُوَ عالَمٌ مَبْتورُ الرَّغَبـاتِ، مَنْـزوعٌ مِـنَ المِثاليّات، مُعَطَّلٌ عَـنِ الإقْدامِ، بَـلْ قُـلْ لَهُوَ عالَمٌ مِـنَ الكائِنـاتِ الآلِيَّـةِ المُفْتَقِرَةِ إلى مـا يَجْعَـلُ الكائِـنَ البَشَـرِيَّ يَسْـتَحِقُّ هَـذِهِ المَرْتَبَـةَ؛ وإنَّمـا يُرَتِّـبُ هـذا الاسْـتِحْقاقُ للكائِـنِ البَشَـرِيِّ مـا

(*) هُما عالِما النَّفْسانِيّاتِ ميغال بنساياج وجيرار شميت.

(**) ماريو ڤارچاس لوسّا، (١٩٣٦ ـ   )، كاتِبٌ وصِحافِيٌّ وسِياسِيٌّ مِنَ البيرو.

نَعْرِفُهُ لَهُ مِنَ قُدْرَةٍ على أنْ يَنْحِتَ نَفْسَهُ في الحُلْمِ والخَيالِ، بِوَصْفِهِ آخَرَ، أوْ حتّى آخَرين».

لا بُدَّ للواحِدِ مِنّا، والواحِدَةِ، أنْ يَقِفَ على جَدَلِ الجَدْوى وعَدَمِها واللُّزومِ وعَدَمِهِ لِيَتَحَقَّقَ بِنَفْسِهِ مِنْ أحَدِ تِلْكَ التَّناقُضاتِ الصّارِخَةِ التي يَعْمُرُ بِها التّاريخ: لَيْسَ مِنْ بابِ الصُّدْفَةِ أنَّ المَكْتَباتِ والأعْمالَ الفَنِيَّةَ تَدْفَعُ، في مَراحِلِ التّاريخِ التي يَتَعَزَّزُ فيها التَّعَصُّبُ ويَشْتَدُّ عَضُدُهُ، أثْمانًا مُساوِيَةً لِتِلْكَ التي يَدْفَعُها البَشَرُ المُغْضوبُ عَلَيْهِم باسمِ ذَلِكَ التَّعَصُّب!

في هذه المَراحِلِ مِنَ التّاريخِ يَشْتَدُّ النَّكيرُ على كُلِّ ما يَبْدو نافِلًا وغَيْرَ ذي جَدْوى، أو يُوسَمُ بِوَسْمِ النّافِلِ وغَيْر ذي الجَدْوى واسْتِطْرادًا بِوَسْم اللّالُزوم: أَلَيْسَ بالاسْتِنادِ إلى فَتاوى مِنْ هذا القَبيلِ أنْ أُحْرِقَتْ في الإسْكَنْدِرِيَّةِ عَشَراتُ الكُتُبِ المَوْسومَةِ بِـ«الوَثَنِيَّةِ» بأمْرٍ مِنَ الأسْقُفِ تيوفيل؟ وأنْ أُحْرِقَتِ المَكْتَبَةُ المَلَكِيَّةُ في الصّينِ بَعْدَ اسْتيلاءِ قبائِلِ الهسيونغ نو على

مدينـةِ ليـو يانج في القَـرْنِ الرابِعِ للميلاد؟ وكُـتُبُ مَنِ اتَّهَمَتْهُم محاكِمُ التَّفْتيشِ بـ«الهَرْطَقَة»؟ وأَلَيْسِ باسْـمِ أمْثـالِ هـذِهِ الفَتـاوى أنْ أُحْرِقَتْ فـي بَرْلينَ، وَسْطَ احْتِفالاتٍ شَعْبِيَّةٍ، على أيْدي النّازِيّين، كُـتُبُ «الأدَبِ المُنْحَـطِّ»؟ وأنْ دَمَّـرَ الطّالبـانُ تَماثيلَ بوذا فـي باميـان (٢٠٠١)، وأنَّ «الجِهادِيّينَ» يُحاوِلونَ بِلا كلالَةٍ تَخْريبَ مَكْـتباتِ تومبوكـتو؟

لَيْسَـتْ هَـذِهِ العَيِّنـاتُ إلّا قَليـلًا مِـنْ كَثيـرٍ ولكِـنَّ فيهـا الكِفايَـةَ لِنَتَأَمَّـلَ فـي طَبيعَـةِ العُنْـفِ الـذي يُوَجَّـهُ أحْيانًـا إلـى جَماداتٍ عَـزلاءَ بِحُجَّـةِ لا جَدْواهـا، ولِنَخْلُـصَ مِـنْ هـذا التَّأَمُّـلِ، فـي عِـدادِ خُلاصـاتٍ أخْـرى، إلـى أنَّ هـذا العُنْـفَ يُثْبِـتُ بِذاتِـهِ، وعلـى غَفْلَةٍ مِنْ أصْحابِـهِ، أنَّ مُجَرَّدَ وُجودِ هـذه الأشـياءِ التـي يَأْخُـذونَ عَلَيْهـا لا جَدْواهـا، ويَحْكُمـونَ عَلَيها بالإعْـدامِ، يَطْعَـنُ فـي المَنْطِقِ الذي يَتَأَسَّـسُ عَلَيْـهِ رأيُهُم وتَشْـخيصُهم بِأنَّها غَيْرُ ذي نَفْـعٍ وجَـدْوى!

ومِـنْ دُروسِ التّاريـخِ أيْضًـا وأيْضًـا أنَّهُ ما مِـنْ مَرَّةٍ

انْحَطَّتْ فيها البَشَرِيَّةُ إلّا ورافَقَ هذا الانْحِطاطَ امِّحاءٌ للتَّعْبيراتِ الجَمالِيَّةِ الرَّفيعَة.

في الصَّفَحاتِ الأخيرَةِ مِنْ الرِّسالَةِ المُعَنْوَنَةِ **في البَديع**، وهي مِنْ أهَمِّ كُتُبِ النَّقْدِ الأدَبِيِّ التي خَلَّفَتْها لنا العُصورُ القَديمَةُ، يُفَصِّلُ لونجين الزّائِف(*)، واضِعُ هَذِهِ الرِّسالَةِ، الأسْبابَ التي أدَّتْ إلى انْحِطاطِ الآدابِ والمَعارِفِ في روما، والتي حالَتْ دونَ أنْ يَبْزُغَ فيها بَعْدَ سُقوطِ نِظامِها الجُمهوريِّ كُتّابٌ كِبارٌ حَقًّا:

«نَعَمْ، إنَّ شَهْوَةَ المالِ والثَّرْوَةِ مَرَضٌ لا إبْلالَ مِنْهُ [...] حُبُّ الشَّهَواتِ يَسْتَرِقُّ المَرْءَ وشَهْوَةُ المالِ تَنْتَقِصُ مِنْهُ [...] وإذْ يَنْشَغِلُ الأنانِيّونَ مِنَ البَشَرِ بِهَذِهِ المَعْبوداتِ الزّائِفَةِ فَهُمْ يُشيحونَ بِأبْصارِهِم عَنِ النَّظَرِ إلى أعْلى بَلْ يَفْقِدونَ القُدْرَةَ على النَّظَرِ إلى أعلى [... ويَنْتهي الأمْرُ] بأنْ يَفْسُدَ ما جُبِلَتْ عَلَيْهِ نُفوسُهُم من عُلُوّ».

ومتى ما تَسَيَّدَ الانْحِطاطُ الأخْلاقِيُّ، و«متى ما

(*) لونجين الزائف هو اسْمٌ أطْلَقَهُ المُحَقِّقونَ على كاتِبٍ يونانيٍّ مَجْهولٍ عاشَ في القَرْنِ الثّاني أو الثّالث.

تَحَكَّمَ الفَسادُ بِحياةِ النّاسِ، فلا غَرْوَ أنْ يَضيقَ العالَمُ فلا يَتَّسِعُ لِما هو جَميلٌ ورَفيعٌ وسام».

وعلى ما لا يَفوتُ لونجين التَّذْكيرُ بِهِ فإنَّ الجَّميلَ والرَّفيعَ والسّامي لا يَتَفَتَّحُ خارِجَ الحُرِيَّة: فـ«الحُرِيَّةُ مُرْضِعَةُ النُّفوسِ الكِبارِ وهي ما يَبْعَثُ الأمَلَ فيها».

شَأنَ لونجين، يَعْزو جيوردانو برونو(*) إلى شَهْوَةِ المالِ ما تَتَقَوَّضُهُ المَعارِفُ والقِيَمُ الكُلِّيَّةُ التي تَتَأَسَّسُ عَلَيها الحَياةُ المُتَمَدِّنَة.

يَقولُ برونو في كِتابِهِ **المُوَسَّع**:

«ما إنْ وَضَعَتْ مَدارِسُ الفَلْسَفَةِ الكَسْبَ وجَنْيَ المالِ نَصْبَ عُيونِها حتّى أخَذَتِ الحِكْمَةُ والعَدالَةُ تَهْجُران هذا العالَم [...] ومِمّا يكونُ مِنْ جَرّاءِ ذلك أنْ يَضيقَ صَدْرُ الدّينِ، وأنْ تَضيقَ أنْفاسُ الفَلْسَفَةِ، وأنْ يَعُمَّ الاضْطِرابُ الدُّوَلَ والمَمالِكَ مُسْتَغْرِقًا ناسَها أجْمَعينَ ولا مُمَيِّزًا بَيْنَ حاكِمٍ وَمَحْكومٍ وحَكيم».

(*) جيوردانو برونو، (١٥٤٨ ـ ١٦٠٠)، فَيْلَسوفٌ وعالِمٌ إيطاليٌّ اتَّهَمَتْهُ الكَنيسَةُ بالهَرْطَقَةِ وأُعْدِمَ حَرْقًا. نوتشيو أوردينه، مُؤَلِّفُ هذا الكِتاب، مِنَ المُتَبَحِّرينَ في سيرةِ برونو وفَلْسَفَتِهِ، وقَدْ ألَّفَ فيهِما العَديدَ مِنَ المُؤَلَّفات.

بَيْـنَ يَـدَيِ هـذا المَشْـهَدِ يَنْبَـري جورج شـتاينر(*) وهُـوَ مَـنْ هُـوَ فـي الدِّفاعِ عَـنِ القِيَـمِ الإنسـانِيَّة، وهـو مَـنْ هـو فـي الدَّعْـوَةِ إلـى إيـلاءِ مَشـاغِلِ الفِكْـرِ الأَوَّلِيَّـةَ علـى مـا عداهـا مِـنْ مَشـاغِلَ ـــ يَنْبَـري لِيُحَذِّرَنـا بِأنَّـهُ «لَيْـسَ مِـنْ شَـأْنِ ثَقافَـةٍ مـا مَهْمـا عـلا كَعَبُهـا، ولا مِـنْ شَـأنِ أخْـلاقٍ، مَهمـا بَلَغَـتْ مِـنَ السَّـماحَة، أنْ تَقينـا مِـنْ هَمَجِيَّـةِ السِّياسـاتِ التّوتاليتاريَّـة».

ويُضيفُ في مَعْرِضِ تَحْذيرِه:

«كَـمْ وكَـمْ مِـنَ المُفَكِّريـنَ ومِـنَ الفَنّانيـنَ لَزِمـوا مَوْقِـفَ اللّامُبـالاةِ أمـامَ الفَظائِـعِ التـي وَقَعَـتْ تَحْـتَ أنظارِهِـم، بَـلْ كَـمْ وكَـمْ مِنْهُـم أزْرَوْا بِأنْفُسِـهِم، لِقِلَّـةِ مُبالاتِهـم، إلـى مَـزْرى الشُّـرَكاءِ المَعْنَوِيّيـنَ مِـنَ الطُّغـاةِ ومِـنْ أنْظِمَتِهِـم ومِـنْ جرائِمِهِـم».

حيـنَ استَحْضِرُ مُلاحَظَـةَ شـتاينر هَـذِهِ يُسْـرِعُ إلـى خاطـري بَعْـضُ مـا وَرَدَ فـي ذاكَ الحِـوارِ

(*) جـورج شـتاينر، (١٩٢٩ ـ)، كاتِـبٌ وناقِـدٌ أدبِـيٌّ وأسـتاذٌ جامِعـيٌّ أميركـي فرنسـي مِـنْ أسـاطينِ الفِكْـرِ فـي العَصْـرِ الحَديـث.

الـذي يَخْتِـم بِـهِ إيتالـو كالڤينـو(*) كتابَـهُ **المُـدُن الخَفِيَّـة.** فـي مَعْـرِضِ حَديـثٍ بَيْـنَ ماركـو پولـو(**) وبَيْـنَ السُّـلطانِ قبـلاي خـان(***) يَقـولُ الرَّحّالَـةُ مُخاطِبًـا السُّـلْطان:

«كلّا، لَيْـسَ الجَحيـمُ فـي ظَهْـرِ الغَيْـبِ. إن صَـحَّ وُجـودُ جَحيـمٍ مـا فَهُـوَ الذي نَعيـشُ وَسْـطَهُ لِمُجَرَّدِ عَيْشِـنا مَعًـا. طريقـانِ أمامَ البَشَـرِ لِتَجَنُّـبِ عذاباتِ هـذا الجَحيـم: أمّـا الأوْلـى، وهـي الأهْـوَنُ علـى المُعْظَـمِ مِـنَ النّـاسِ، فالتَّسْـليمُ بالأمْـرِ الواقِـعِ والقَبـولِ بِـهِ حَـدَّ الانْدِمـاجِ فيـهِ والعَمـاءِ عَنْـه؛ أمّـا الثّانِيَـةُ فَمَحْفوفَـةٌ بِالمَخاطِـرِ حَيْـثُ إنَّهـا تَقْتَضـي مِنَ السّـائِرِ فيهـا مَزيدَ حَذَرٍ وجَهْـدًا مُتَواصِلًا وهَذِهِ الطَّريـقُ تَفْتَرِضُ بِسـالِكِها أنْ يَبْحَـثَ وَسْـطَ الجَحيمِ عَمّـا لَيْـسَ جَحيمًـا. وإذْ تَسَـقَّطَ الواحِـدُ مِـنَ النّاسِ مـا لَيْـسَ بالجَحيـمِ فـي الجَحيـم، وَوَجَـدَهُ، فواجِبُهُ

(*) إيتالو كالڤينو، (١٩٢٣ ـ ١٩٨٥)، روائيٌّ وصِحافِيٌّ إيطاليٌّ.

(**) ماركـو پولـو، (١٢٥٤ ـ ١٣٢٤)، تاجِـرٌ ورحّالـةٌ إيطالـيّ. يَعـودُ الفَضْـلُ إلَيْـهِ وإلـى أبيـهِ وعَمِّـهِ فـي اسْتِكشـافِ مـا يُعْـرَفُ بِـ «طَريـقِ الحَريـر». اتَّصَلَـتْ بَيْنَ ماركـو پولـو والإمبراطـور قبـلاي خان صِلاتٌ وَطيدَةٌ وَثَّـقَ بَعْضًا مِـنْ فُصولِها في كِتـابِ رِحْلاتِه.

(***) الإمبراطـور قبـلاي خان، (١٢١٥ ـ ١٢٩٤)، إمبراطورُ الإمبراطوريَّةِ المَنْغوليَّةِ الخامِسُ، (١٢٦٠ ـ ١٢٩٤)، وإمْبراطورُ الصِّين، (١٢٧٩ ـ ١٢٩٤).

عِنْدَئِـذٍ أنْ يُحـاوِلَ، قَدْرَ المُسْـتَطاعِ، إدامَتَهُ وتَوْسـيعَ مَسـاحَتِه».

ولكـنْ، إنْ صَحَّ أنَّـهُ كَذَلِـكَ، فَكَيْـفَ السَّـبيلُ إلـى تَبَيُّـنِ مـا لَيْـسَ جَحيمًـا فـي وَسْطِ الجَحيـمِ؟ هُنـا أيْضًـا لا بـأسَ مـن الإحالَـةِ إلـى كالڤينـو نَفْسِـه الـذي يَتَسـاءَلُ إلـى أيٍّ حَـدٍّ يُمْكِنُ لِمُطالعَةِ كُـتُبِ التُّـراثِ الأُوروبِـيِّ أنْ تُعينَنـا علـى ذلـكَ إذْ يَعْتَبِـرُ أنَّ الوقـوفَ عَلَيْهـا خَيْـرٌ مِـنْ إهْمالِها لِمـا تَمُدُّنا بِهِ مِـنْ عَـوْنٍ علـى فَهْمِ مَـنْ نَـكونُ، وكَـيْفَ تَأَتّى لنا أن نَـكونَ مَـنْ نَحْـن... غَيْـرَ أنَّهُ يُحَذِّرُ مِـنْ مُطالعَةِ هَـذِهِ الأَدَبِيّـاتِ ابتغـاءَ نَفْـعٍ مُعَيَّـنٍ أو عائِـدٍ بِعَيْنِه.

علـى خُطـى كالڤينـو يَبْـدو لـي أنَّ المُضِـيَّ قُدُمًـا فـي المُرافَعَـةِ عَمّـا لا لزومَ لَـهُ ولا جَـدْوى مِنْه مِنْ مَعـارِفَ وفُنـونٍ وآدابٍ، أَصْلَحُ مِنْ تَـرْكِ ذَلِكَ. فَهَذِهِ المَعـارِفُ والفُنـونُ والآدابُ تَرْفِدُنـا بِمَزيـدِ قُـوَّةٍ للسَّـيْرِ علـى دَرْبِ الكَمـالِ والكرامَـةِ الإنسـانِيَّيْنِ مَهمـا بَلَغَـتْ شَـوْكَةُ هـذا الـدَّرْب.

فَوَسْطَ هـذا العالَـمِ الـذي لا تَنْجـو فيـهِ فِكَـرَةٌ أو قناعَـةٌ مِـنَ الشَّـكِّ فيهـا أو المُسـاءَلَةِ، يَبْـدو لي أنَّ المُعادَلَـةَ الوَحيـدَةَ التـي لا رَيْـبَ فـي صِحَّتِها هي التّالِيَـة: إنْ تَخَلَّيْنـا عَـنْ كُلِّ هَـذِهِ الأشـياءِ التـي لا لُـزومَ لهـا ولا جَـدْوى آنِيَّـةً مِنها، وألْقَيْنـا السَّـمْعَ إلـى نِـداءِ الرِّبْحِ والكَسْـبِ دونَ أيِّ نِـداءٍ آخَرَ، فَلَنْ يَعْنـيَ ذَلِـكَ مِـنْ شَـيْءٍ سِـوى الحُكْمِ علـى الأجْيالِ الطّالِعَـةَ مِـنَ البَشَـرِ أنْ تَـكونَ أجْيالًا بِـدونِ ذاكِرَةٍ لا تَفْقَـهُ لِلحَيـاةِ، وَلِوجودِهـا فـي هـذا العالَـمِ، مِنْ مَعْنى. عِنْدَئِذٍ، لا دَهْشَ أنْ يَجِدَ الإنْسـانُ (العاقِلُ)، (الـ«الهومـو سـاپيانس»)، نَفْسَـهُ مُسْـتَقيلًا حُكْمًـا مِنَ المَسْـؤولِيَّةِ التـي وجِدَ لِكَيْ يَحْمِلَها: مَسْـؤولِيَّةِ أنْ يَسـيرَ بِإنْسـانِيَّتِهِ إلـى مَزيـدٍ مِنَ الإنْسـانِيَّةِ!

الفَضْلُ يَعْرِفُهُ ذَووه

قِوامُ هذا الكتابِ/البَيانِ طائِفَةٌ مِنْ الأَفْكارِ ومِنَ التَّأَمُّلاتِ المُنَجَّمَةِ التي سَبَقَ لي أنْ أذَعْتُ بَعْضًا مِنْها على المَلأِ بِمُناسَبَةِ مُحاضَراتٍ دُعِيتُ إلى إلْقائِها خِلالَ السَّنَواتِ الماضِيَةِ، وأخُصُّ بالذِّكْرِ مِنْها المُحاضَرَةَ التي ألقَيْتُها في نَيْسانَ ٢٠١٢ في جامِعَةِ ريو غراندي دل سول بمدينَةِ بورتو أليغري البرازيلِيَّةِ عِنْدَ مَنْحي شهادَةَ الدُّكتوراه الفَخْرِيَّة.

وأُسارِعُ في هذا المَقامِ إلى إسْداءِ الشُّكْرِ الجَزيلِ لصَديقي إرفنغ لافِن مِنْ «مَعْهَدِ الدِّراساتِ المُتَقَدِّمَةِ» بِجامِعَةِ برينستون لِفَضْلِهِ في تَنْبيهي على بَحثِ أبراهام فلكسنر المُثْبَتِ بِنَصِّهِ على خِتام هذا الكِتاب.

ففي حزيران ٢٠١١، خِلالَ نَدْوَةٍ دعا إلَيْها «المَعْهَدُ الإيطاليُّ للدِّراساتِ الفَلْسَفِيَّة» بنابولي، اسْتَرْعى اهْتِمامَ لافِن عُنوانُ مداخَلَتي: «الإنسانِيّاتُ أوْ لِوَجْهِ ما لا يَلْزَم»، ودَلَّني على بَحْثِ أبراهام فلكسنر الذي أعْتَرِفُ بأنّني كُنْتُ جاهِلًا بِهِ. اليَوْمَ، وَقَدْ غادَرَ لافِن هذا العالَمَ، كأنّي بي، إذْ أُثْبِتُ نَصَّ فلكسنر الذي كانَ لَهُ الفَضْلُ بأنْ هَداني إلَيْه، أُعرِبُ لَهُ مُجَدَّدًا عمّا كانَ مِنْ إعجابي بِهِ وبِعِلْمِه.

يَـرِدُ اسْـمُ أبراهـام فلكسـنر علـى الصَّفْحَـةِ الثّالِثَـةِ مِـنْ هـذا الكِـتابِ بِحَـرفٍ أصْغَـرَ قليـلًا مِـنَ الحَـرْفِ الذي يَـرِدُ بِهِ اسْـمي، ولَيْـسَ في هذا الخِيـارِ الإخراجِـيِّ أدْنـى تَقْليـلٍ مِـنَ شَـأْنِ الرَّجُـلِ ونَصِّـه. كُلُّ مـا فـي الأمْـرِ أنَّ فلكسـنر الـذي رَحَـلَ عَـنْ هـذا العالَـمَ فـي سَـنَةِ ١٩٥٩ لَـمْ يُسْتَشَـرْ فـي إثْبـاتِ نَصِّـهِ إلـى جانِبِ نَصِّي، ومِـنْ ثَمَّ ففي هـذا الخِيارِ الإخْراجِـيِّ عِرفـانٌ بِجَميلِـهِ لا يُرَتِّبُ عَلَيهِ في شَـيْءٍ مَسْـؤولِيَّةَ ما أقْتَرِحُ مِـنْ أفـكارٍ وتَأَمُّلات.

خِتامًا، حَقٌّ عَلَيَّ أن أُكَرِّرَ شُكري الذي لا يَنْقَضي للوك هرسان، مُتَرْجِمِ أبْحاثي إلى اللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّة، ولا يَفوتُني في مَعْرِضِ الشُّكْرِ أنْ أُنَوِّهَ بِكُلِّ ما اسْتَفَدْتُهُ مِنْ جورج شتاينر ومِنْ آلان فيليب سيچوند(*) خلالَ ما كانَ بَيْني وبَيْنَهُما مِنْ حِواراتٍ شَيِّقَةٍ لا يَعْفوها النِّسْيان.

(*) آلان فيليـب سـيچوند، (١٩٤٢ ـ ٢٠١١)، فَقيـهٌ لُغَـوِيٌّ مِـنْ أحْبـارِ اليونانِيّـاتِ واللّاتينِيّـاتِ عِـلاوَةً علـى تَضَلُّعِـهِ مِـنَ الفَلْسَـفَةِ وتاريـخِ العُلـوم.

«يا حَيَاها مِنْ مُفاجَأَةٍ أنْ تَنْجليَ لي
جَدْوى ما لا لُزومَ لَهُ ولا جَدْوى مِنْه!».

فيكـتور هوغو

I

في الآدابِ
وَجَدْوَى لاجَدْواها

في أنَّ مَنْ لَيْسَ مَعَهُ لا مَحَلَّ لَهُ مِنَ الإعْراب

يَـرْوي ڤينشـينزو پـادولا، الرّاهِبُ الثّائِـرُ الذي عاشَ فـي كالابـري الإيطاليَّـةِ بيـن ١٨١٩ و١٨٩٣ ـ يَرْوي فـي سـيرَةٍ ذاتِيَّـةٍ لَـهُ أوَّلَ دَرْسٍ تَعَلَّمَـهُ فـي الحَيـاةِ فَيَقـولُ إنَّ والِـدَهُ سَـأَلَهُ يَوْمًـا أنْ يُفَسِّـرَ لَـهُ لِمـاذا يَتَقَـدَّمُ حَـرْفُ الـ«a» على سـائِرِ حُـروفِ الأَبْجَدِيَّة؟ وَإذْ لَـمْ يَحِـرِ الإبْـنُ جَوابًـا أعادَ السُّـؤالَ إلـى والِدِهِ راجِيًـا إيّـاهُ أنْ يُفَسِّـرَ لَـهُ السَّـبَبَ في ذَلِـك... ومِمّا قالَـهُ لَـهُ والِـدُهُ وَرَواهُ هـو في السَّـيرَةِ تِلْك:

«فـي عالَمِنـا البائِـسِ، لا مَحَـلَّ إلّا لِمَـنْ كانَ فـي مَرْتَبَـةِ الـ"a" مِـنْ أحْـرُفِ الهِجـاء؛ أمّـا المُعْدَمونَ فلا مَحَـلَّ لَهُم. لِهـذا يَتَقَدَّمُ حَـرْفُ الـ"a" سـائِرَ الحُروف. المُعْدَمـونَ فـي هـذا العالَـمِ أشْـبَهُ ما يَكونـونَ

بالحُروفِ السّاكِنَة، أمّا المُثْرونَ فَهُمُ حُروفُ العِلَّةِ، وكما تَعْرِفُ، يا بُنَيَّ، فَلَيْسَ لِصَوْتٍ أنْ يَتَأتّى مِنْ حَرْفٍ ساكِنٍ لا يُحَرِّكُهُ حَرْفُ عِلَّة».

رَغْمَ أنَّ هذا الوَصْفَ لِلْمُجْتَمَعِ على ما كانَ عَلَيْهِ لِنَحْوِ قَرْنَيْنِ خَلَوا قَدْ تَقادَمَ نَوْعًا ما حَيْثُ إنَّ الانْقِسامَ الأُفُقِيَّ الصّارِمَ بَيْنَ طَبَقَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ لا يَصْلُحُ بَعْدُ لِوَصْفِ مُجْتَمعاتِنا، لا بُدَّ لنا مِنَ التَّسْليمِ بِأنَّ الامْتِلاكَ والحِيازَةَ ما يَزالانِ مُقَدَّمَيْنِ على مَحْضِ الوجودِ والكَيْنونَةِ وَلَوْ أنَّ تَقَدُّمَهُما باتَ يَصْطَنِعُ أشْكالًا وَهَيْئاتٍ مُلْتَوِيَةً أعْصى على التَّبَيُّنِ وعلى التَّعْيين.

ومِنَ الشَّواهِدِ على ذَلِكَ ما يَطْغاهُ هَمُّ الرِّبْحِ واسْتِدْرارِ المَكاسِبِ على سائِرِ سُلوكاتِنا بِما فيها ما يَتَعَلَّقُ بالمَعْرِفَةِ والثَّقافَة: ما يَظْهَرُ عَلَيْهِ الواحِدُ مِنَ النّاسِ أثْقَلُ في ميزانِ «الرَّأْيِ العامِّ» مِمّا هو عَلَيْهِ حَقًّا... بَلْ إنَّ قيمَةَ الواحِدِ مِنَ النّاسِ باتَتْ تُعْزى إلى السَّيّارَةِ الفارِهَةِ التي يَقودُها، وإلى السّاعَةِ المُحَلّاةِ بالأحْجارِ

الكَريمَـةِ التـي يُطَـوِّقُ بِهـا مِعْصَمَـهُ، وإلـى المَنْصِـبِ الرَّفيـعِ الـذي يَتبَـوَّؤهُ أكَثْـرَ مِمّـا تُعْـزى إلـى عِلْمِـهِ ومَعارِفِـهِ وَثَقافَتِـه.

في أنَّ المَعارِفَ التي لا رِبْحَ مِنْ ورائِها لا جَدْوى مِنْها

بِنـاءً علـى مـا تَقَـدَّمَ، لَيْسَ مِـنْ قَبيـلِ الصُّدْفَةِ أنْ أُزْرِيَ بالعُلـومِ الإنْسـانِيَّةِ فـي المَناهِجِ الدِّراسِـيَّةِ، وفـي الميزانيّـاتِ الحُكومِيَّـةِ، وفـي مُؤَسَّسـاتِ البَحْـثِ العِلْمـي. فَفيـمَ إنْفـاقُ الأمْـوالِ، كمـا يَقـولُ قائِلُهُـم، علـى مـا لا يَـدُرُّ رِبْحًـا؟ وفِيـمَ وَقْـفُ الأوْقـافِ علـى عُلـومٍ وَمَعـارِفَ لا مَنْفَعَـةَ اقْتِصادِيَّـةً مُباشَـرَةً وَمَلْموسَـةً مِنهـا؟

علـى أنَّـهُ، وعلـى أنّنـا نَعيـشُ فـي عالَـمٍ يَتَقَـدَّمُ فيـهِ مُوجِـبُ قِيـاسِ الأشْـياءِ بِكَمِّيّاتِهـا، فـإنَّ لـلأدَبِ، كما لِعَدَدٍ مِـنَ العُلومِ الإنْسـانِيَّةِ والعُلومِ البَحْـتِ المُنْقَطِعَـةِ عَـنْ الجَـدْوى المَباشَـرَةِ مِنْها

ـ على ما سَوْفَ نُبَيِّنُ في فُصولٍ لاحِقَةٍ ـ للأدَبِ وَظيفَةً لا تَخْلو متى ما تَمَعَّنّا في بَعْضِ وُجوهِها أنْ تَكونَ جَوْهَرِيَّةً حَيْثَ إنَّ الأدَبَ، بِبَساطَةٍ، لا يُيَمِّمُ وَجْهَ أيِّ نَفْعٍ! إنَّما الأدَبُ فِعْلُ مُقاوَمَةٍ للنَّزَعاتِ الرِّبْحِيِّةِ التي تَسودُ عالَمَنا، وفِعْلُ تَصَدٍّ لما يَفْتُكُهُ المَنْطِقُ النَّفْعِيُّ بِنا وبِعلاقاتِنا الاجْتِماعِيَّةِ وَعَواطِفِنا الأكْثَرِ حَميميَّةً. فالأدَبُ، لِمُجَرَّدِ وُجودِهِ، شاهِدٌ على ما يُمْكِنُ لـ«المَجّانِيَّة» ولـ«التَّرَفُّع» أنْ يَكونَ لَهُما مِنْ أثَرٍ في حَياتِنا وعَلَيْها ـ لا غافِلًا أنَّ المَجّانِيَّةَ والتَّرَفُّعَ بِوَصْفِهِما قيمَتَيْنِ قَدْ خَرَجَتا، أوْ تَكادانِ، مِنْ قاموسِ القِيَمِ الذي نُحيلُ إلَيْه...

فَسَّرَ الماءَ...
أو سَمَكَتا ديڤيد فوستر والاس

على بِدايَةِ كُلِّ عامٍ جامِعِيٍّ يَحلو لي أنْ أتْلُوَ على طُلّابي فِقْرَةً مِنَ الخِطابِ الذي ألْقاهُ ديڤيد فوستر والاس في ٢١ أيّار (مايو) ٢٠٠٥

علـى خِرِّيجي مَعْهَـدِ كينيون بالوِلايـاتِ المُتَّحِدَةِ الأميركـيَّة.

خاطَـبَ الأديبُ الأميركـيُّ الذي لا يَسَـعُنا إلّا الرِّثاءَ لِرَحيلِـهِ المُبْكِـرِ في سَـنَةِ ٢٠٠٨ عَنْ سِـتَّةٍ وأرْبعينَ عامًـا ـ خاطَـبَ يَوْمَـذاكَ طُلّابَهُ سـارِدًا عَلَيْهم قِصَّةً مِـنْ وَحْـيِ الخَيـالِ أرادَ مِـنْ ورائِهـا أنْ يُبَيِّـنَ لَهُـمْ دَوْرَ الأدَبِ وَوَظيفَتَـهُ:

«كانَ يـا مـكان سَمَكـتانِ فَتِيَّتـانِ تَسْـبَحانِ فـي أحَدِ البِحـارِ... وفـي خِـلالِ سِـباحَتِهِما مَـرَّتْ بِهِما سَـمَكَةٌ مُسِـنَّةٌ ألْقَـتْ عَلَيهِمـا السَّـلامَ ثُـمَّ سَـألَتْهُما: "كَـيْفَ تَجِـدانِ المـاءَ يـا صَغيرَتَـيَّ؟". واصَلَـتِ السَّمَكـتانِ الفَتِيَّتـانِ السِّـباحَةَ بُرْهَـةً ثُـمَّ اسْـتَوْقَفَتْ إحْداهُمـا الأُخْـرى وسَـألَتْها: "أنْبِئينـي يا هـذِه ... أتَعْرِفينَ أنْتِ ما هُـوَ المـاءُ؟"».

ويَسْتَطْرِدُ والاس:

«أمّـا العِبْـرَةُ، بِـلا لَـفٍّ ولا دَوَران، مِـنْ هذهِ السّـالِفَةِ الخَياليَّـةِ فَهِـي أنَّ البَديهِيّـاتِ الأحَضَـرَ فـي حَياتِنـا، والأحَكْـمَ عَلَيهـا، هـي الأعْصـى، غالِبًا، علـى التَّعيينِ والتَّسْمِيَة».

علـى غِـرارِ السَّمَكَـتَيْنِ الصَّغيرَتَيْـنِ فَنَحْـنُ، أيْضًا، لا نَفْقَـهُ مـا هـو «المـاءُ» الـذي نَسْبَحُ فيـهِ طيلَةَ حياتِنـا، ولا نَفْقَـهُ أنَّ الآدابَ والمَعـارِفَ والثَّقافَـةَ هـي السّـائِلُ الحَيَـوِيُّ الـذي تَنْمـو فيـه مَفاهيـمُ الدّيمقراطيَّـةِ والحُرِّيَّـةِ والعَدالَـةِ والعَلْمانِيَّـةِ والتَّسـامُحِ والتَّضامُـنِ المُواطِنـيِّ وحُرِّيَّـةِ التَّعْبيـرِ والنَّقْـدِ ومـا إلَيْهـا، بَـلْ يُمْكِـنُ القَـوْلُ إنَّ هـذهِ المَفاهيـمَ ومـا يُصاحِبُهـا مِنْ قِـيَمٍ لا تَنْمـو عَفِيَّةً إلّا فـي هـذا السّـائِلِ.

الكولونيل بونديا وأسْماكُهُ الذَّهَب

بـلا تَـرَدُّدٍ، يُمْكِن القَـوْل إنَّ **مائَة عامٍ مِـنَ العُزْلَة**، روايَـةَ غابريـال غارثيـا ماركيـز[*] الأشْـهَرَ والأشْـيَعَ تَرْجَمَـةً، تَسْـكُنُ خَيـالاتِ المَلاييـنِ المُمَلْيَنَـةِ مِنْ القُـرّاءِ مِـنْ مُخْتَلَـفِ الأجْيـال. وَلَعَـلَّ عَمـودَ هَذهِ

(*) غابريـال غارثيـا ماركيـز، (١٩٢٧ ـ ٢٠١٤)، رِوائـيٌّ وصِحافـيٌّ وناشِـرٌ وناشِـطٌ سِياسـيٌّ كولومبيّ. حـازَ فـي عـامِ ١٩٨٢ جائِـزَةَ نوبـل لـلآداب.

الرِّوايَـةِ هـو فـي شَـخَصِيَّةِ بَطَلِها أورليانـو بونديا التـي تُسْتَشَـفُّ مِـنْ وَرائِها جَـدْوى الأدَبِ فـي أرْفَـعِ صُوَرِهـا رَغْـمَ ظاهِرِ لاجَـدْواه.

مُعْتَكِفًا فـي مَسْبَكٍ سِـرِّيٍّ يَسْـتَصْنِعُ الكولونيـلُ بونديـا أسْـماكًا ذَهَبًا صَغيرةً لا يَلْبَـثُ أنْ يُقايِضَها بِقِطَعِ نَقْدٍ ذَهَبِيَّةٍ، لا يَلْبَثُ أنْ يَصْهَرَها ويَسْـتَصْنِعَ مِنْها أسْـماكًا جَديـدةً وهكذا...

لا تَفـوتُ أورسُـلا، والِـدَةُ الكولونيـل، الطَّبيعَـةُ المُفَرَغَـةُ للدّائِرَةِ التي يَـدورُ فيها ابْنُها الكولونيل:

«لَـمْ تَفْهَـمْ أورسُـلا رَغْـمَ حِسِّـها العَمَلِـيِّ الثّاقِـبِ مـا يَنْصَـرِفُ إلَيْـهِ الكولونيـل مـن مُقايَضَـةِ أسـماكِهِ الصَّغيـرَةِ بِقِطَـعٍ نَقْدِيَّـةٍ ذَهَبِيَّـةٍ لا يَلْبَـثُ أن يَصْهَرَهـا ويَسْـتَصْنِعَ مِنهـا أسْـماكًا صَغيـرَةً وهكـذا دَوالَيـك... فَبِمِقْـدارِ مـا كانَـتْ تِجـارَةُ الكولونيـل تَزْدَهِـرُ كانَ يُضْطَـرُ إلـى إنْفـاقِ المَزيـدِ مِـنَ الوَقْـتِ ومِـنَ الجَهْدِ فـي اسْـتِصْناعِ المَزيـدِ مِـنَ الأسْـماكِ مِمّا صَيَّرَهُ أسـيرَ دائِـرَةٍ مُغْلَقَـةٍ لا أوَّلَ لهـا ولا آخِـر. كانَ ذَلِـكَ، ولكِـنَّ الحَقيقَـةَ الحَقيقَـةَ هـيَ أنَّ هَـمَّ الكولونيـل كانَ الاسْـتِزادَةَ مِـنَ العَمَـلِ لا مِـنَ البَيْـعِ والتجـارَةِ...».

وهـذهِ الحَقيقَـةُ هـي مـا يَعْتَـرِف بِـهِ الكولونيـلُ نَفْسُـه حَيْـثُ يَقـولُ بأنَّ اسْـتِصْناعَ الأسـماكِ باتَ مِنْـهُ، مُنْـذُ زمَـنٍ بَعيدٍ، مَصْـدَرَ السَّـعادَةِ الوحيدَ:

«لَقَـدِ اقْتَضـاهُ أنْ يُشْـعِلَ نيـرانَ ثَـلاثٍ وثلاثيـنَ حَرْبًـا، ولَقَـدِ اقْتَضـاهُ أنْ يُخِـلَّ بِـكُلِّ المَواثيـقِ التـي انْعَقَـدَتْ بَيْنَـهُ وبَيْـنَ المَـوْتِ، وأن يَتَمَـرَّغَ فـي المَجْـدِ كما يَتَمَـرَّغُ الخِنْزيـرُ فـي القُمامِةِ ـ اقْتَضـاهُ كُلُّ ذَلِـكَ لِيَكْـتَشِفَ في نِهايَـةِ المَطافِ، بَعْـدَ نَحْـوِ أربعيـنَ عامًـا، فَضائِـلَ البَسـاطَةِ وَمُتَعَهـا».

نَعَـمْ، لَعَـلَّ هـذِهِ «البَسـاطَةَ» التي يُحَرِّكُنـا إلَيْها طَلَـبُ سَـعادَةٍ مُنْقَطِعَـةٍ مِنْ أيَّـةِ أَسْـبابٍ رِبْحِيَّةٍ هـي فـي أصْـلِ الإبْـداعِ الأدَبِـيّ. فَهَـلِ الإبْـداعُ الأدَبِـيُّ إلّا جَهْـدٌ يَبْذُلُـهُ الأديبُ لا لِوَجْـهٍ مُحَدَّدٍ، ولا لاسْـتِجْلابِ مَصْلَحَـةٍ أوْ مَنْفَعَـةٍ مُحَـدَّدَةٍ، أوْ قابِلَـةٍ للتَّسْـليعِ ولِلْمُقايَضَـةِ الماليَّـةِ؟ هو كذلكَ، وبِمُجَـرَّدِ أنَّـهُ كَذَلِـكَ فهُـوَ المُخالَفَـةُ بِعَيْنِها على اسْـتِعلاءِ مَنْطِـقِ السّـوقِ ومُوجِـبِ الرِّبْحِيَّـة وحُكْمِهـا.

دانتِه وبِترارك:
فـي أنَّ الأدَبَ لا يَخْضَعُ لِمَبْدأِ الرِّبْحِيَّة

لا جَديـدَ فـي مـا تَقَـدَّمَ حَيْـثُ إنَّ فِكْـرَةَ خُـروجِ الأدَبِ عَـنْ مَبَـدْأِ الرِّبْحِيَّـةِ حاضِـرَةٌ لـدى آبـاءِ الأدَبِ الغَرْبِـيِّ. حَسْـبِي مَثَـلًا أنْ أُذَكِّـرَ بِدانْتِـه(*) وبِمـا كانَ مِـنْ تَسْـفيهِهِ أبْنـاءَ زمانِـهِ مِـنْ أدْعيـاءِ الأدَبِ الذيـن لا يَنْكَبّـونَ علـى تَحَصيـلِ الآدابِ لِنَفْسِـها بَـلْ لِمـا يَتَكَسَّـبونَهُ مِـنْ وَرائِهـا:

> «هَيْهـاتَ أنْ تَصِـحَّ علـى هَـؤلاءِ صِفَـةُ الأُدَبـاء. مُنْتَهـى قَصْدِهِـم مِـنَ الأدَبِ اسْـتِدرارُ المَنافِـعِ وطَلَـبُ الجَـاه. هَـلْ يُسَـمّى كُلُّ مَـنِ اقْتَنـى قيثـارَةً عازِفًـا؟».

بِكَلامٍ أوْضَح: لا شَأْنَ للآدابِ بالمَقاصِدِ النَّفْعِيَّة. وهذا ما يَذْهَبُ إلَيْهِ، بِدَوْرِهِ، فرانشيسكو بِترارك(*) الذي وَضَعَ جُمْلَةً مِنَ التَّأَمُّلاتِ الشِّعْرِيَّةِ

(*) دانتـه أليغييـري، (١٢٦٥ـ ١٣٢١)، شـاعِرُ إيطاليـا الأشْـهَر. صاحِـبُ **الكوميديا الإلهيّـة** فـي عِدادِ كَـثيرٍ سـواها. مِنْ آبـاءِ الإيطاليّـةِ الحديثة.

(**) فرانشيسـكو بِتـرارك، (١٣٠٤ـ ١٣٧٤)، شـاعِرٌ وعالِـمٌ يُعَـدُّ الرُّكْـنَ الرَّكيـنَ مِـنْ عَصْـرِ النَّهْضَـةِ الإيطالـيّ.

والنَّثْرِيَّةِ في ذَمٍّ تِلْكَ الحُثالَةِ التي لا هَمَّ لها إلّا كَنْزُ الكُنوزِ وتَكديسُ الثَّرَوات.

بالضِّدِّ مِنْ هذا الذَّمِّ، لا يَتَرَدَّدُ يترارك عَنْ مُناشَدَةِ صَديقٍ لَهُ بأنْ يَتَمَسَّكَ بـ«أهْدابِ النُّبْلِ»، وأنْ يَنْصَرِفَ إلى الآدابِ لا مُباليًا بِما قَدْ يَعودُ عَلَيْهِ بِهِ هذا الانْصِرافُ مِنْ ثَناءٍ وإطْراءٍ أوْ بِما قَدْ لا يَعود:

«لا رِفاقَ تأنَسُ إلَيْهِم على طَريقِ ذاتِ الشَّوْكَةِ هذِهِ ولكِنْ، نَشَدْتُكَ، يا ذا العَقْلِ الرّاجِحِ، أنْ تَسْتَمْسِكَ بأعْمالِ النَّبالَةِ وأهْدابِها!».

أرِسطو: لا لُزومَ عَمَلِيًّا للمَعرِفَة

وَقَبْلَ دانْتِه ويترارك كَتَبَ أرسطو في **ما وراء الطَّبيعَة** أنَّ «المَعْرِفَةَ»، في صُوَرِها العُلْيا، «لا غَرَضَ عَمَلِيًّا لها». فـ:

«مِنْ أوَّلِ الأمْرِ إلى يَوْمِنا هذا، إنَّما يَأخُذُ بِيَدِ البَشَرِ في طَريقِ الفَلْسَفَةِ الانْدِهاشُ مِمّا هي الأشْياءُ عَلَيْهِ والعَجَبُ؛ [و]إذْ جَدَّ النّاسُ في طَلَبِ المَعْرِفَةِ،

وَسَعوا إلى خَطْبِ وُدِّها، [أي، إذْ تَفَلْسَفوا]، فإنَّما فَعَلوا ذَلِكَ لِسَبْرِ كُنْهِ الأشْياءِ لا سَعْيًا إلى اسْتِجْناءِ الأرْباحِ. [...و] مِنْ ثَمَّ، فَمِمَّا لا يَحْتاجُ إلى مَزيدِ بَيانٍ أنَّ الفَلْسَفَةَ لا تَبْتَغي بُغيَةً مُنفَكَّةً عَنْها. وعلى غِرارِ ما تَصِحُّ على الرَّجُلِ الذي لا يَعْمَلُ إلّا قِيامًا بِأَوَدِهِ، لا بِأَوَدِ غَيْرِهِ، صِفَةُ الحُرِّ، كذَلِكَ فإنَّ هذا العِلْمَ الشَّريفَ، الفَلْسَفَةَ، هو، دونَ سائِرِ العُلومِ، الوَحيدُ الذي يَصْدِقُ فيهِ وَصْفُ الحُرِّيَّةِ باعْتِبارِ أنَّ مَدارَهُ على نَفْسِهِ ولا مَوْضوعَ لَهُ إلّا ذاتُه».

بِناءً عَلَيْهِ، ولأنَّ الفَلْسَفَةَ لا تُسْتَرَقُّ لأيَّةِ غايَةٍ عَمَلِيَّةٍ نَفْعِيَّةٍ فَهِيَ الحُرَّةُ بَيْنَ العُلومِ وهي سَبيلُ البَشَرِ إلى التَّأَلُّهِ؛ («وَبِهَذا اللِّحاظِ فإنَّ التَّمَكُّنَ مِنْ هذا العِلْمِ، [مِنَ الفَلْسَفَةِ]، يَرْفَعُ المُتَمَكِّنَ مِنْهُ دَرَجاتٍ فَوْقَ طَبيعَتِهِ البَشَرِيَّة»).

بَيْنَ المُنَظِّرِ والمَلِكِ/الفَيْلَسوف: في تَناقُضاتِ أفلاطون

بِتَعْريفِ الفَلْسَفَةِ على هذا النَّحْو، يَرْفَعُ أرسطو إشْكالًا أفلاطونِيًّا لَمْ يَزَلْ يُحيقُ بِصورَةِ الفَيْلَسوفِ

فـي تَأَرْجُحِـهِ بَيْـنَ الانْصِـرافِ إلـى التَّأَمُّـلِ الخالِـصِ وبَيْـنَ المُشـارَكَةِ فـي الشَّـأْنِ العامّ.

في الكِتابِ السّـادِسِ مِـنَ الجُمْهوريَّة يَقولُ أفلاطون علـى لِسـانِ سُـقراط: «إنَّ هَـؤلاءِ، عامَّةَ النّـاسِ، قَلَّما يُلْقـونَ السَّـمْعَ، بِمـا فيـهِ الكِفايَـةُ، لِمـا يَصْـدرُ مِـنَ الأقَـوالِ عَـنِ المَشـاعِرِ النَّبيلَـةِ، أعْنـي للأقْـوالِ التـي يُـرادُ مِـنْ وَرائِهـا نُشْـدانُ الحَقيقَـةِ وبُلـوغُ مَقـامِ المَعْرِفَـة». أمّـا فـي الكِـتابِ السّـابِعِ، وفـي سـياقِ الحَديـثِ عَـنْ تَعْليـمِ النَّـشْءِ، فيُؤَكِّـدُ سُـقراط على ضَـرورَةِ ألّا يُقْصَـرَ التَّعْليـمُ علـى بَرْنامَـجٍ ذي بِنْيَـةٍ إلْزامِيَّـةٍ فـ:

«لَيْـسَ لِلْحُـرِّ أنْ يُعامَـلَ مُعامَلَةَ العَبْـدِ حتّى في مَجالِ التَّرْبِيَةِ والتَّعْليم».

إيمانويل كانط: إنَّما أحْكامُ الذَّوْقِ مِنْ بابِ ما لا لُزومَ لَهُ ولا جَدوى مِنه

مَـعَ إيمانويـل كانـط دَخَلـتِ الأحْـكامُ الذَّوْقِيَّـةُ الجَمالِيَّـةُ تَحْـتَ حَـدٍّ ما لا لُـزومَ لَهُ ولا جَـدْوى مِنْه.

ففـي الصَّفَحـاتِ الأوْلـى مِـنْ **نَقْـدِ مَلَـكَةِ التَّقْديـر** يُثْبِـتُ الفَيْلَسـوفُ الألمانـيُّ أنَّ اسْـتِحْضارَ أمْـرٍ مـا اسْـتِحْضارًا عَقْلِيًّـا كَفيـلٌ بـأنْ يَتَوَلَّـدَ عَنْـهُ لـدى المُسْـتَحْضِرِ شُـعورٌ بالرِّضا بِصَرْفِ النَّظَـرِ عَنْ حَقيقَةِ وُجـودِ هـذا الأمْـرِ أوْ عَدَمِهـا:

«ومِمّـا لا مَـراءَ فيـهِ أنَّ اسـتحضارَ أمْـرٍ مـا فـي العَقْلِ، بِصَـرْفِ النَّظَـرِ عَـنْ حَقيقـةِ [وجـودِ] هـذا الأمْـرِ أو عَدَمِهـا، هـو المُعَـوَّلُ عَلَيْـهِ فـي الحُكْـمِ عَلَيْـهِ ـ على هـذا الأمْـرِ ــ بالجَمـالِ، وهـو المُعَـوَّلُ عَلَيْـهِ، تاليًـا فـي إثْبـاتِ تَمَتُّـعِ الواحِـدِ مِـنَ النّـاسِ بِمَلكَـةِ التَّقْدير هـذِهِ [...]؛ وَمِمّـا يَجْلـو هَـذِهِ المُقَدِّمَـةَ ذاتَ الأهَمِّيَّةِ القُصْـوى مـا يَفْتَرِقُـهُ الرِّضـا المُتَرَفِّـعُ الـذي يَسْتَشْـعِرُهُ الواحِـدُ مِنّـا مِـنْ خِـلالِ تَقْديـرِهِ الذَّوْقِـيِّ وأحْكامِـهِ الذَّوْقِيَّـةِ عَـنِ الرِّضا الذي يُشْـتَرَطُ للشُّـعورِ بِـهِ حُضورُ المَرْضِـيِّ عَنْـهُ حُضـورًا جِسْـمِيًّا مَلْموسًـا».

فالمَنْفَعَـةُ، فـي عُرْفِ كانـط، مُرْتَبِطَةٌ أوْثَـقَ الارْتِباطِ بالمُتْعَـةِ وَبِوجودِ الشَّـيءِ الذي هو مَوْضـوعُ المُتْعَةِ هَـذِه. يَقول:

«صِنْـوُ المَنْفَعَـةِ الحاجَـةُ أو مـا يُرَتِّـبُ حاجَـةً مـا باعْتِبـارِ أنَّ الرِّضـا إنَّمـا هـو فـي تَلْبِيَـةِ هـذه الحاجَـةِ

المَغْـروزَةِ فينـا أو المُسْـتَحْدَثَةِ لَدَيْنا. مِنْ ثَمَّ لا تَسْـري علـى تَقَديرِنـا لِمـا يُلَبِّـي هـذِهِ الحاجَـةَ صِفَـةُ التَّقْديرِ الحُـرّ. تَلْبيَـةُ داعي الجَمـالِ هي التَّلْبِيَـةُ الوَحيدَةُ التي تَصْدِقُ عَلَيْها صِفَتـا التَرَفُّعِ والحُرِّيَّـةِ باعْتِبـارِ أنَّها مُسْـتَغْنِيَةٌ عـن اسْـتِجْلابِ أيَّـةِ مَنْفَعَةٍ مادِيَّة حِسِّـيَّةٍ أو عَقْلِيَّة».

بانِيًا علـى هـذهِ المُقَدِّمـاتِ يَتَوَصَّـلُ كانـط إلـى تَعْريـفِ الـذَّوْقِ فَيَقـول:

«الـذَّوْقُ هـو مَلَكَـةُ تَقْديـرِ شَـيْءٍ مِـنَ الأشْـياءِ، أو هو حُضـورُ شَـيْءٍ مِـنَ الأشْـياءِ، بِنـاءً علـى مـا يُوْرِثُنـا هذا الشَّـيْءُ، أو حُضـورُهُ، مِـنْ شُـعورٍ بالرِّضا أو مِنَ شُـعورٍ بالكَـدَر، بِصَـرْفِ النَّظَـرِ عَـنْ أيَّـةِ مَنْفَعَـة. الجَميـلُ، اسْـتِطرادًا، هـو مـا يُشْـعِرُنا، [تَحْتَ هَذِهِ الظَـروفِ مِنَ التَّقْديـرِ]، بالرِّضـا».

أوڤيد:

لا أَلْزَمَ مِنَ الفُنونِ التي لا لُزومَ لها

يَكادُ أوڤيد(*) أنْ يَـكونَ مِنْ أسْـهَبِ الأدَباءِ تَعَرُّضًا

(*) أوڤيد: شاعِرٌ رومانيٌّ كانَتْ وِلادَتُهُ سَنَةَ ٤٣ قَبْلَ الميلادِ وَوَفاتُهُ سَنَةَ ١٧ بَعْدَه.

لِلُّـزومِ وعَدَمِـه. وفي الرَّسـائِلِ التي بَعَـثَ بِها إلى صديقِهِ أوريليوس كوتا ماكسـيموس ميسّـالينوس يُقِـرُّ أوفيـد، بـلا لَـفٍّ ولا دَوَران، بأنَّـهُ «متـى مـا نَظَـرَ النّاظِـرُ إلـى مـا انْصَرَفْـتُ إلَيْـهِ فـي حَياتـي فَلَـنْ يَجِـدَ فيهـا مِـنْ شَـيْءٍ مُفيـدٍ إلّا مـا ثابَرْتُـهُ خِلالِهـا علـى مـا لا جَـدْوى مِنْـه ولا فائِدَة».

صَحيـحٌ أنَّ أوفيـدَ يـرى فـي الشِّـعْرِ، أحْيانًـا، دَواءً شـافِيًا لآلامِ المَنْفـى، («فـي الشِّـعْر تَسْـلِيَةٌ عَـنِ البَلْـوى التـي أنـا فيهـا»)، إلّا أنَّهُ يُـدْرِكُ جَيِّـدًا أنَّهَ لا نَفْـعَ يُرَجّـى مِنْـه: «حتّـى الآنَ لَـمْ تَعُـدْ عَلَـيَّ مَؤَلَّفاتـي بـأيِّ نَفْـعٍ، ومِـنْ بَـرَكاتِ السَّـماءِ أنَّ أيًّـا مِنْهـا لَـمْ يُلْحِقْ بـي أيَّ ضرّ» ـ (ويقـول أوفيدُ ما يَقـولُ عِلْمًا أنَّ أشْـعارَهُ هـي التي تَسَـبَّبَتْ لَهُ بِأنِ اضْطُـرَّ إلـى المَنْفـى علـى مـا يَـرِدُ أعْلاه).

مَعَ هـذا جَميعًـا، فـإذْ يُجيـبُ أوفيـدُ عَـنْ سُـؤالِ صَديقِـهِ المُنْدَهِـشِ مِنْ إصْرارِهِ ـــ إصْرارِ أوفيدَ ـ على الكِـتابَةِ يقول:

«نَعَـم، إنَّنـي مُصِـرٌّ علـى المُضِـيِّ فـي هـذا السَّـبيلِ

شَأني فـي ذَلِـكَ شَـأْنَ المُصـارِعِ الـذي لا تَـرُدُّهُ الجِراحـات التـي يُمْنـى بِهـا مِنَ العَـوْدَةِ إلـى الحَلَبَةِ، أو شَـأنَ البَحّـارِ الـذي لا يَـرُدُّهُ مـا أوْشَـكَ عَلَيْـهِ يَوْمًـا مـن غَـرَقٍ مُحَتَّـمٍ أنْ يعـود إلـى ركـوبِ البَحـر!».

دو مونتنيه:

لا شَيْءَ لا لُزومَ لَهُ حتّى ما لا لُزومَ لَهُ!

لَيْـسَ لِكِـتابٍ فـي نَفْـسِ قارِئِـه مـا لِكِـتابِ **المُحـاولات.** إبتـداءً، يُصـارِحُ ميشـال دو مونتنيـه قُـرّاءَ كتابِـهِ بأنَّـهُ لَـمْ يُحَـرِّرْ هَـذهِ الصَّفَحـاتِ إلّا إجابَـةً لِـدَواعٍ شَـخْصِيَّةٍ خاصَّـة. وحتّـى إنْ تابَـعَ الواحِـدُ مِنّـا الباحِثَـةَ فاوْسـتا غاراڤيني في نَبْشِـها هـذهِ الدَّواعِـيَ الذّاتِيَّةَ الخاصَّةَ، وسَـلَّمَ مَعَها بأنَّها شَـيْءٌ مِـنْ قَبيـلِ دِفـاعِ كائِـنٍ وَجَـدَ نَفْسَـهُ فَجْـأَةً مُبَعْثَـرًا مُبَـدَّدًا عَـنْ نَفْسِـهِ، فـإنَّ هـذهِ المَعْرِفَـةَ بالدَّواعـي تِلْـكَ لا تُـقَدِّمُ فـي شَـيْءٍ ولا تُؤَخِّـر.

يَقـولُ دو مونتنيـه مُخاطِبًـا القارِئَ الذي قَـدْ يَقَعُ هـذا الكِتابُ بَيْـنَ يَدَيْه:

«بنـاءً عَلَيْهِ، يا قارِئي، فأنا نَفْسـي مادَّةُ هذا الكِـتابِ ومَوْضوعُـهُ؛ فاسْـتَبِنْ إذًا بأنَّكَ إذْ تُطالِعُـهُ فإنَّما تُنْفِقُ وَقْتَـك في أمْرٍ لا طائِـلَ مِنْه».

المُحاولات، إذًا، كِـتابٌ لا جَدْوى مِنْه؟

بَـلْ يَذهَـبُ دو مونتنيـه إلى أبْعَدَ مِمّـا تَقَدَّمَ حَيْثُ إنَّهُ يُشْرِكُ القارِئَ بأنَّهُ جَعَلَ المَكْـتَبَ الذي كَـتَبَ فيـه هـذا الكِتـابَ مَحَـلَّ غُرْفَـةِ المَلابِـسِ التي هي أقَـلُّ الأمْكِنَـةِ مِـنَ المَنـزِلِ لُزومًا وجَـدْوى. في هذا المَكْـتَبِ المُرْتَجَلِ يَقْضي الكاتِبُ، مُنْعزِلًا، سَـحابَةَ أوقاتِـهِ دارِسًـا مُطالِعًـا مُسْـتَغْرِقًا فـي تَحْصيـلٍ لا يُرَجـى مِنْـهُ أيُّ نَفْـعٍ أو جَدْوى:

«فـي شَـبابي انْكَبَبْـتُ علـى التَّحْصيـلِ طَلَبًـا للجـاهِ والسُّـؤْدَدِ، وفـي كُهولَتـي انْكَبَبْـتُ علـى التَّحْصيـلِ طَلَبًـا للحِكْمَـةِ، أمّـا الآنَ فأفْعَلُ لا لِوَجْهِ شَـيْءٍ سِـوى اللَّهْـوِ والمُتْعَـة».

ولا يَفوتُ الفَيْلسـوفَ الفَرَنْسِـيَّ، بِطَبيعَةِ الحالِ، أنَّ الفَلسَـفَةَ التـي يَنْصَـرِفُ إلَيْهـا في مـا يَنْصَـرِفُ إلَيْهِ مِـنْ علومٍ مَوْضِـعُ زِرايَـةٍ وَتَبْكيت:

«نَعَم، إنَّهُ لأمْرٌ كَبيرٌ أن يَصِلَ الأمْرُ في زَمانِنا هذا إلى الإزْراءِ بِالفَلْسَفَةِ والحَطِّ مِنْ قَدْرِها والتَّقْليلِ مِنْ شَأْنِها على يَدِ أُولَئِكَ الذينَ تَأْلَفُ مِنْهُمُ الفِطْنَةَ بِحُجَّةِ أنَّها بَحْثٌ في الخَياليّاتِ والوَهْمِيّاتِ لَيْسَ إلّا...».

على الرَّغْمِ مِنْ هذا جَميعًا فإنَّ دو مونتنيه لا يَسْتَسْلِمُ ولا يُلْقي السِّلاحَ بَلْ يَدْعو قُرّاءَهُ، في غَيْرِ مَوْضِعٍ، إلى التَّأَمُّلِ في ما يَتَعارَفُ النّاسُ على وَصْمِهِ بالنّافِلِ وبِما لا لُزومَ لَهُ ولا فائِدَةَ مِنْهُ:

«يَنْبغي أنْ يُبْعَثَ في صُدورِ النّاسِ احْتِقارُ الذَّهَبِ والحَريرِ وسِواهُما مِنَ الأُمورِ الباطِلَةِ كالجاهِ وحُبِّ المعالي».

ولا تَغيبُ عَنْ دو مونتينه غُرْبَتُهُ عَنْ بَني زَمانِهِ حَتّى في ما لا يُؤْخَذُ عَلَيْهِ مِنْ صِفات:

«حتّى صِفاتي التي لا أُلامُ عَلَيْها لا لُزومَ لها في هذا العَصْرِ ولا جَدْوى مِنها. فَتَسامُحي يُحْمَلُ على مَحْمَلِ الضَّعْفِ والجُبْنِ، وتَمَسُّكي بالوَفاءِ وبإرضاءِ ضَميري يُحْمَلُ على مَحمَلِ الوَسْوَسَةِ والتَّطَيُّر، أمّا صراحَتي في قَوْلِ الحَقِّ فَتُنْسَبُ إلى قِلَّةِ الأدَبِ، وحُرِّيَّتي إلى التَّهَوُّر».

لا تَدَّعـي مُحـاولاتُ دو مونتينـه أنَّهـا أكْـثَرُ مِـنْ شـهادَةٍ شَـخْصِيَّةٍ، وبِهذا الوَصْفِ فإنَّها لا تَسْـكُتُ عَمّـا قَـد يُضيـرُ صاحِبَهـا. كَذَلِـكَ لا يَتَـرَدَّدُ مِـنَ الاعْتِـرافِ، إنْ جـازَتِ العِبـارَةُ، بـأنَّ أوليـاءَهُ، وإنْ لَـمْ يَتَوَجَّسـوا يَوْمًـا أن يَمْضـيَ فـي مَناكِبِ الشَّـرِّ والرذيلَـة، لَـمْ يَفُتْهُـم أنْ يَتَوَجَّسـوا أنْ يَمْضـي في طَريـقِ البَطالَـةِ وأنْ يُوَظِّـفَ نَفْسَـهُ علـى مـا لا لُـزومَ لَـهُ ولا فائِـدَةَ مِنْـه:

«ولا بَـأْسَ لرُبَّمـا أنْ تُسَـنَّ تَشْـريعاتٌ، علـى غِـرارِ التَّشْـريعاتِ التـي يُحْجَـرُ بِمُوجِبِهـا على المُشَـرَّدينَ، يَكـونُ مِـنْ شَـأْنِها أنْ تَضْبُـطَ الأُدبـاءَ الحُمْقـى والبطّاليـن. ولَعَلّـي أنْ أُعَـدَّ، كمـا غَيْـري مِـنَ الأُدبـاءِ، فـي عِـدادِ هَـؤلاءِ البَطّاليـن. وأقـولُ قَوْلـي هـذا لا هـازِلًا ولا مَـنْ يَحْزَنـون!».

بالطَّبْـعِ، لا يَنْبَغـي أن يُحْمَـلَ كَلامُ دو مونتينـه علـى نَصِّـهِ وحَرْفِـهِ، وهـو مـا شَـدَّدَ عَلَيْـه أندريه تورنـون فـي تَعْليقاتِـهِ علـى هـذه الفِقْـراتِ مِـنَ المُحـاولاتِ، بَـلِ الأَوْلـى، لَرُبَّمـا، أنْ نَـرى فيهـا ما تَمَتَّـعَ بِـهِ المُفَكِّـرُ مِـنْ وَعْـيٍ ثاقِـبٍ أتـاحَ لَـهُ أنْ

يَـرى بالعَيْنِ نَفْسِـها نُفولَ مَكانِـهِ في العَصْرِ الذي عـاشَ فيـهِ، ولُـزومَ كُلِّ مـا لا يَلْـزَمُ فـي الطَّبيعَـةِ والحَيـاةِ، بِمـا فـي ذلـكَ مـا لا يَلْـزَمُ نَفْسُــه.

ليوپاردي المُتَسَكِّع:
في أنَّ الانْحِيازَ إلى النّافِلِ مُخالَفَةٌ على نَفْعِيَّةِ هذا «العَصْرِ الصَّلِفِ والأبْلَه»

طَـوالَ عامَيْـنِ اثْنَيْـنِ، (١٨٣١ و١٨٣٢)، انْصَـرَفَ الشّـاعِرُ الإيطالـيُّ جاكومـو ليوپـاردي(*) وصَديقُـهُ الحَميـمُ أنطونيـو رانييـري(**) إلـى العَمَـلِ علـى إصْدارِ مَطْبوعَـةٍ أُسْبوعيَّةٍ «لا لُـزومَ لهـا ولا جَـدْوى مِنهـا». ففـي زَمَـنٍ هَـمُّ أبْنائِـهِ اسْـتِجلابُ المنافِـعِ، لا مَفَـرَّ مِـنَ المُرافَعَـةِ عَمّـا لا لُـزومَ لَـهُ ولا جَـدْوى مِنْـه:

«فـي هـذا الزَّمَنِ الـذي تَبْدو فيـهِ سـائِرُ المَطْبوعاتِ

(*) جاكومو ليوپاردي، (١٧٩٨ ـ ١٨٣٧)، شاعِرٌ وكاتِبٌ إيطاليّ.

(**) أنطونيـو رانييـري، (١٨٠٦ ـ ١٨٨٨)، أديـبٌ إيطالـيٌّ رافَـقَ جاكومـو ليوپـاردي خِـلالَ سَـنَواتِ عُمْـرِهِ الأخيـرة. عِـلاوَةً علـى عَـدَدٍ مِـنَ المُؤَلَّفـاتِ، يُذْكَـرُ رانييـري بأنَّـهُ وَقَـفَ بَعْـدَ رَحيـلِ ليوپـاردي علـى نَشْـرِ آثـارِه.

مِـنْ كُـتُبٍ ومَنْشـوراتٍ وحتّـى مِنْ بطاقـاتِ تَعْريفٍ شَـخْصِيَّةٍ مُوَجَّهَـةً وُجْهَـةً نَفْعِيَّـةً، مِنَ المُفيـدِ، بَلْ مِنَ الضَّـروريِّ فـي عُرْفِنـا أنْ نُبـادِرَ إلـى إصْـدارِ مَطبوعَةٍ شِـعارُها أنْ لا لُـزومَ لهـا ولا فائِـدَةَ مِنْها. شـيمَةُ الإنْسـانِ أنْ يُحـاوِلَ التَّمَيُّزَ عَنْ بَني جِنْسِـهِ، ولمّا كانَ أبْنـاءُ الجِنْـسِ مُسْـتَغرِقينَ فـي ما هو نافِـعٌ ومُجْدٍ، لا يَبْقـى لِمَـنْ يُريـدُ التَّمَيُّـزَ عَنْهُـم إلّا أن يَتَعَبَّـدَ لِوَجْـهِ مـا لا يَلْزم!».

ولمّـا كانَـتْ قَناعَـةُ ليوپـاردي أنَّ المُمْتِـعَ مُقَـدَّمٌ علـى المُفيدِ، فَلَقَد تَوَسَّـمَ في النِّسـاءِ اللّامبالِياتِ جُمْهـورًا لهـذِهِ المَطْبوعَـةِ: «ولا أقْصِـدُ النِّسـاءَ هَـؤلاءِ مِنْ بـابِ مُجامَلَتِهِـنَّ وإنِّما لِما أُقَـدِّرُ أنَّهُنَّ يُحْسِـنَّهُ مِـنْ ظَـنٍّ فـي مـا لا لُـزومَ لَـهُ ولا جَدْوى مِنْه»...

لَـمْ يَحْصُـلْ ليوپـاردي وصديقُـهُ علـى الرُّخْصَـةِ المَطْلوبَـةِ لإصْـدارِ هـذِهِ المَطبوعَـةِ مِـنَ السُّـلُطاتِ الفلورَنْسِـيَّةِ، بَيْـدَ أنَّ عَـدَمَ حُصولِهِمـا عَلَيْهـا لا يُقَلِّـلُ فـي شَـيْءٍ مِـنْ فَضْـلِ المُحاوَلَـةِ التـي قامـا بِهـا.

وبِما أنَّ الشَّـيْءَ بالشّـيْءِ يُذْكَـرُ، لا بـأسَ مِـنَ الإشـارَةِ إلـى أنَّ مَشْـروعَ المَطْبوعَـةِ هـذهِ لَـمْ يَكُـنْ أوَّلَ قُرْبـانٍ يَسْـعى ليوپـاردي إلـى تَقْديمِهِ علـى مَذْبَـحِ النّافِـلِ وما لا لُـزومَ لَهُ. فَقَبْـلَ أعْوامٍ علـى ذَلِـكَ خَطَـرَ لَهُ أنْ يَضَعَ مَوْسـوعَةً ـــ لا أقَلَّ مِـنْ ذَلِـكَ! ـــ يَقِفُها على المَعارِفِ التـي لا لُزومَ لهـا ولا جَـدْوى مِنها! علـى غِرارِ تِلْـكَ المَطْبوعَةِ، لَمْ يُكْـتَبْ لِهَذِهِ المَوْسـوعَةِ أنْ تَـرى النّورَ ولكنَّ مُجَـرَّدَ التَّفْكيـرِ بِوَضْعِها يُخَبِّرُ عَـنِ القَلَقِ العَميقِ الـذي كانَ يَعْتَمِـلُ فـي نَفْـسِ أديـبٍ يَعيـشُ مُتَغَرِّبًـا فـي مُجْتَمَـعٍ يَسـودُ فيهِ، وعَلَيْـهِ، على ما يَـرِدُ فـي رِسـالَةٍ وَجَّهَها ليوپـاردي إلى ناشِـرِهِ في تمـوز ١٨٢٧ـــ «التُّجّـارُ ومَنْ على شـاكِلَتِهِم مِنْ طُلّابِ المالِ والثَّـرْوَةِ»:

«كأنّـي بِهِـم، [نـاسِ هـذا العَصْـر]، يَخْتَلِفـونَ فـي كُلِّ شَـيْءٍ إلّا فـي مـا يَنْسِـبونَهُ مِنْ قَـدْرٍ إلى المالِ ومِـنْ شَـأنٍ حتّـى لَيَـكادُ الواحِـدُ أنْ يَظُـنَّ بـأنَّ المـالَ، والمـالَ وَحْـدَهُ، هـو، فـي قناعَتِهِـم، جَوْهَرُ الكائِنِ البَشَـرِيِّ وماهِيَّتُهُ. إنَّ الشَّـواهِدَ لَتَتَضافَرُ أنَّ

الإعلاءَ مِنْ قَدْرِ المالِ وَشَأْنِهِ مَبْدأٌ أزَلِيٌّ. ولَعَلَّهُ علا أكْثَرَ في زَمانِنا هذا. وإذْ يَكونُ هذا فإنَّ كُلَّ الصِّفاتِ القَبيحَةِ، مِنْ لامُبالاةٍ وأنانِيَّةٍ وبُخْلٍ وزَيْفٍ وخُبْثٍ، تَنْتَشِرُ وتَفْشو، فيما الصِّفاتُ الحَميدَةُ تَنْحَسِر».

لَمْ يَرْمِ ليوپاردي مِنْ خلالِ دفاعِهِ عَنِ النّافِلِ وعَمّا لا لُزومَ لَهُ أنَّ يَتَسَقَّطَ للنَّشاطِ الفِكْريِّ حَبْلَ نَجاةٍ يَتَمَسَّكُ بِهِ فَحَسْبُ، ولكنَّهُ سَعى أيْضًا إلى التَّأْكيدِ على أهَمِيَّةِ الحَياةِ والأدَبِ والحُبِّ والخَيالِ وَسْطَ عَصْرٍ لَمْ يَتَرَدَّدَ عَنْ وَصْفِهِ بـ«الصَّلِفِ والأبْلَه».

جون لوك: ضِدّ الشِّعْر

مُتَحَزِّبًا لِلْمَنْطِقِ النَّفْعِيِّ، يَذْهَبُ جون لوك(*) في دِفاعِهِ عن أوَّلِيَّةِ كُلِّ ما لَهُ لُزومٌ وجَدْوى إلى مُهاجَمَةِ الشِّعْر.

ففي رِسالَةٍ وَضَعَها لوك وأدارَها على مَبادِئَ

(*) جون لوك، (١٦٢٣ ـ ١٧٠٤)، فَيْلَسوفٌ ومُفَكِّرٌ سِياسِيٌّ إنْجليزيّ.

التَّرْبِيَـةِ، يَنْتَقِـدُ أشَـدَّ الانْتِقـادِ أولَئِـكَ الذيـن يَفرِضـونَ علـى الأوْلادِ تَعَلُّـمَ مَبـادِئِ العَـروضِ:

«إنْ لَـمْ يَتَمَتَّـعِ الوَلَـدُ بذائِقَـةِ الشِّـعْرِ فَعَبَثًا إرْهاقُـهُ بِتَعَلُّـمِ مـا يُضَيِّـعُ وَقْتَـهُ طالَمـا أنَّـهُ أصْلًا لَـنْ يَبْـرَعَ فيـه».

وَلكنَّـهُ لا يَكْتفـي بِذَلِـكَ فَحَسْـبُ بَـلْ يَنْتَقِـدُ بِعبـاراتٍ أشَـدَّ أُولئِـكَ الأوليـاءَ الذيـن يَدَعـونَ لأَبْنائِهِـم ذَوي المواهِـبِ الشِّـعْرِيَّةِ أن يُنَمّـوا هَـذِهِ المواهِـبَ:

«وإذا اتَّفَقَ لِوَلَـدٍ أنْ أوتـيَ مَوْهِبَـةَ الشِّـعْرِ فإنِّـي لأَسْـتَغْرِبُ كُلَّ الاسْـتِغْرابِ أنْ يَنْشُـدَ أوْلِيـاؤُهُ أنْ تَنْمُـوَ هـذهِ المَوْهِبَـةُ لَدَيْـهِ أو أنْ يُعينـوهُ علـى تَنْمِيَتِهـا».

ففـي شَـرْعِ لـوك، لا فائِـدَةَ مادِّيَّـةً تُرْجّـى مِـنْ صُحْبَـةِ شَـياطينِ الشِّـعْر:

«... مِـنْ ثَـمَّ يَبـدو لـي أنَّ الأحْـرى بالأهْـلِ أنْ يَكْبُتـوا قَـدْرَ المُسْـتَطاعِ هَـذِه المَوْهِبَـة. فالحَقيقةُ أنّـي لا أفْهَـمُ تَشْـجيعَ والِـدٍ لِوَلَـدِهِ على الشِّـعَرِ إلّا تَنْفيـرًا لَـه عَـنْ مِهَـنِ الحيـاةِ الأُخـرى. وهُنـاكَ مـا هُـوَ أسْـوأُ مِـنْ كُلِّ هـذا بَعْـدُ: فَلِنَفْتَـرِضْ أنَّ الوَلَـدَ

بَـرَعَ فـي نَظْمِ الشِّـعْرِ، أيَـنْ تَظُنُّهُ سَـيَقضي أوقاتَهُ وسَـيَصْرِفُ أمْوالَـه؟ هَلْ سَـمِعَ أحَدٌ مِنّـا عَنْ مناجِمِ ذَهَـبٍ وفِضَّـةٍ فـي جِبالِ البِرنـاس؟(*) لَعَـلَّ هَـواءَ تِلْـكَ الجِبـالِ عَليـلٌ ولَكْـنَّ تُرْبَتَهـا جَدْبـاءُ فَقيـرَةٌ... فَقَليـلٌ، قَليـلٌ جِدًّا، مِمَّـن اخْتارَها وَطَـنًا أفْلَحَ في زِيـادَةِ ثَرْوَتِـهِ مِـنَ التَّنْقيـبِ فـي أرْضِها».

مِمّـا لا جِدالَ فيهِ أنَّ غايَـةَ التَّرْبِيَةِ والتَّعْليمِ على مـا رأى لـوك إلَيْهِمـا هـي تَـكْوينُ «الجَنْتِلمـان» المُتَمَتِّـعِ بالكَفـاءَاتِ العِلْمِيَّـةِ والتِّقْنِيَّـةِ التـي تُمَكِّنُـهُ مِنْ خَـوْضِ الحَيـاةِ العَمَلِيَّةِ ومِـنَ النَّجاحِ فيهـا. ولَعَلَّنـا أنْ نَعْذُرَ شِـدَّةَ نَـكيرِهِ على الشِّعْرِ وعلـى التَّشْـجيعِ عَلَيْـهِ إذا ما أخَذْنا فـي الاعْتبارِ مـا سـادَ فـي المَناهِـجِ التَّرْبَوِيَّـةِ فـي زَمانِـهِ مِـنِ احْتِفـالٍ بِعُلـومِ البَلاغَـةِ وإعْـلاءٍ مِنْ شَـأْنِها.

ثُـمَّ لنـا أنْ نَسْـألَ عَـنْ تَأْثيـرِ لـوك فـي نَظَرِيّاتِـهِ هـذِهِ علـى صُنّـاعِ السِّياسـاتِ التَّعْليميَّـةِ مِـنْ أهْـلِ عَصْرِنـا، وحَـقٌّ عَلَيْنـا أنْ نَعْتَـرِفَ بـأنَّ

(*) جِبـالُ البارنـاس، فـي الميثولوجيـا اليُونانيَّـةِ، هـي مَوْطِـنُ رَبّـاتِ الشِّعْرِ وشَـياطينِه.

الجَوابَ عَنْ هذا السُّؤالِ لَيْسَ بالبَدْهِيِّ أوْ بالسَّهْل: فَمُنْذُ عُقودٍ خَلَتْ أسْمَعُ عَدَدًا لا يُسْتَهانُ بِهِ مِنْ أوْلِياءِ الطَّلَبَةِ يَتَساءَلون: «أيُّ شَيءٍ سَيَكونُ مِنْ أمْرِ ابني/ابنتي إنْ حازَ/زَتْ شهادَةً في الآداب؟». والأرْجَحُ، عِنْدي، أنَّ في هذا التَّساؤلِ شَيْئًا مِنْ رَجْعِ الصَّدى لِما شَنَّهُ لوك، ذاتَ يَوْمٍ، مِنْ حَرْبٍ على الشِّعَرِ وعلى الموسيقى...

بوكاتشو: الخُبْزُ والشِّعْر

رَبّاتُ الشِّعْرِ، كما يُصَوِّرُهُنَّ جيوڤاني بوكاتشو(*)، نِساءٌ مِنْ لَحْمٍ ودَمٍ لا تَزيدُ المَرْءَ صُحْبَتُهُنَّ إلّا هَناءً على هَناء.

بِناءً على هذا الانْحيازِ الكامِلِ إلى الشِّعْرِ، لا يُسْتَغْرَبُ مِنْ صاحِبِهِ أنْ يُخَصِّصَ صَفَحاتٍ

(*) جيوڤاني بوكاتشو، (١٣١٣ ـ ١٣٧٥)، كاتِبٌ وشاعِرٌ إيطاليٌّ مِنْ أرْكانِ عَصْرِ النَّهْضَةِ شَأنَ صَديقِهِ پترارك.

مِـنْ كِــتابِـهِ **الديكاميـرون**(*) لِمُجادَلَـةِ أولَئِـكَ الّذيـنَ يَحُثّونَـهُ علـى السَّـعْيِ وراءَ الخُبْـزِ عِـوَضَ الانْصِـرافِ إلـى الشِّـعْرِ وتُرَّهاتِـه.

«ثُـمَّ هاكُـمْ أولَئِـكَ الذيـنَ يَدَّعـونَ الحِـرْصَ عَلَـيَّ وعلـى شَـهِيَّتي إلـى الطَّعـامِ فَيَنْصَحـونَ إلـيَّ أنْ أُوَجِّـهَ هَمِّـيَ وجَهْـديَ إلـى كَسْـبِ قُوتِـيَ اليَوْمـيِّ مِـنَ الخُبْـز. كَيْـفَ يَسَـعُني أنْ أُخاطِـبَ هَـؤلاء؟ لا أعْـرِفُ، فـي الحَقيقَـةِ مـا قَـدْ يكـونُ عَلَيْـهِ جَوابُهُم لَـوْ سَـأَلْتُهُم "وكَـيْفَ لـي أنْ أفْعَـلَ ذَلِـك؟" وَلَـوْ أنَّنـي لا أسْـتَبْعِدُ أنْ يَكـونَ الجَـوابُ مِـنْ بَعْضِهِـم: "بالانْصِـرافِ إلـى الشِّـعْر". فَلَكَـمْ مِـنْ شـاعِرٍ جَنى مِـنْ شِـعْرِهِ ما لَمْ يَجْنِـهِ الأثْرياءُ مِنْ كَـنْزِ الثَّرواتِ، ولَكَـمْ مِـنْ مُحِبٍّ للشِّـعْرِ امْتَـدَّ بِهِ العُمْـرُ في حينِ بَكَّـرَ المَـوْتُ إلـى السّـاعينَ وراءَ الخُبْـز».

نَعَـمْ، بِصَـرْفِ النَّظَـرِ عَـنْ كَميَّـةِ الخُبْـزِ الـذي تَؤْتيـهِ أشْـعارُ الشُّـعَراءِ فَهِـيَ حاكِمَـةٌ علـى فَهْمِنا

(*) المَعْنـى الحَرْفـيُّ لـ **ديكاميـرون** هـو «الأيّـام العَشْـرَة». وَضَعَ بوكاتشـو هذا الكِـتابَ بَيْـنَ ١٣٤٨ و١٣٥٨ وهـو يَضُـمُّ مائَـةَ أُقْصوصَـةٍ رُوِيَـتْ خِـلالَ عَشْـرَةِ أيّـامٍ علـى ألْسِـنَةِ عَشْـرَةِ فِتْيـانٍ جَمَـعَ بَيْنَهُـم فِرارُهُـم مِـنَ الطّاعونِ الـذي فَتَكَ أيّامَـذاكَ بِحَواضِـرَ كثيـرَةٍ مِـنْ عِدادِهـا فلورنسـا. يُذْكَـرُ هـذا الكِـتابُ، فـي ما يُذْكَـرُ، لِمـا كانَ لَـهُ مِـنْ أثَـرٍ لاحِـقٍ علـى فُحـولٍ مِـنْ أمْثـالِ شاوسـر وشكسـبير.

لِما نَحْتاجُ إلَيْهِ مِنْ خُبْزٍ ومِنْ سِواهُ، فَمِنْها ـ مِنْ أشْعارِ الشُّعَراءِ ـ نَتَعَلَّمُ الدِّفاعَ عَنْ أنْفُسِنا مِنْ تَسَلُّطِ وَساوِسِ الرِّبْحِ عَلَيْها، عِلمًا أنَّ هذهِ الوَساوِسَ، كما يُلاحِظُ بوكاتشو، لا تَخْلو، على وَجْهِ الحَقيقَةِ لا على وَجْهِ المَجازِ فَحَسْبُ، أنْ تَكونَ مِنْ أسْبابِ المَوْتِ المُبْكِر!

غارثيا لوركا:

لَيْسَ مِنَ الأمانِ في شَيْءٍ أنْ يَعيشَ الإنْسانُ في مَنأى مِنْ جُنونِ الشِّعْر!

كُثُرٌ هُمُ الشُّعَراءُ والأُدَباءُ الذينَ حاجّوا لوك، ولَوْ بِشَكْلٍ غَيْرِ مُباشَرٍ، في جَدْوى الشِّعْرِ والأدَبِ بانْصِرافِهِم إلَيْهِما.

مِنْ كُلِّ هَؤلاءِ لِغارثيا لوركا(*) مَنْزِلَةٌ على حِدَةٍ ولَعَلَّ الكَلِماتِ التي قَدَّمَ بِها لأحَدِ دواوينِ

(*) فيديريكو غارثيا لوركا، شاعِرٌ إسبانِيٌّ وكاتِبٌ مَسْرَحِيٌّ ورَسّامٌ وعازِفُ بيانو كانت وِلادَتُهُ بغرناطَةَ سَنَةَ ١٨٩٨. أعْدَمَهُ الفَرانْكِيّونَ على بِداياتِ الحَرْبِ الأهْلِيَّةِ الإسْبانِيَّةِ في ١٩ آب (أغسطس) ١٩٣٦.

يابلـو نيـرودا(*) أنْ تَـكونَ مِنْ أفْحَـمِ الرُّدودِ على لوك:

«نَصيحَتـي لَـكُمْ أنْ ألْقـوا السَّـمْعَ إلـى مـا يَقولُهُ هـذا الشّـاعِرُ، وليُحـاوِلْ كُلُّ واحِـدٍ مِنْكُم أنْ يُشـاطِرَهُ أحاسيسَـهُ كَيْفَمـا يَشـاء. نَعَـم، لا يَخلـو الشِّـعْرُ مِـنْ أنْ يَقتَضـيَ دُرْبَـةً مـا عَلَيْـه؛ ومَثَـلُ الشِّـعْرِ فـي هـذا، مَثَـلُ سـائِرِ الرِّياضـاتِ... بَيْـدَ أنَّ فـي كُلِّ شِـعْرٍ حَقيـقٍ بـأنْ يُنْسَـبَ إلى الشِّـعْرِ شَـميمُ عِطْـرٍ، وَوَقْـعُ نَغَمٍ، وشُـعاعَةُ نـورٍ لا يَحْتاجُ الواحِـدُ مِنّـا إلـى أيَـةِ دُرْبَـةٍ لِيَتَمَتَّـعَ بِأَريجِهـا، أو لِتُشَـنِّفَ أُذُنَيْـهِ أوْ لِتَضيـعَ بَيْـنَ يَديْـه. ألّا فَلْيُمَـنَّ علـى كُلِّ واحِـدٍ مِنّـا أنْ تَنْمـوَ فـي نَفْسِـهِ هَـذِهِ اللُّوثَـةُ المَغْروسَـةُ فينا مِـنَ الجُنونِ والتـي يُحاوِلُ البَعْـضُ مِنّـا وَأْدَهـا مُخَلِّيًـا مَحَلَّها لِما يَتَيَسَّـرُ لَهُ مِنْ عِلْـمٍ كُـتُبِيٍّ ثَقيـلِ الظِّلِّ لا مُـدْرِكًا أنَّهُ بِـوَأْدِهِ هذهِ اللُّوثَـةَ إنَّمـا يُجَـرِّدُ نَفْسَـهُ مِـنْ بَعْـضِ مـا تُدافِـعُ بِهِ نَفْسُـهُ عَـنْ نَفْسِـها!».

لَيْـسَ بالقَليـلِ أنْ يَقـولَ شـاعِرٌ كبيـرٌ مِثْـلَ هـذا

(*) پابلـو نيـرودا، (١٩٠٤ ـ ١٩٧٣)، شـاعِرٌ وسِياسِـيٌّ تشـيليٌّ شُـيوعِيُّ الهَـوى. حـازَ عـامَ ١٩٧١ جائِـزَةَ نوبـل لـلآداب.

الـكلامِ فـي شـاعِرٍ آخَـر، ويَزيـدُ مِـنْ شَـأْنِ هـذا الـكلامِ أنَّ لـوركا جاءَ بِـهِ أمـامَ مَـلَأٍ مِـنْ طُـلّابِ جامِعَـةِ مدريـدَ فـي عـامِ ١٩٣٤!

لَعَـلَّ هـذا التَّفْصيـلَ الزَّمانِـيَّ والمَكانِـيَّ يَكْفـي تَفْسـيرًا لِمـا حَـدا بِنـا أنْ نُعَنْـوِنَ هـذا الفَصْـلَ، مُسْـتَوحينَ لـوركا: لَيْـسَ مِـنَ الأمانِ في شَـيْءٍ أنْ يَعيـشَ الإنْسـانُ فـي مَنـأى مَـنْ جُنـونِ الشِّـعْر!

سُلْطانُ «الوَقائِـع»:
مُخالفاتُ ديكنز على المبدأ النَّفْعِيّ

لَـمْ يَتَفَـوَّقْ أحَـدٌ، على الكاتِـبِ الإنْكليزِيِّ تشـارلز ديكنـز(*) فـي تَصْويـرِ مـا يُشَـنُّ مِـنْ حَـرْبٍ علـى الخَيـالِ باسْـمِ الواقِـعِ والواقِعِيَّـةِ والوقائِـع ومِـنْ وَراءِ هَـذِهِ الثُّلاثيَّـةِ باسْـمِ المَبـدأِ النَّفْعِـيّ.

ففـي مدينَـة كوكـتاون التـي يَتَّخِذُهـا مَسْـرَحًا

(*) تشـارلز ديكنـز، (١٨١٢ ـ ١٨٧٠)، أعْظَـمُ الرِّوائِيـيـن الإنْكليـزِ فـي العَصْـرِ الفِكْـتوريّ.

لِرِوايَتِـهِ **الأوقـات العَصيبَـة** مـا مِـنْ شَـيْءٍ فَـوْقَ غِرْبـالِ النَّفْـعِ والجَـدْوى، أو مِـنْ شَـيءٍ لا يُقـاسُ بِمِقياسِ النَّفْعِ والجَدْوى: في كوكـتاون لا يَخْتَلِفُ المَصْرِفِـيُّ عَـنْ أُسْـتاذِ المَدْرَسَـةِ فـي حَرْبِهِمـا اليَوْمِيَّـةِ علـى كُلِّ مـا يَحْرِفُ الخَيالَ عَـنِ الواقعِ أو يُعَـوِّقُ الانْتـاج:

«فـي هَـذِهِ الحَيـاةِ، لا حاجَةَ بِنـا إلّا إلى الوَقائِـعِ... إلـى الوقائِعِ وحَسْـب!».

كَذَلِـكَ لا غَـرْوَ أنْ يُصَـوِّرَ أُسـتاذُ المَدْرَسَـةِ بِهَيْئَـةِ شَـخْصٍ مُعـادٍ للخَيـالِ وللمَشـاعِرِ «في يَـدِهِ، على الـدَّوامِ، مِسْـطَرَةٌ، وفـي جَيْبِـهِ جَـدْوَلُ الضَّـرْب». التَّعْليمُ، في عُرْفِ هذا الأُسْـتاذِ، «مَسْـأَلَةٌ حِسـابِيَّةٌ لا أكْثَـرَ ولا أقَـلَّ»، أمّـا التَّلامِـذَةُ، فـ«صَفٌّ مِـنَ الأوانـي التـي تَنْتَظِـرُ أنْ تُمْـلأُ بالوَقائِـع».

هَـذِهِ المَدْرَسَـةُ حَيْـثُ التَّلامِـذَةُ أوانٍ صـورَةٌ طِبْقُ الأصْـلِ عَـنِ المَدينَـةِ نَفْسِـها حَيْـثُ «أهْلوهـا مُتَشـابِهونَ كُلَّ التَّشـابُهِ، يُغـادِرونَ مَنازِلَهُـم فـي السّـاعَةِ نَفْسِـها، ويَحُثّـونَ الخُطـى إلـى أماكِـنِ

عَمَلِهِم على الرَّصيفِ نَفْسِهِ بِالسُّرْعَةِ نَفْسِها، وَتَتَشابَهُ أيّامُهُم كُلَّ التَّشابُهِ حتّى لا يَكادُ يُمَيِّزُ بَيْنَ أمسٍ وغَد».

كَذَلِكَ، لا أثَرَ في هذه المَدينَةِ لما قَدْ يَعْلو على «الواقِعِ» ووقائِعِهِ المُتَرادِفَة:

«وقائِع! لا شَيْءَ في هذه المَدينَةِ سِوى وقائِعَ ومَلْموساتٍ وما يَجري مَجْرى الوَقائِعِ والمَلْموسات. المَدْرَسَةُ وَقائِعُ، مَعْهَدُ التَّصْميمِ الصِّناعيِّ وقائِعُ، الحَضانَةُ وقائِعُ، وكَذَلِكَ المَقْبَرَةُ وأيًّا مِنْ شَيء لا يَقَعُ تَحْتَ حَدِّ الكَيْلِ لا مَكانَ لَهُ في هذه المَدينَةِ ـ في هذه المدينَةِ حَيْثُ لا مَحَلَّ مِنَ الإعْرابِ إلّا لِما يُمْكِنُ أنْ يُشْرى بأبْخَسِ الأثْمانِ لِيُباعَ بأبْهَظِها مِنَ اليَوْمِ إلى أبَدِ الآبدين، آمين».

هيدغر: لَيْسَ بالأمْرِ السَّهْلِ أنْ نَفْقَهَ النّافِلَ الذي لا لُزومَ لَه

مَرّاتٌ عَديدَةٌ تَفَقَّدَ الفَيْلَسوفُ الألمانِيُّ مارتن هيدغر مَسْألَةَ ذي اللُّزومِ والجَدْوى وضِدِّهِ

النّافِلِ وغَيْرِ ذي اللَّزومِ والجَدْوى. ولَقَدْ جاءَ تَفَقُّدُ هيدغر لِهَذِهِ المسألَةِ أكْثَرَ ما جاءَ في سِياقِ تأمُّلِهِ في الأعْمالِ الفَنِّيَّةِ وماهِيَّتِها.

أكْتفي في ما يلي بالتَّذْكيرِ بِبَعْضِ ما أدْلى بِهِ هيدغر مِنْ آراءٍ ثاقِبَةٍ يَوْمَ أنْ دَعاهُ طَبيبُ النَّفْسِ السّويسريُّ الألمانيُّ مِدار بوس(*) إلى نَدْوَةٍ مُسْتَفيضَةٍ مَدارُها على الفينومينولوجيا شَرَحَ خِلالَها الفَيْلَسوفُ على نِيَّةِ مَجْموعَةٍ من المُعالِجينَ النَّفْسِيّينَ الشّبابِ مَقاطِعَ من كتابِهِ **الوجود والزمان**.

بِمُناسَبَةٍ أُخرى ـ بِمُناسَبَةِ نَقاهَةٍ قَضاها هيدغر وبوس عام ١٩٦٣ في جَزيرَةِ صقلّية ـ سَألَ بوس هيدغر أنْ يَسْتَرْسِلَ في بَيانِ رأيِهِ في أمْرِ الكائِنِ البَشَرِيِّ في علاقَتِهِ بالآخَر.

في مَعْرِضِ هَذِهِ المُحادَثَةِ التي تَبَوَّأَ فيها

(*) مِدار بوس، (١٩٠٣ ـ ١٩٩٠)، عالِمُ نَفْسِيّاتٍ سويسريٌّ تُنْسَبُ إلَيْهِ مَدْرَسَةٌ في الطِّبِّ النَّفْسِيِّ تَسْتَوحي فَلْسَفَةَ هَيْدِغِر.

«الدّازَيْـن» ــ الكائِـنُ فـي مَكانِـهِ مِـنَ العالَـم ــ مَحَـلَّ الصَّـدارَةِ ذَهَـبَ هيدغـر إلـى التّالـي:

«الأجْـدَى، قاطِبَـةً، هـو مـا لا جَـدْوى مِنْـه. على أنَّ اخْتِبـارَ مـا لا جَـدْوى مِنْـهُ هـو الأقَـلُّ يُسْـرًا علـى إنْسـانِ اليَـوْم. فالمُفيـدُ والمُجْـدي يُتَرْجِـمُ عَـنْ نَفْسِـه بِوَصْفِـهِ مـا هـو قابِـلٌ للاسْـتِعمالِ ومـا لَـهُ غايَـةٌ مُباشَـرَةٌ يَسْـتَصْلِحُها الإنْسـانُ فـي التِّجـارَةِ أو الصِّناعَـة. [أمّـا غَيْرُ المُفيدِ، وغَيْرُ المُجدي، مُباشَـرَةً فـلا يُمْكِـنُ النَّظَـرُ إلَيْـهِ علـى هـذا النَّحْـو]. يَنْبغـي علـى الإنْسـانِ أن يَتَوَصَّـلَ إلـى النَّظَـرِ إلـى المُفيـدِ المُجْـدي علـى أنَّـهُ ذو خاصِيَّـةٍ خَلاصِيَّـةٍ تُقَرِّبُـهُ، [تُقَـرِّبُ الإنْسـانَ]، أقَـرَبَ مـا يُمْكِـنُ مِـنْ نَفْسِـه».

مِـنْ هَـذِهِ الطَّريـقِ يُحـاوِلُ هيدغـر أنْ يَعْـزِلَ مَفهـومَ المُفيـدِ والمُجْـدي ومـا لُـزومَ لَـهُ عَـنِ الغائِيَّـةِ التِّقْنِيَّـةِ أو التِّجارِيَّةِ الصِّـرْفِ ولكِنَّهُ، رَغْمَ سَـعْيِهِ هـذا، يُقِـرُّ بِصُعوبَـةِ تَقَبُّـلِ المُعاصِريـنَ أهَمِيَّـةَ مـا لا لُـزومَ لَـهُ ولا جَدْوى مِنْـه؛ وعلى ما يَقـولُ هـو نَفْسُـهُ:

«مِـنَ الصُعوبَـةِ بِمـكانٍ على إنْسـانِ اليَـوْمِ أنْ يُلْقي بـالًا إلـى مـا لا تَطبيقَ أو اسْـتِخداماتٍ عَمَلِيَّـةً لَه...».

اللّازوم وجَوْهَرُ الحَياة:
جوانغ زي وأوكاكورا كاكوزو

في القَرْنِ الرابِعِ قَبْلَ المَسيحِ وَجَدَ الحَكيمُ الصّينيُّ جوانغ زي(*) نَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيِ المَسْأَلَةِ نَفْسِها: تَزاحُمُ اللّازِمِ وما لُزومَ لَهُ، وَلَقَدْ تَصَدّى لها في غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ مُؤَلَّفِهِ العُمْدَةِ الذي تَناوَلَ فيهِ الطَّبيعَةَ والتَّناسُخاتِ المُتواصِلَةَ والأُسْلوبَ الأَمْثَلَ في العَيْش.

مُتَأَمِّلًا ذاتَ يَوْمٍ في شَجَرَةٍ مُعَمِّرَةٍ قال:

> «لم تَبْلُغْ هذهِ الشَّجَرَةُ في سُموقِها عَنانَ السَّماءِ إلّا لأنّها تُرِكَتْ لِشَأْنِها في مَنأىً مِنْ أيَّةِ مُحاوَلَةٍ للإفادَةِ مِنْ خَشَبِها. كَذَلِكَ الإنْسانُ، الإنْسانُ الإلهيُّ، لا يَبْلُغُ هذه المَرْتَبَةَ إلّا متى تُرِكَ لِشَأْنِهِ وَلَمْ يُرَجَّى مِنْهُ أَنْ يَقومَ بما يَعودُ بالنَّفْعِ المادِيّ. بِخِلافِ هذهِ الشَّجَرَةِ، مَقْتَلُ كُلِّ الأَشْجارِ الأُخْرى هو في ما تُوَظَّفُ لَهُ مِنِ اسْتِعْمالات».

(*) جوانغ زي: فَيْلَسوفٌ صينيٌّ عاشَ في القَرْنِ الرّابِعِ قَبْلَ الميلاد.

فـي مَوْضِعٍ آخَـرَ مِنْ هذا الكِـتابِ، فـي مُحاوَرَةٍ بَيْنَـهُ وبَيْـنَ السُّفسـطائِيِّ هـوي تسـو، يُبَيِّـنُ جوانـغ زي مَحْدوديَّـةَ أُولئِـكَ الذين يَأْنَسـونَ مِنْ أنْفُسِـهِم القُـدْرَةَ علـى التَّمْييـزِ بَيْـنَ مـا لُـزومَ لَهُ ومـا لا لُـزوم.

يقـولُ هوي تسـو: «لا لُزومَ لمـا تَقولُـهُ»، فَيُجيبُهُ جوانـغ زي: لا بُـدَّ مِـنْ عِلْمِ ما لا لُزومَ لـه للحُكْمِ علـى مـا لُزومَ لـه بأنَّهُ لا لُـزومَ له...».

أمّا الكاتِبُ اليابانيُّ أوكاكورا كاكوزو، (١٨٦٢ ـ ١٩١٣)، فيعتَبِرُ أنَّ التَّوَصُّلَ إلى حَمْلِ ما لا لُزومَ لَهُ على مَحْمَلِ الجَدِّ هو الحَدُّ الفاصِلُ بَيْنَ الوَحْشِيَّةِ والإنْسِيَّةِ وهو المَفازَةُ التي لا بُدَّ مِنِ اجْتيازِها للانْتِقالِ مِنْ هذهِ الحالَةِ إلى تِلْك.

فـي فَصْـلٍ من **كِـتاب الشّـاي** الـذي كانَ صُدورُهُ فـي عـامِ ١٩٠٦ يُخَصِّصُهُ كاكوزو للأزهـارِ يَذهَبُ إلـى القَـوْلِ إنَّ شِـعْرَ الغَـزَلِ إنَّمـا نَشَـأَ مِـنْ حُبِّ البَشَـرِ للأزْهار.

«يَـوْمَ أهْـدى الإنْسـانُ الأوَّلُ لِصاحِبَتِـهِ أوّلَ باقَـةٍ مِـنَ الأزْهـارِ ـــ يَوْمَهـا غـادَرَ بِدائِيَّتَـهُ، وارْتَفَـعَ عَنْ حاجاتِـهِ البَهيميَّـةِ، ودَخَـلَ تَحْـتَ حَـدٍّ الإنْسـيَّةِ وذلِـكَ بـأنْ تَلَمَّسَ ذلكَ الإنْسـانُ، يَومـذاكَ، فَحْوى النّافِـلِ، فدَخَـلَ مَلَـكوتَ الفَـنِّ».

أوجين يونيسكو:
مـا لُزومَ له عِبْءٌ لا لُزومَ له

بانِيًـا علـى تَشْـخيصٍ مُفـادُهُ أنَّ البَشَـرِيَّةَ بَلَغَـتْ مِـنَ الانْهِـزامِ حَـدًّا فَقَـدَتْ مَعَـهُ ذائِقَـةَ الحَيـاةِ، اقْتَرَحَ أوجين يونيسـكو بِمُناسَـبَةِ مُحاضَـرَةٍ ألْقاها فـي شُـباط (فبرايـر) ١٩٦٠ جُمْلَـةَ أفْكارٍ لَـمْ تَفْقِدْ شَـيْئًا مِـنْ فُتُوَّتِهـا ونَضارَتِها.

خُلاصَـةُ مـا يَذْهَـبُ إلَيْهِ يونيسـكو وبَيْـتُ قَصيدِهِ أنَّ شَـيْئًا لا يَسُـدُّ مَسَـدَّ مـا لا يَلْـزَمُ ومِـنْ ثَـمَّ فـإنَّ حاجَتَنـا إلَيْهِ ماسَّـةٌ:

«أنْظـروا إلـى النّـاسِ فـي الشَّـوارِعِ يَهَرْوِلـونَ بانْهِمـاك. لَيْـسَ مِنْهُـم مَـنْ يَلْتَفِـتُ ذاتَ اليَميـنِ أو ذاتَ اليَسـار. لا يَحْتـاجُ أحَـدٌ مِنْهُـم أنْ يَنْظُـرَ

أمامَـهُ أو أنْ يَتَـرَدَّدَ لأنَّ كُلًّا مِنْهُـم يَسـيرُ إلـى حَيْثُ يَقْصِـدُ مُسَـيَّرًا تَسْـييرًا شِـبْهَ آلِـيٍّ لا يَحْتـاجُ مِنْهُ إلى أكْـثَرَ مِـنَ تَحْريـكِ قَدَمَيْـه! فـي كُلِّ مُـدُنِ العالَـمِ وحواضِـرِهِ يَسـيرُ النّـاسُ هكـذا... إنْسـانُ عَصْرِنـا كائِـنٌ مُسْـتَعْجِلٌ لا وَقْـتَ لَدَيْـهِ لِمـا لا يَقَـعُ تَحْـتَ حَـدِّ الضَّـرورَة. إنْسـانُ عَصرِنـا لا يَفْقَـهُ أنَّ فـي هذا العالَـمِ مـا لَيْـسَ مِـنَ الضَّـروراتِ والضَّـروريّـات. إنسـانُ عَصْرِنـا لا يَشْـتَبِهُ لِلَحْظَـةٍ أنَّ الضَّـروريَّ قَـدْ يَكـونُ عِبْئًـا لا لُـزومَ لَـهُ ولا جَـدْوى مِنْـه. وطالمـا أنَّ إنْسـانَ عَصْرِنـا لا يُـدْرِكُ مـا يَنْتَسِـجُ مِـنْ عَلاقَـةٍ جَدَلِيَّـةٍ بَيْـنَ الضَّـروريِّ والنّافِـلِ، اللّازِمِ ومـا لا لُزومَ لَـهُ فهـو يَقْطَـعُ الطَّريـقَ بِنَفْسِـهِ بَيْنَـهُ وبَيْـنَ الفَـنّ. وإنَّ بَلَـدًا لا يُعْـرَفُ فيـهِ الفَـنُّ ويُكَـرَّمُ هـو حَتْمًا بَلَدٌ أهْلـوهُ مِـنَ العَبيـدِ ومِـنَ الكائِنـاتِ المُسَـيَّرَة؛ هـو بَلَـدٌ أهْلوهُ تُعَسـاءُ لا يَبْتَسِـمونَ ولا يَضْحَكون... بَلَدٌ بـلا روحٍ يَسـودُ فيـهِ وعَلَيْـهِ الحَنَـقُ والحِقْـد».

إنَّ الإنْسـانَ المُعاصِـرَ الـذي لا يَتَّسِـعُ وَقْتُـهُ للتَّمَكُّـثِ عِنْـدَ النَّوافِـلِ مَحْكـومٌ بـأنْ يَتَحَوَّلَ إلى آلَـةٍ بـلا روح.

مُسْتَأْسَـرًا بالضَّروريّـاتِ وَلَها، يِفْقِدُ هذا الإنْسـانُ شَـيْئًا فَشَـيْئًا القُـدْرَةَ علـى أنْ يُـدْرِكَ بـأنَّ هـذِهِ

الضَّروريّـاتِ آيلَـةٌ إلـى أنْ تتَحَوَّلَ مِنْـهُ إلى أعْباءٍ ثَقيلَـةٍ تُرْهِـقُ كاهِلَـه. وإذْ يُضيـفُ يونيسـكو أنَّ القُصـورَ عَنْ فَهْـمِ الجَدَلِ بَيْنَ الضَّـروريِّ والنّافِلِ صِنْـوٌ للقُصـورِ عَـنْ فَهْـمِ الفَـنِّ والاحْتِفـالِ بِـهِ، فـإنَّ أخْطَـرَ مُتَرتِّبـاتِ هذا القُصورِ الذي يَسْـتَلِبُ مِـنَ الإنْسـانِ حُرِّيَّتَهُ هو أنَّ هذا الاسْـتِلابَ يُصَيِّرُ الإنْسـانَ فَريسَـةً سـائِغَةً للتَّعَصُّـبِ المُتَفَلِّتِ مِنْ أيِّ عِقـالٍ، ولا سِـيَّما لِضُـروبِ التَّعَصُّـبِ الدّينِـيِّ أو فَريسَـةً لِضُـروبِ «السُّـعارِ الجَماعي»:

«ذلِـكَ أنَّ هَـؤلاءِ النّـاسَ المَهْمومينَ بالضَّروريّاتِ، القَلِقيـنَ مِـنْ عَـدمِ القُـدْرَةِ علـى تَحْصيلِها، المُسْـتَعْجِلينَ إلـى اكْـتِسابِ ما يَتَيَسَّـرُ مِنْها، إنَّما يُسْـرِعونَ فـي سَـعْيِهِم هـذا إلـى غايـاتٍ لَيْسَـتْ مِـنَ الإنْسـانِيَّةِ فـي شَـيْءٍ أو هِـيَ فـي أحْسَـنِ الأحْـوالِ غايـاتٌ مِـنْ وَهْـمٍ وسَـراب. إنَّ هَـؤلاءِ النّـاسَ أنْفُسَـهُم عُرْضَـةٌ لأنْ يَسْـتَوْلِيَ عَلَيْهِـم، على غَفْلَـةٍ مِنْهُـم، أيُّمـا تَعَصُّـبٍ جامِحٍ أو سُـعارٍ يَضْرِبُ نَفيـرَهُ مَجْنـونٌ مِنْ هُنـا أو يَدْعو إلَيْهِ مُشَـعْوِذٌ مِنْ هنـاك. إنَّ البَشَـرِيَّةَ، اليَـوْمَ، تَحْـتَ هـذا الخَطَـرِ ـ خَطَـرِ أنْ تَسْـتَيْقِظَ نَوْبـاتُ السُّـعارِ هـذِهِ، سِيّانَ تَزَيَّنَـتْ بِشـعاراتٍ يَمينيَّـةٍ أو يَسـاريَّة. ويَزيـدُ مِنْ

إحْداقِ هـذا الخَطَـرِ أنَّ النّـاسَ لا يُخَلّـونَ بَيْـنَ أنْفُسِـهِم وبَيْـنَ النَّظَـرِ فـي مـا هُـمُ فيـهِ وفـي مـا يَـدورُ مِـنْ حَوْلِهِـم!».

إيتالو كالڤينو: النّافِلُ هو الجوهري!

بِجَـدارَةٍ يَتَبَـوَّأُ إيتالـو كالڤينـو مَكانَـةً علـى حِـدَةٍ بَيْـنَ أولئـكَ الذين مَحَّصوا ما بيـن الآدابِ والعُلومِ مِـنْ صِلات. ومِـنَ الخُلاصـاتِ التـي تَوَصَّـلَ إلَيْهـا كالڤينـو أنَّـهُ لا أشْـأى مِـنَ النَّشـاطاتِ التـي تَبْدو لِلْوَهْلَـةِ الأولـى نافِلَـةً وغَيْـرَ ذاتِ أهَمِيَّة.

«فـي كَثيـرٍ مِـنَ الأحْيـانِ، يَنْتَهـي الأمْـرُ بِمـا يَخـوضُ فيـهِ البَشَـرُ مِـنْ نَشـاطاتٍ لا غايَـةَ مِـنْ وَرائِها سِـوى المُتْعَـةِ والتَّسْـرِيَةِ عَـنِ النَّفْـسِ يَنْتَهـي الأمْـرُ بـأنْ تَتَأتّـى عِنْ هـذِهِ النَّشـاطاتِ نَتائِجُ غايَةٌ فـي الأهَمِّيَّةِ وثَمَـراتٌ لَـمْ يَتَوَقَّعْهـا أحَـد. وإن تَصِحُّ هـذِهِ الرَّمْياتُ دونَ رامٍ فـي الشِّـعْرِ والفَـنِّ فَهِـي تَصِحُّ أيْضًـا فـي مَجـالِ العُلـومِ والتِّكْنولوجيـا».

ويُتابِـعُ كالڤينـو الـرَّدَّ علـى شُـبُهاتِ النَّفْعِيّيـنَ فَيُذَكِّرُنـا بـأنَّ الواحِـدَ مِنّـا والواحِـدَةَ لا يُمضـي

السّـاعاتِ فـي مُطالَعَةِ عُيـونِ الأدَبِ طَلَبًـا لِفائِدَةٍ مُعَيَّنَـةٍ وإنَّمـا لِوَجْـهِ المُتَـعِ التي تُوفِّرُهـا لنا هذهِ المُطالَعَـةُ مُتَـعِ التَّغَـرُّبِ والمَعْرِفَـةِ.

سيوران وسقراط

فـي مـا كان الجَـلّادُ يُعِـدُّ لِسُـقْراطَ السُّـمَّ الـذي حُكِـمَ عَلَيْـهِ بِتَجَرُّعِهِ، كانَ سُـقراطُ، علـى ما يَرْوي سـيوران(*)، يُمَرِّنُ نَفْسَـهُ على عَـزْفِ أحَدِ الألْحان. وإذْ سَـأَلَهُ أحدَهُـمْ عَـنِ الفائِـدَةِ مِـنْ ذلـكَ فيمـا هـو مُقْبِـلٌ على مَـوْتٍ مُحَتَّمٍ أجابَ الفَيْلَسـوف: «لِكَـيْ أتَمَكَّـنَ مِـنْ عَـزْفِ هـذا اللَّحْـنِ قَبْـلَ أنْ أموت...».

أمّـا الحِكْمَـةُ مِنْ هـذا الشـاهِدِ فَـتَكادُ ألّا تَحْتاجَ إلـى بَيـان: مَـعَ اليَقينِ بِأنَّـهُ لَيْسَ لإبْـداعٍ أدبِيٍّ أو فَنِّـيٍّ غايَـةٌ عَمَلِيَّةٌ مُحَدَّدَةٌ، فلا سَـبيلَ لنـا أن نُنْكِرَ أنَّ الفَضْـلَ فـي إبْقـاءِ شُـعْلَةِ الأمَـلِ مُتَّقِدَةً وَسْـطَ

(*) إميل سيوران، (١٩١١ ـ ١٩٩٥)، كاتِبٌ فَرَنْسِيٌّ مِنْ أصولٍ رومانيّة.

هـذا الصَّقيـعِ الـذي يُخَيِّـمُ علـى الوَعْـي العـامِّ والـذي تَــكادُ الحَيـاةُ مَعَـهُ أنْ تتَجَمَّـدَ، إنَّما يَعودُ إلـى مـا يَسْـتَمِرُّ البَعْضُ فـي مُراكَمَتِهِ مِـنْ مَعارِفَ إنْسـانِيَّةٍ لا يُبْغـى مـن وَرائِهـا النَّفْـعُ والرِّبْح.

إنَّ مَجّانِيَّـةَ هـذا الجَهْـدِ، ومـا يُنْسَـبُ إلَيْـهِ مِـنْ نُفـولٍ، هـي مـا يُمْكِـنُ أنْ يَحَوِّلَهُ إلى سِـلاحٍ ماضٍ تَــتَصَدّى بِـهِ البَشَـرِيَّةُ لِوَسْـواسِ الهَمَجيَّـةِ، بَلْ أنْ يُحَوِّلَـهُ إلـى صَومَعَةٍ يُحْفَـظُ فيها ما يُحْكَـمُ عَلَيْهِ، ظُلْمًـا، بالخُمولِ والنِّسـيان.

«لَسْتُ مَوْهوبًا بِمواهِبَ خاصَّةٍ؛
كُلُّ ما في الأمْرِ أنَّني فُضولِيٌّ
إلى أبْعَدِ الحُدود...».

ألبرت آينشتاين

II

الجامِعَةُ بِوَصْفِها مُؤَسَّسَةً تِجارِيَّةً والطّالِبُ بِوَصْفِهِ زَبونًا

فِي انْسِحابِ الدَّوْلَةِ مِنْ قِطاعَيِّ التَّعْليمِ والبَحْثِ العِلْمِيّ

قَبْلَ أنْ أمْضيَ قُدُمًا، وأنْ أقْتَرِحَ على قُرّاءِ بيانِيَ هذا مُطالَعَةَ بَعْضِ النُّصوصِ المَناراتِ ذاتِ الصِّلَةِ بِمَوْضوعِنا، لا أرى لِيَ بُدًّا مِنَ التَّوَقُّفِ وَقَفاتٍ عَجْلى عِنْدَ المُتَرَتِّباتِ الكارِثِيَّةِ لِغَلَبَةِ المَنْطِقِ الرِّبْحِيِّ في قِطاعِ التَّعْليم.

لِوَقْتٍ قَريبٍ خلا انكَبَّتِ الأُسْتاذَةُ الجامِعِيَّةُ القَديرَةُ مارتا نوسباوم(*) على فَحْصِ وُجوهِ هذا التَّراجُعِ المُطَّرِدِ فَتَبَيَّنَ لَها أنَّ التَّعْديلاتِ التي

(*) تُعَدُّ مارتا نوسباوم، (مواليدِ نيويورك، ١٩٤٧)، مِن صُفْوَةِ فلاسِفَةِ جيلِها ومُفَكِّريه. عِلاوَةً على تَدْريسِها الفَلْسَفَةَ السِّياسِيَّةَ والأخْلاقَ والإلَهِيّاتِ في عَدَدٍ مِنْ كُبْرَياتِ الجامِعاتِ الأميركيَّةِ. لنوسباوم عَدَدٌ وافِرٌ مِنَ المُؤَلَّفاتِ يُعَبِّرُ عَنْ تَنَوُّعِ اهْتِماماتِها.

أُدْخِلَـتْ خِـلالَ العَقْـدِ المُنْصَـرِمِ علـى المَناهِـجِ التَّرْبَوِيَّـةِ فـي المُعْظَـمِ مِـنَ الـدُّوَلِ الأوروبِيَّـةِ تَحْـتَ عُنـوانِ إصْلاحِهـا، (مَـعَ اسْـتِثْناءٍ لا يُسْـتَهانُ بِـهِ هو ألمانيـا)، كانَ لهـا، وكانَ للتَّخْفيضاتِ التي رافَقَتْهـا فـي ميزانيّـاتِ التَّعْليـمِ، أسْـوَأُ الأثَـرِ على المُؤَسَّسـاتِ التَّعْليميَّـةِ مِـنْ مَـدارِسَ وجامِعـات؛ (ولَعَلَّ إيطاليا أنْ تَـكونَ النَّموذَجَ الأبْرَزَ على هذا التَّدَهْـور). أمّـا العُنـوانُ الأبْـرَزُ لهـذِهِ الإصْلاحاتِ فـكانَ الانْسِـحابَ الاقْتِصـادِيَّ التَّدْريجـيَّ، وإنَّمـا المُقْلِـقُ، للدَّوْلَـةِ مِـنْ قِطاعَـيِّ التَّعْليـمِ والبَحْـثِ العِلْمي.

فـي مُـوازاةِ هذا المَسـارِ، بَدَأَ مَسـارٌ آخَـرُ قِوامُهُ تَحْويـلُ الجامعـاتِ إلـى مَـدارِس. والحَـقُّ أنَّ هـذا التَّحْويـلَ هـو أشْبَهُ بانْقِلابٍ لـنْ نَخْلـوَ فـي السَّـنَواتِ المُقْبِلَـةِ مِـنْ تَلَمُّـسِ آثـارِهِ سَـواءٌ علـى مُسْـتَوى الـدَّوْرِ الـذي يَضْطَلِـعُ بِـهِ الجِهـازُ التَّعْليمـيُّ أو علـى مُسْـتَوى نوعيَّـةِ التَّعْليـمِ بِحَدِّ ذاتِهـا. فَواقِـعُ الحـالِ أنَّ المُعْظَمَ مِنْ دُوَلِ أوروبّا

تَنْحو إلى خَفْضِ مُسْتَوى اشْتِراطاتِها مِنَ المُلْتَحِقينَ/المُلْتَحِقاتِ بالتَّعْليمِ الجامِعِيِّ بِما يُتيحُ لِهؤلاءِ اجْتيازَ الامْتِحاناتِ بِيُسْرٍ وسُهولَةٍ وذلكَ على الأمَلِ المَوْهومِ بأنَّ يُسْعِفَ هذا الخَفْضُ المُتَعَثِّرينَ مِنْهُمْ والمُتَعَثِّرات.

فَبُغْيَةُ تَخْريجِ هَؤلاءِ الطُّلّابِ ضِمْنَ الآجالِ التي تُحَدِّدُها القَوانينُ، وبُغْيَةَ «تَيْسيرِ» العَمَلِيَّةِ التَّعْليميَّةِ، خُفِّضَ حَجْمُ الجَهْدِ والتَّضْحِيَةِ المَطْلوبَيْنِ مِنْ هَؤلاءِ الطُّلّابِ، واخْتُزِلَتْ بَرامِجُ التَّدْريسِ إلى أقْصى الحُدودِ، وحُوِّلَتِ الدُّروسُ إلى مُبارياتٍ تَفاعُلِيَّةٍ سَخيفَةٍ لُحْمَتُها الخِطابُ البَصَرِيُّ وَسَداها ــ وذلِكَ بالإكْثارِ مِنْ اسْتِعْمالِ الصُّوَرِ ــ وأُزْرِيَ بالامْتِحانِ بأنْ تَحَوَّلَ إلى مُجَرَّدِ اخْتِيارٍ بَيْنَ مَجْموعَةٍ مِنَ الجَواباتِ!

ولكنْ حَبَّذا وَقَفَ الأمْرُ عِنْدَ هذا الحَدِّ! ففي إيطاليا حَيْثُ يَتَّخِذُ التَّعَثُّرُ بَيْنَ الطُّلّابِ الجامِعِيِّينَ أبْعادًا مُقْلِقَةً، تُكافَأُ الجامِعاتُ التي تَنْجَحُ في تَخْريجِ طُلّابِها ضِمْنَ الآجالِ

المَنْصوصِ عَلَيْها بِمِنَحٍ مالِيَّةٍ، أمّا تِلْكَ التي تُخْفِقُ في ذلك فتُعاقَبُ وَتُغَرَّم.

فعلى افْتِراضِ أنَّ ألْفَ طالِبٍ وطالِبَةٍ تَسَجَّلوا سَنَةَ كذا في الجامِعَةِ الفُلانيَّةِ، لا بُدَّ، في غُضونِ ثَلاثِ سَنَواتٍ، أنْ يُخَرَّجَ هؤلاءِ الطُّلّابُ والطّالِبات. ولا عَيْبَ في هذا المَطْمَحِ لَوْ أنَّ المُشَرِّعينَ وَضَعوا نَصْبَ أعْيُنِهِم جَوْدَةَ التَّعْليمِ الذي يُرادُ أنْ يُزَوَّدَ بِهِ هَؤلاءِ الطُّلّابُ والطّالباتُ لا كَمِّيَّتَهُ فَحَسْب. ولكنْ، وبِما أنَّ أحْدًا لا يَمْلِكُ أنْ يُؤَكِّدَ جَوْدَةَ التَّعْليمِ هذا، وأنْ يَكيلَ المَهاراتِ الحَقيقيَّةَ التي يَكْتَسِبُها هؤلاءِ الطَّلَبَةُ والطّالباتُ، لا مَفَرَّ مِنَ التَّسْليمِ بأنَّ هذِهِ الآلِيَّةَ لَيْسَتْ سِوى حيلَةٍ لِتَحْفيزِ المُؤَسَّساتِ الجامِعِيَّةِ النّاشِدَةِ دَوْمًا مَزيدًا مِنَ التَّمْويلِ، ولا سِيَّما أنَّ خَفْضَ الميزانيّاتِ يُؤَدّي، حُكْمًا، إلى اشْتِدادِ المُنافَسَةِ بَيْنَ المُؤَسَّساتِ الجامِعِيَّةِ على المَوارِدِ المالِيَّةِ التي تُخَصِّصُها الدُّوَلُ لهذا القِطاع. كذلكَ يَنْتَهي الأمْرُ بأنْ تَنْقَلِبَ هذِهِ

المُؤَسَّساتُ إلى مَزارِعَ لِتَخْريجِ الجامِعِيِّين لا أكْثَرَ ولا أقَلّ!

الطالِبُ بِوَصْفِهِ زَبونًا

في مُحاضَرَةٍ مَدارُها على انْحِطاطِ المُؤَسَّسَةِ الجامِعِيَّةِ بَيَّنَ سيمون ليس(*) أنَّ بَعْضَ طُلّابِ كُلِّيّاتِ الجامِعاتِ في كندا باتوا يُعامَلونَ مُعامَلَةَ الزَّبائِنِ بالمَعْنى الحَرْفِيِّ للكَلِمَة.

ولا يُظَنَّنَّ أنَّ في هذا التَّشْخيصِ مُبالَغَة. فَمَنْ يُطالِعْ بَعْضَ التَّحْقيقاتِ التي وُضِعَتْ عن جامِعَةِ هارڤرد، وهيَ ما هيَ بَيْنَ مُؤَسَّساتِ التَّعْليمِ الجامِعِيِّ في العالَمِ، لا يَمْلِكُ إلّا التَّسْليمَ بِصِدْقِ هذا التَّشْخيصِ وواقِعِيَّتِه.

عَلَيك مَثَلًا بِما يَقولُهُ إيمانويل جافلان(**) في

(*) سيمون ليس، (١٩٣٥ ـ ٢٠١٤)، واسْمُهُ الحَقيقِيُّ پيار ريكمانز، كاتِبٌ وناقِدٌ أدبي ومُتَرْجِمٌ، وعالِمُ صينيّات وأسْتاذٌ جامِعِيٌّ بلجيكيٌّ أستراليّ.

(**) إيمانويل جافلان: مُفَكِّرٌ وكاتِبٌ فَرَنْسِيٌّ مِنْ مَواليدِ ١٩٦٣. في سيرَتِهِ أيْضًا سَنواتٌ مِنَ الخِدْمَةِ في السِّلْكِ الدّيبلوماسيِّ قادَتْهُ إلى أنْغولا والبرازيل.

العَلاقَـةِ الزَّبائِنِيَّـةِ بَيْـنَ طُـلّابِ هـذِهِ الجامِعَـةِ العَريقَـةِ وأساتِذَتِها فـي مَقالَـةٍ نَشَـرَتْها **لـو موند** الفَرَنْسِـيَّةُ فـي ٢٨ أيـار (مايـو) ٢٠١٢:

> «بِمـا أنَّ الطالِـبَ المُلْتَحِـقَ بهارفـرد يَدْفَـعُ الأَثْمـانَ الباهِظَـةَ لِقـاءَ الْتِحاقِـهِ بهـذِهِ المُؤَسَّسَـةِ، فهـو لا يَتَوَقَّـعُ مِـنْ أساتِذَتِهِ التَّمَكُّـنَ التَّعْليمِـيَّ والكَفـاءَةَ التَّعْليميَّـةَ فَحَسْـبُ، وإنَّمـا الطّاعَـةُ أيْضًـا... ألَيْـسَ أنَّ الزَّبـونَ دائِمًـا علـى حَـقٍّ؟».

أمّـا تَفْسـيرُ ذلـك تَفْسـيرًا اقْتِصاديًّا فَبَسـيطٌ للغايَة: يَبْلُـغُ حَجْـمُ المَبالِـغِ التـي يَسْـتَدينُها الطُـلّابُ الأميركيّـونَ لِتَسْـديدِ نَفَقـاتِ دِراسَـتِهِم الجامِعِيَّـةِ حوالـى أَلْـفِ مِليـارِ دولار. مِـنْ ثَـمَّ فـإنَّ هَـؤلاءِ الطُـلّابَ يَلْتَحِقـونَ بالجامِعاتِ وَهُـمْ أقَلُّ سَـعْيًا إلى المَعْرِفَـةِ مِنْهُـم إلـى تَحْصيـلِ الفوائِـدِ الماليَّةِ التي يُمْكِـنُ أن يَعـودَ بهـا عَلَيْهِـم مـا اسْـتَثْمَروهُ خِـلالَ الْتِحاقِهِـم بالجامِعَـة.

إنَّ ما تَدُرُّهُ رُسـومُ التَّسْـجيلِ على خَزائِنِ الجامِعاتِ يُمَثِّلُ كُـتْلَةً لا يُسْـتَهانُ بِها مِنْ ميزانيَّـةِ كُلِّ جامِعَةٍ

وهـذِهِ المُلاحَظَـةُ تَصْـدُقُ على الجامِعـاتِ الخاصَّةِ كمـا علـى الجامِعـاتِ الحُكوميَّـة. هـذا عِلْمًـا أنَّ الجامِعـاتِ لَيْسَـتْ فـي الخِيَـرَةِ مِـنْ أمْرِهـا فـي ضَـرورةِ السَّـعْي إلـى اجْتِـذابِ الطُـلّابِ والطّالباتِ بِشَـتّى السُّـبُلِ والوَسـائِلِ المُمْكِنَـةِ تَمامًـا شَـأْنَ الحَمَـلاتِ الدِّعائِيَّـةِ التـي يُـرادُ مِنْهـا التَّرْويـجُ لأيِّ مُنْتَـجٍ اسْـتِهلاكِيّ. وهكـذا يَنْتَهي الأمْـرُ بالجامِعاتِ إلـى مُؤَسَّـساتٍ تُدَلِّـلُ علـى شَـهاداتِها مُرَكِّـزَةً فـي تَدْليلِهـا هـذا، بِشَـكْلٍ خـاصٍّ، علـى أنَّهـا تُوَفِّـرُ لِزَبائِنِهـا مِـنَ الطُـلّابِ بَضائِـعَ عِلْمِيَّـةً واخْتِصاصاتٍ يَسْـهُلُ تَسْـييلُها فـي سـوقِ العَمَـلِ، وأنَّ العائِدَ مِنْ وَرائِهـا مَضْمـونٌ أو شِـبْهُ مَضْمـونٍ بأقْصـى سُـرْعَةٍ مُمْكِنَة .

الجامِعاتُ كَمَشاريعَ تِجارِيَّةٍ والأساتِذَةُ كَمُوَظَّفين إداريِّين

بِنـاءً علـى مـا تَقَـدَّمَ لا مُبالَغَـةَ قَـطُّ فـي القَـوْلِ بأنَّ المَـدارِسَ والجامِعـاتِ تَحَوَّلَـتْ شَـيْئًا فَشَـيْئًا إلـى

مَشـاريعَ تِجارِيَّـة. ولا مـا يُـقــالُ فـي ذلـكَ لـولا ما يُـؤَدّي إلَيْهِ هـذا التَّحَوُّلُ مِـنْ تَبْذيرٍ فـي الميزانيّاتِ العامَّـةِ ومِـنْ شَـطَطٍ فـي إدارَةِ هـذِهِ الميزانيّـات. ضِـفْ إلى مـا تَقَـدَّمَ أنَّ تحَـوُّلَ الجامِعـاتِ إلـى مَشـاريعَ تِجارِيَّـةٍ يُـؤَدّي اسْـتِطرادًا إلـى تَحَـوُّلٍ فـي وَظيفَـةِ مُـدَراءِ الجامِعـاتِ وعُمَدائهـا.

فالمُديـرُ، أوِ العَميـدُ، فـي مُؤَسَّسَـةٍ جامِعِيَّـةٍ هَمُّهـا التِّجـارَةُ، إنَّمـا يُوْصَفُ بالنّاجِحِ بِمِقْدارِ ما يَتَيَسَّـرُ لَهُ أنْ يَضُخَّ مُتَخَرِّجينَ جُدُدًا في شَـرايينِ سـوقِ العَمَلِ لا أكْـثَرَ ولا أقـلّ. وهكـذا يَتَخَلّـى هَـؤلاءِ الأساتِذَةُ والنُّظّـارُ عَـنْ وَظيفَتِهِـم التَّرْبويَّـةِ وَيَتَقَمَّصـونَ قَميـصَ رِجالِ أعْمـالٍ هَمُّهُمُ الحِرْصُ علـى ميزانِيّاتِ المُؤَسَّساتِ/المَشـاريعِ التِّجارِيَّـةِ التـي يُديرونَهـا.

وإذْ يَتَحَـوَّلُ المُديـرُ إلـى رَجُـلِ أعْمـالٍ فـلا عَجَـبَ بـأنْ يَتَحَـوَّلَ الأساتِذَةُ إلـى بيروقراطيِّيـنَ مُطيعيـنَ فـي خِدْمَـةِ رَبِّ عَمَلِهِم. وَعِـوَضَ أنْ يَنْصَـرِفَ الواحِـدُ مِنْهُـم إلـى ما يُنْتَظَـرُ مِنْ أسْـتاذٍ جامعِيٍّ أنْ يَنْصَـرِفَ إلَيْـهِ، تَراهُم يَقْضونَ السّـاعاتِ الطِّوالَ في

ضَبْطِ المَلَفّاتِ الإداريَّةِ، وفي تَدْقيقِ الحِساباتِ، وفي وَضْعِ تَقاريرَ تُوَظَّفُ لاحِقًا في إحْصائِيّاتٍ مَشْكوكٍ بالجَدْوى مِنْها، وفي مُراجَعَةِ ميزانيّاتٍ تَتَقَلَّصُ مِنْ فَصْلٍ إلى آخَرَ، وفي مَلْءِ اسْتِماراتٍ لَمْ يُنْزَلْ بِها مِنْ سُلْطانٍ، وفي كِتابَةِ مَشاريعَ يُؤَمَّلُ أنْ تأتِيَ بِمِنَحٍ وإعاناتٍ، وفي تَأَوُّلِ تَعاميمَ وِزارِيَّةٍ غامِضَةٍ ومُتَناقِضَةٍ.

يَنْصَرِفُ الأساتِذَةُ إلى كُلِّ هذِهِ المَهامِ، أمّا ما يَبْقى مِنْ وَقْتٍ، إنْ بَقِيَ، فَيَقْضونَهُ بَيْنَ الاجْتِماعاتِ المُتلاحِقَةِ، (اجْتِماعاتِ مَجْلِسِ الإدارَةِ، مَجْلِسِ الكُلِّيَّةِ، مَجْلِسِ القِسْمِ)، فَتَمْضي السَّنَةُ الجامِعِيَّةُ ولا يَبْقى إلّا انْتِظارُ السَّنِةِ التّالِيَةِ!

نَعَم، آخِرُ هَمٍّ الجامِعاتِ عِنْدَما تَتَحَوَّلُ إلى مَشاريعَ تِجارِيَّةٍ جَوْدَةُ التَّعْليمِ والبَحْثُ العِلْمِيّ. وإنَّما تَأْخُذُ هذِهِ المُلاحَظَةُ مَداها، وتَتَبَيَّنُ فَداحَتُها، متى ما ذَكَّرَ الواحِدُ مِنّا نَفْسَهُ أنَّ الأُسْتاذَ الجامِعِيَّ هو، تَعْريفًا، طالِبُ عِلْمٍ بلا كَلالَةٍ ولا انْقِطاعٍ، وأنَّ الأُسْتاذَ هذا، متى ما تَعَذَّرَ عَلَيْهِ أنْ

يُعِدَّ دَرْسَهُ بالشَّكْلِ المُناسِبِ لا يُؤَدّي المُتَوَقَّعَ مِنْه كما يَنْبغي أنْ يكون. مِنْ هُنا، فإنَّ ما هو حاصِلٌ مِنْ طَلاقٍ بَيْنَ التَّدْريسِ وبَيْنَ البَحْثِ العِلْمِيِّ يَحْكُمُ على حِصَصِ التَّدْريسِ بأنْ تَتناسَخَ في تَكرارٍ سَطْحِيٍّ لا يُفيدُ ولا يُسْتَفادُ مِنْه.

خُلاصَةُ القَوْلِ إنَّهُ مِنَ المُسْتَحيلِ أنْ تُدَبَّرَ المَدارِسُ والجامِعاتُ، وأن تُدارَ، كَما المَشاريعُ التِّجارِيَّةُ الرِّبْحِيَّة!

على الضِّدِّ مِمّا تُبَشِّرُ بِهِ قَوانينُ السّوقِ فإنَّ جَوْهَرَ الثَّقافَةِ هو «المَجّانيَّة». هذا ما يُذَكِّرُنا بِهِ النَّظَرُ في التّاريخِ العَريقِ للجامِعاتِ والمُؤَسَّساتِ العِلْمِيَّةِ الأوروبيَّةِ مِنْ مِثْلِ الكوليج دو فرانس(*).

إنَّ وَظيفَةَ هذِهِ المُؤَسَّساتِ على ما يُبَصِّرُنا

(*) الكوليج دو فرانس: مَعْهَدٌ فَرَنسِيٌّ كانَ إنْشاؤُهُ عامَ ١٥٣٠ على يَدِ المَلِكِ فرانسوا الأوّل (١٤٩٤ ـ ١٥٤٧) يُعْنى بالبَحْثِ العِلْمِيِّ والتَّعْليم العالي. شِعارُ هذا المَعْهَدِ «نُعَلِّمُ كُلَّ شَيْء»، والتَّعْليمُ فيهِ تَشْريفٌ للمُبَرِّزينَ مِنَ العُلَماءِ، أمّا حُضورُ الدُّروسِ فَمُتاحٌ، إلا اسْتِثْناءً، بالمَجّانِ، للجَميع.

النَّظَـرُ في ذلـكَ التّاريخِ هـي اكْـتِسابُ المَعارِفِ وتَطْويرُهـا فـي مَنْـأى وفـي مَعْـزِلٍ مِـنْ أيِّ إمْلاءٍ نَفْعِـيٍّ أوْ عَمَلِـيّ. فَبِفَضْـلِ هـذا النَّمَـطِ مِـنَ الاكْـتِسابِ، يَـزْدادُ واحِدُنـا نُضْجًـا وَقُـدْرَةً علـى تَمْييـزِ الأُمـورِ واسْـتِطرادًا علـى الاسْـتِقلالِ بِرَأْيِـهِ فيهـا. وكما يُسْـتَفادُ مِـنَ النَّظَـرِ في ذَلِـكَ التّاريخِ أيْضًـا وأيْضًـا، فـإنَّ مِـراسَ النّافِـلِ والمَجّانِـيِّ وكُلِّ مـا يَتَعَـذَّرُ قِياسُـهُ بالمَقاييـسِ السّـائِرَةِ لا يَلْبَـثُ أنْ يُؤْتِـيَ، علـى المـدى الطَّويـلِ، مـا لا يُتَوَقَّعُ مِنْ ثِمـارٍ ومِـنْ مَرابِـح.

بِطبيعَـةِ الحـالِ، لَيْـسَ القَصْـدُ مِمّا تَقَـدَّمَ الازْدِراءُ بالتَّدْريـبِ المِهَنِـيِّ بِوَصْفِـهِ أحَدَ أهْـدافِ التَّعْليمِ والدِّراسَـةِ الجامِعِيَّـة. لَيْـسَ كذلـكَ بَـلِ الضِّدُّ مِنْـه: مَـنْ ذا يَجْـرؤُ علـى القَـوْلِ مَثَـلًا بـأنَّ غايَـةَ التَّعْليـمِ القُصْـوى والوَحيـدَةَ هـي إعْـدادُ أطِبّـاءَ مَهَـرَةٍ ومُهَنْدسـينَ حاذِقيـنَ ومُحاميـنَ مُفَوَّهين؟ إنَّ تَوْجيـهَ التَّعْليـمِ هـذا المُوَجَّـهَ المِهَنِيَّ يُسْـقِطُ عَنْـهُ، عَـنِ التَّعْليـمِ، بُعْـدَهُ الكُلِّـيَّ الإنْسـانيّ. فمـا

مِـنْ مِهْنَـةٍ يُمْكِـنُ المَـرْءُ أنْ يَمْتَهِنَهـا لا تَقْتَضـي مِـنْ مُمْتَهِنِهـا، لِيُحْسِـنَ القِيـامَ بِهـا علـى الوَجْـهِ الأكْمَـل، ألّا يُخْضِـعَ مَهاراتِـهِ الفَنِّيَّـةَ فيهـا، لِدَفْتَرِ شُـروطٍ أخْلاقِـيٍّ ثَقافِـيٍّ يَتَجـاوَزُ حُـدودَ هـذا الاخْتِصـاصِ أو ذاكَ. إنَّ إنْـزالَ دَفْتَـرِ الشُّـروطِ هـذا مَنْزِلَـةَ الضَـوْءِ مِـنَ المَهـاراتِ العِلْمِيَّـةِ هـو مـا يُمكِـنُ أنْ يُحَفِّـزَ الطُّلّابَ علـى تَوْسـيعِ مَدارِكِهِـم بِحُرِّيَّـةٍ، وعلـى إطْـلاقِ العِنـانِ لِداعِيَةِ الفُضـولِ لَدَيْهِـم.

بَـلْ لَنـا أنْ نَذْهَـبَ إلى أبْعَدَ مِمّـا تَقَدَّم: إنَّ البُعْدَ التَّرْبَـوِيَّ المُنْقَطِـعَ كُلَّ الانْقِطـاعِ عَـنِ المَـآرِبِ النَّفْعِيَّـةِ هـوَ الشَّـرْطُ المَشْـروطُ، الآنَ، وفـي المُسْـتَقْبَلِ، لِكَـيْ يَعْمُـرَ المُجْتَمَـعُ بِمُواطنيـنَ يَأْنَسـونَ مِـنْ أنْفُسِـهِم المَسـؤوليَّةَ بِصِفَتِهِـم هـذِهِ، وبِصِفَتِهِـم هـذِهِ يَطَّرِحـونَ عِنْـدَ الضَّـرورَةِ أنانِيّاتِهِـم مُقَدِّميـنَ عَلَيْهـا المَصْلَحَـةَ العامَّـةَ ومُوجِـبَ التَّضامُـنِ الاجْتِماعِـيِّ والإنْسـانيِّ، رافعيـنَ شِـعارَ التَّسـامُحِ ومُسْتَمْسـكينَ بالحُرِّيَّـةِ

وَبِضَـرورةِ المُحافَظَـةِ على الطَّبيعَـةِ والدِّفاعِ عَنِ العَدالَـة.

توكڤيل: عن الجَمالاتِ المَيْسورَةِ ومَخاطِرِ ديمقراطيّات السّوقِ

نَديـنُ لِتوكـڤيل(*)، فـي ما نَديـنُ لَـهُ، فـي مُؤَلَّفِـهِ الشَّـهيرِ **الدّيمقراطيَّـة فـي أميـركا**، بِصَفَحـاتٍ مُنيـرَةٍ عَـنِ المَخاطِـرِ التـي تُحْـدِق بـ«الدّيمُقراطِيّـاتِ التِّجارِيَّـةِ»، (أو «ديمقراطيّـات السّـوقِ»)، مِنْ قَبيـلِ الولاياتِ المُتَّحِـدَةِ الأميركيَّة.

يَعْـرِضُ توكــڤيل فــي هــذِهِ الصَّفَحـاتِ لِحَيــاةِ الأميركيِّيــنَ الاجْتِماعيَّــةِ والسِّياسِـيَّةِ راصِـدًا مــا يَحــوطُ بِمُجْتَمَــعٍ دأبُــهُ السَّــعْيُ إلــى الرِّبْــحِ مِــنْ مَخاطِــر. يَــقول:

«لـدى الكَـثيرينَ مِنْهُم نُـزوعٌ أنانـيٌّ، تُحَرِّكُـهُ روحُ الإتْجـارِ والصِّناعَـةِ، إلى مُكْـتَشَفاتِ العَقْلِ البَشَـرِيِّ؛

(*) ألكسـيس دو توكـڤيل، (١٨٠٥ ـ ١٨٥٩)، مُؤَرِّخٌ فَرَنْسِـيٌّ مِـنْ رُوّادِ المُقارَبَـةِ التّاريخِيَّـةِ لِعِلْـمِ السِّياسَـة.

علـى أنَّـهُ لا بُـدَّ مِـنَ الحِـرْصِ علـى التَّمْييـزِ بَيْـنَ هـذا النُّـزوعِ وبَيْـنَ الهـوى المُنَـزَّهِ الـذي تَـرى مِـنْ خِلالِـهِ قِلَّـةٌ قَليلـةٌ هـذِهِ المُكْـتَشَفات. نَحْـنُ، إذًا، بَيْـنَ اثْنَيْـن: شَـغَفٌ بِتَوْظيـفِ المَعـارِفِ، وتَوْقٌ إلى المَعـارِفِ آخِـرُ هَمِّـهِ مـا يُمكِـنُ أنْ تُوَظَّـفَ هـذِهِ المَعـارِفُ فـي سَـبيلِه».

ويُضيفُ توكـڤيل:

«إنَّ المَيْـلَ إلـى المُفيـدِ والمُجْدي غالِـبٌ على حُبِّ الجَمـالِ بِسَـبَبٍ مِـنَ السَّـعْي الحَثيـثِ الذي يَسـعاهُ كُلُّ أحَـدٍ لِتَحْصيـلِ المَزيـدِ مِـنَ الرَّفاهِيَـة. وفـي مُجْتَمَـعٍ نَفْعِـيٍّ مِنْ مِثْلِ هـذا المُجْتَمَـعِ يَنْتَهي الأمْرُ بـأنْ يَغْلِـبَ علـى النّـاسِ حُـبُّ الجَمـالاتِ المَيْسـورَةِ المُتَنـاوَلِ التـي لا تَقْتَضـي حِيازَتُهـا كَبيـرَ جَهْـدٍ أو كَـثيرَ وَقْـت... إنَّهُم يُحِبّـونَ الكُتُبَ السَّـهْلَةَ الاقْتِناء، اليَسـيرَةَ علـى القِـراءَةِ التي لا يَتَطَلَّـبُ الوقوفُ على مَعانيهـا تَبَحُّـرًا في البَحْثِ أو اسْـتِغْراقًا فـي التَّأمُّل... ولا عَجَـبَ مِمَّـنْ يَذْهَـبُ في التَّفْكيرِ هـذا المَذْهَـبَ أن يَتَـراءَى لَـهُ أنَّ أعْظَـمَ فُتوحـاتِ الـذَّكاءِ البَشَـرِيِّ هـي تِلْـكَ الفُتوحـاتُ التـي تُقَصِّـرُ طَريـقَ الوصـولِ إلـى الثَّـرْوَةِ، وتِلْـكَ الآلاتُ التـي تَخْتَصِـرُ سـاعاتِ العَمَـلِ، وتِلْـكَ الأدَواتُ التـي تُخَفِّـضُ نَفَقـاتِ الإنْتاجِ، وتِلْـكَ المُكْـتَشفاتُ التـي تُدْنـي المُتَـعَ وتُكَثِّرُها.

تَحْتَ هـذِهِ العَناويـنِ يَتَّصِلُ ما بَيْنَ الشُّعوبِ الدِّيمقراطيَّـةِ وبَيْـنَ العُلومِ وتَحْتَ هـذِهِ العَناوينِ يَكـونُ فَهْمُهـا لهـا وتَوْفيرُهـا إيّاها.

مِنْ هذا التَّشْخيصِ يَنْتهي توكـقيل إلى ما يَعْتَبِرهُ خُلاصَةً مَنْطِقيَّةً:

«فـي مُجْتَمَـعٍ يَخْضَـعُ لهـذا النَّمَـطِ مِـنَ التَّنْظيـمِ، لا غَـرْوَ أن يُهْمِـلَ النّـاسُ الجانِـبَ النَّظَـرِيَّ مِـنْ عَمَـلِ العَقْـلِ... [وهَكَـذا،] ففـي الوِلاياتِ المُتَّحِـدَةِ لا تكادُ أنْ تَجِـدَ مَـنْ يقِـفُ نَفْسَـهُ علـى النَّظَـرِيِّ المُجَـرَّدِ مِـنَ المعـارِفِ الإِنْسـانِيَّة... ولَعَـلَّ هذا الإعْـراضَ عَنِ النَّظَـرِيِّ والمُجَـرَّدِ أنْ يَفْشـوَ علـى مـا أظُـنُّ، وإنْ بِدَرَجـاتٍ أقَـلَّ، بَيْـنَ سـائِرِ الأُمَـمِ الدِّيمقراطيَّـة».

وإذ يُلاحِـظُ توكـقيلُ هـذِهِ المُلاحَظَـةَ، لا يَفوتُـهُ أنْ يُحَـذِّرَ مِمّـا قَـدْ يُـؤَدّي إلَيْـهِ الاحْتِفـاءُ بالنّافِـعِ المُجْـدي والحَـطُّ مِنَ الجَهْـدِ الذِّهْنِيِّ المُجَـرَّدِ مِنْ سُـقوطٍ فـي هاوِيـاتِ الهَمَجِيَّـة:

«وَمِـنَ الشُّـعوبِ مَـنْ يَـدَعِ الأنْـوارَ التـي يَسْـتَنيرُ بِهـا تُنْتَـزَعُ مِنْـهُ، ومِـنَ الشُّـعوبِ مِـنْ يُطفِـئُ هذِهِ الأنْـوارَ بِيَدَيْـه».

بالطَّبْعِ، لَيْسَ توكـفيل مِـنَ السَّـذاجَةِ بِحَيْـثُ يُعَوِّلُ علـى مُجَرَّدِ الآدابِ والفُنونِ للحَيْلولَـةِ دونَ أنْ يَتَصَحَّرَ الفِكْرُ ولكِـنَّهُ علـى قَناعَـةٍ بـأنَّ المَعـارِفَ المَجّانِيَّـةَ والمُنَزَّهَـةَ عَـنِ المَآرِبِ العَمَلِيَّـةِ «تُيَسِّـرُ لأُولَئِـكَ الذيـنَ يَكْـتَسِبونَها أنْ لا تَرْجَحَ مِنْهُـمْ كِفَّـةُ العُيـوبِ التـي قَـدْ تُعيبُهُـم وذلـكَ بـأنَّ هذِهِ المَعارِفَ تُثَقِّـلُ الكِفَّةَ الأُخرى».

هرتسن: لا وَقْتَ لدى التُّجّار

رَغْمَ أنَّ الكاتِـبَ الرّوسِـيَّ ألكسـندر هرتسـن(*) لا يَكُـنُّ كَبيـرَ إعْجـابٍ لتوكـفيل فهو يرى، شَـأْنَ هذا الأخيـر، بِتَوَجُّـسٍ، إلى فِئَـةِ التُّجّارِ مِنْ أبْنـاءِ عَصْرِهِ حَيْـثُ إنَّهُـم مُسْـتَغْرِقونَ فـي التِّجـارَةِ ولا شَـيْءَ سِـوى التِّجـارَةِ ومُتَعَلِّقاتِهـا («السِّـلَعُ، المُبـادَلاتُ والمُعامـلاتُ وكُلُّ مـا يَقَـعُ تَحْـتَ حَـدِّ المِلْـكِ والحِيـازَةِ»).

(*) ألكسـندر هيرتسـن، (١٨١٢ ـ ١٨٧٠)، كاتِـبٌ ومُفَكِّرٌ روسِـيٌّ مِـنْ آباءِ الفِكْرِ الاشْتِراكي.

بِبَراعَـةٍ يَصِـفُ هرتسـن فـي كتابـه **الماضـي والتَّأمُّلات** دُسـتورَ هَـؤلاءِ التُّجّـارِ فـي الحَياةِ وفي السُّـلوك:

«أَثْـرِ، ضاعِـفْ مَداخيلَكَ لِتَصيرَ كَـثيرةً كَـثْرَةَ حَبّاتِ الرَّمْـلِ علـى الشّـاطئِ، أَفِدْ بِـلا قَيْدٍ أو شَـرْطٍ أو رادِعٍ مِـنْ ثَرْوَتِـكَ ومِـنْ جاهِـكَ، ولكـنْ حَـذارِ أنْ تُلْحِـقَ بِنَفْسِـكَ الضُّـرَّ؛ عِـشْ هكـذا مُتَنَعِّمًـا بالمـالِ والجـاهِ فَـتَـتَقَدَّمَ بِـكَ السِّـنُّ الهُوَيْنـا وتُزَوِّجَ أبنـاءَكَ وتُخَلِّفَ مِـنْ بَعْـدِكَ أطْيَـبَ الذِّكرى».

مَـنْ لا هَـمَّ لَهُ سِـوى أنْ يَبيعَ بِضاعَتَهُ مُدلِّـلًا عَلَيْها بأنَّهـا الأفْضَـلُ، وأنْ يَشْـتري بَضائِـعَ الآخَريـن، بَعْدَ التَّبْخيـسِ فيهـا، بِأقَـلَّ مِـنْ ثَمَنِهـا العـادِلِ، يَنْتَهـي الأمْـرُ بِـهِ إلـى أنْ يُصَوِّرَ الأسْـقَطَ مِنْ سَـقَطِ المَتاعِ علـى أنَّـهُ نـادِرٌ عَزيـزٌ، وأنْ يَجْعَـلَ مِـنْ رِعايَـةِ المظاهِـرِ هَمَّـهُ الوَحيـدَ الأوْحَـدَ لا مُباليًا بِما قَـدْ يُواريـهِ هـذا المَظْهَـرُ مِـنْ سَـوْآتٍ وعَـورات. وفـي وَسَـطٍ اجْتِماعِـيٍّ يُعْلـي مِـنْ شَـأْنِ المَظْهَـرِ علـى حِسـابِ «الكَرامَـةِ الباطِنَـةِ» لا مـا يُدْهِـشُ أنْ تَـتَسَمّى الجَهالَـةُ الجَهْلاءُ ثَقافَـةً، وأن تُحْمَلَ على

هـذا المَحْمَلِ. وبِما أنَّهُ لا شَـأْنَ يُذْكَـرُ، في مُجْتَمَعٍ بورجـوازي، إلّا لِما لَـهُ مَحَـلٌّ واضِـحٌ مِـنَ التَّرْكيبَـةِ الاجْتِماعِيَّـةِ، ومِـنْ نِظـامِ الاسْـتِغلالِ الاجْتماعـيِّ القائِـم، فَلَيْـسِ لِلْعِلْـمِ والتَّعْليمِ في وَسَـطٍ مِنْ هذا القَبيـلِ مَحَـلٌّ فـي الصَّـدارَةِ أوْ شَـأْنٌ رَفيـع، وحَيْثُ الحَياةُ سِـباقٌ لاهِثٌ وَراءَ المالِ والثَّرْوَة، فالإنْسـانُ رَهيـنُ مـا بِحَوْزَتِـهِ مِـنْ ثَـرْوَةٍ ومـا يَمْلِك:

«[في وَسَـطٍ مِـنْ هذا القَبيـلِ]، إنَّما الحَياةُ لا شَـيْءَ سِـوى مُضارَبَةٍ في سـوقِ المَـزاد... كُلُّ مَرافِقِ الحَياةِ حَوانيـتُ ودَكاكيـنُ صَيْرَفَـةٍ: إداراتُ تَحْريـرِ الجَرائِدِ، أقْلامُ الاقْتِراعِ، المجالِـسُ التَّمْثيلِيَّـة... وعَلَيْه قِسْ...».

جون هنري نيومان:
لا لِجامِعاتٍ هَمُّها الأوْحَدُ تَخريجُ ذَوي المِهَن

فـي عَـدَدٍ مِـنَ المَقـالاتِ ومِـنَ المُطالَعـاتِ التـي خَـصَّ بِهـا جـون هنـري نيومـان(*) الجامِعَـةَ، كَرَّسَ

(*) جـون هنـري نيومان، (١٨٠١ ـ ١٨٩٠)، شـاعِرٌ ولاهوتيٌّ بريطانيٌّ سِـجاليٌّ بَدَأَ حياتَـهُ كاهِنًـا أنغليكانيًا وخَتَمَها كردينـالًا كاثوليكيًا.

هذا الشّـاعِرُ واللّاهوتيُّ البريطانـيُّ قَلَمَهُ للمُرافَعَةِ عَـنِ القيمَـةِ الكُلِّيَّـةِ للتَّرْبِيَـةِ والتَّعْليـم. فَفِكْـرَةُ الجامِعَـةِ، علـى رَأْيِ نيومـان، هـي بالضِّـدِّ مِمّـا يُحـاوِلُ البَعْـضُ التَّرْويـجَ لَـهُ مِـنْ أنَّ غايَـةَ التَّعْليمِ الجامِعِـيِّ هـي المَنْفَعَـةُ العَمَلِيَّـةُ:

«يَذْهَـبُ بَعْضُهُـم، ولَيْـسَ مِمَّـنْ يُسْـتَهانُ بِهِـم، إلـى أنَّ التَّرْبِيَـةَ والتَّعْليـمَ يَنْبغـي أنْ يُقْتَصَـرا على غاياتٍ مُعَيَّنَـةٍ ومُحَـدَّدَةٍ وأنْ يُؤَدِّيـا إلـى نَتائجَ بِعَيْنِهـا قابِلَةٍ للكَيْـلِ والقِيـاس. وَإنَّما يَتَأَسَّـسُ هـذا المَذْهَبُ على أنَّ لِـكُلِّ مـا فـي الوجودِ مِنْ بَشَـرٍ أو مِنْ أشْـياءَ ثَمَنًا. ويَسْـتَتْبِعُ هـذِهِ النَّظْـرَةَ إلـى الوجـودِ ومـا فيـهِ، أنَّ كُلَّ نَفَقَـةٍ تَسْـتَدْعي عِوَضًـا يُعَوِّضُهـا. هَـذِهِ المُعادَلَةُ هـي مـا يَهْتدي بِـهِ الدّاعونَ إلـى أنْ تَــكونَ التَّرْبِيَةُ، وأنْ يَكـونَ التَّعْليـمُ، مُوَجَّهَيْـنِ وُجْهَةً نَفْعِيَّـةً مُفيدة. هكـذا، بِنـاءً على هـذِهِ المُعادَلَـةِ، رَفَعَ هَـؤلاءِ الذين أقْصِـدُ الفائِـدَةَ والإفادَةَ والمُفيـدَ إلى مَرْتَبَةِ الشِّـعارِ والبَوْصِلَـةِ. وبِمـا أنَّ طَلَـبَ المُفيـدِ دينُهُـم ودَيْدَنُهُم فَهُـمُ لا يَتَـرَدَّدونَ عـن رَفْـعِ عَقائِرِهِم بالسُّـؤالِ، مَثَلًا: "بِلِحـاظِ الأكْلافِ، مـا هـي الجَـدْوى الاقْتِصادِيَّـةُ مِنَ الجامِعَـةِ؟ ومـا هـي القيمَـةُ التِّجارِيَّـةُ لِهَذِهِ السِّـلْعَةِ المُسـمّاةِ عُلومٌ إنسـانيَّة؟"».

لا مَعنـى، علـى الإطْلاقِ، في عُرْفِ نيومـان، لِزَعْمِ الزّاعميـنَ بأنّـهُ لا جَـدْوى مِـنْ طَلَـبِ أيّ شَـيْءٍ مـا لَـمْ تُثْبَـتْ فائِدتُـهُ (العَمَلِيَّـةُ أو التِّجارِيَّـةُ)، ولا مَعْنـى، علـى الإطْلاقِ، لِزَعْـمِ الزّاعميـنَ بـأنَّ «العُمْـرَ قَصيـرٌ ولا وَقْـتَ لأنْ يُنْفِـقَ المَـرْءُ وَقْتَـهُ فـي تُرَّهـاتٍ لا طائِـلَ مِنها سِـوى مـا تُبْرِقُـهُ تَحْتَ الأنْظـارِ مِـنْ بُـروقٍ خُلَّبِيَّة». كذلـكَ لا مَعْنى على الإطْلاقِ للاسْـتِنْتاجِ الـذي مُفـادهُ أنْ لا فائِـدَةَ تُرَجّـى مِـنْ تَعْليـمٍ لا يَسيرُ بالمُتَعَلِّمِ إلـى امْتِهانِ مِهْنَـةٍ أو اصْطِنـاعِ صَنْعَـةٍ أو إلـى اكْـتِشافِ سِـرٍّ مَكنـونٍ مِـنْ أسْـرارِ الكَـوْنِ المـادِّيّ.

واقِفًـا مَوْقِـف الضِّدِّيَّـةِ المُطْلَقَـةِ مِـنْ تَسْـليعِ التَّرْبِيَـةِ والتَّعْليـمِ، ومِـنْ ضَيِّهِمـا تَحْـتَ جَنـاحِ السّـوقِ، يُؤَكِّـدُ نيومـان علـى قيمَـةِ العُلـومِ والمَعـارِفِ بِنَفْسِـها وَلِنَفْسِـها. بَيْـدَ أنَّ تأكيـدَهُ هـذا، علـى مـا يَقـولُ هـو نَفْسُـهُ، لا يَعْنـي، فـي أيِّ حـالٍ مِـنَ الأحْـوالِ أنَّ العِلْـمَ غَيْـرَ المُسَـدَّدِ إلـى غايـاتٍ مِهَنِيَّـةٍ، والمَعـارِفَ المُكْتَسَـبَةَ لِغَيْـرِ

وَجْـهٍ عَمَلِـيٍّ لا تُفْضـي، لاحِقًـا، إلـى نَتائِـجَ أهْـلٌ لأنْ تُوْصَـفَ بـ«المُفيـدَة»:

«... ومِـنْ ثَـمَّ، أؤكِّـدُ أنَّ المَعْرِفَـةَ لَيْسَـتْ وَسـيلَةً يَتَوَسَّـلُ بِهـا المُتَوَسِّـلُ سَـبيلَ مَـأرَبٍ آخَـر، لَيْسَـتْ تَوْطِئَـةً "طَبيعيَّـة" لاكْـتِساب مَهـارَةٍ تِقَنِيَّـةٍ؛ إنَّمـا المَعْرِفَـةُ غايَـةٌ يَبْغيهـا المَـرْءُ لِنَفْسِـها وَيَرْتـاحُ إلَيْهـا. وإذْ أقـولُ قَوْلـي هـذا لا أفْتَعِلُ أيَّما طِبـاقٍ أو تَناقُضٍ بَـلْ أصْـدَعُ بِحَقيقَـةٍ مَفْهومَـةٍ بِنَفْسِـها [...] أمّـا أنَّ اكْـتِسابَ المَعـارِفِ قَـدْ يَرْتَدُّ فَوائِدَ على المُكْـتَسِبِ وعلـى جُمْهـورِ الآخَريـنَ فهـذا مـا لا أنْفيـهِ ولا أُنْكِرُهُ ولا أرى مِـنْ سَـبيلٍ إلـى نَفْيـهِ أو إلـى إنْـكارِهِ».

بـكلامٍ آخـر: إنَّ اكْـتِسابَ المَعْرِفَـةِ، وإنْ لَـمْ يُـؤَدِّ غايَـةً بِعَيْنِهـا أوْ إلـى غايَـةٍ بِعَيْنِهـا يَنْتَهـي حُكْمًـا، بِفَضْـلِ مـا يُثَقِّفُهُ مِنْ ذِهْنِ المُكْـتَسِبِ إلـى فائِدَةٍ أو فوائِـدَ مـا:

«شَأْنُ الكَـثيرِ مِـنَ الخَيْـرِ أنْ يَسْـتَجْلِبَ كثيـرًا مِـنَ الخَيْـر. ثُـمَّ هـاكَ مـا يَكـونُ مِـنَ الـذَّكاءِ بِنَفْسِـهِ متى أُحْسِـنَتْ رِعايَتُهُ وتَوَفَّرَتْ لأكْمامِهِ أسْبابُ التَّفَتُّح. إنَّ المَعـارِفَ لَيْسَـتْ كَمـالاتٍ جَديـرَةً بالإجْـلالِ بِنَفْسِـها ولِنَفْسِـها فَحَسْـبُ، ولكِـنَّ نَفْعَها لِمَـنْ يُحْرِزُها، ولِمَنْ هُـمْ حَوْلَـهُ، لا يُقـاسُ ولا يُقَـدَّرُ لأنَّـهُ نَفْـعٌ يَشْـعُّ مِثْلَ

إشْعاعِ الخَيْرِ والفَضْلِ، ولَيْسَ بالنَّفْعِ الآنِيِّ الذي تَنْتَهي مَفاعيلُهُ عِنْدَ انْقِضاءِ الحاجَةِ إلَيْهِ أو بالنَّفْعِ التِّجارِيِّ الذي يُشْرى ويُباع».

مِنْ ثَمَّ، وَبِصَرْفِ النَّظَرِ عمّا في كِتاباتِ نيومان مِنْ تأثيراتٍ لاهوتيَّةٍ، وما يَعْتَمِلُ فيها من تَوَتُّراتٍ ذاتِ نَفْحَةٍ دينيَّةٍ، فإنَّ بَيْتَ القَصيدِ مِنْ نَظَرِيّاتِهِ هو اعْتِقادُهُ الجازِمُ بأنَّ «ثَقافَةَ الذَّكاءِ» مُقَدَّمَةٌ على النَّجاحِ المِهَنِيِّ أو العَمَلِيِّ، وبأنَّ المُتَعَلِّمَ قادِرٌ على ما لا يَقْدِر عَلَيْهِ الأُمِّيّ».

في العِنايَةِ بِلُغاتِ الماضي: جون لوك وأنتونيو غرامشي

قِلَّةٌ، على الأرْجَحِ، أولئك الذين قد تُخاطِبُهُم الصَّفَحاتُ المَشْبوبَةُ المُتَوَتِّرَةُ التي كَتَبَها نيومان في مَديحِ العِلْمِ وَتَقْريظِه. ويَزيدُ مِنْ قِلَّةِ هَؤلاءِ ما يَفتُكُهُ المَنْطِقُ النَّفْعِيُّ بِمَناهِجِ التَّعْليمِ في المَدارِسِ والجامِعاتِ. ومِن آياتِ هذا الفَتْكِ المُتَوَحِّشِ ما يَسيرُ مِنْ سُؤالٍ مُفادُهُ الجَدْوى

مِـنْ تَعْليـمِ اللُّغـاتِ القَديمَـةِ فـي عالَـمٍ انْدَثَـرَ فيهِ النّاطِقـونَ بِهـا، وأَوْلـى مِنْهـا حُجَّـةً، أنَّنـا نَعيشُ في عالَـمٍ لا جَـدْوى فيـهِ مِـنَ التَّمَكُّنِ مِـنْ أيٍّ من هذِهِ اللُّغـاتِ لِتَحْصيـلِ عَمَـلٍ أو وَظيفَـةٍ.

مِـنَ الحُجَـجِ الواهِيَـةِ التي يَتَوسَّـلُ بها تُجّارُ العِلْمِ للقَـدْحِ فـي تَعلُّـمِ اللُّغـاتِ القَديمَـةِ مـا يُدَوِّرونَـهُ مِـنْ أفْـكارٍ عَرَضَـتْ للـوك وحَمَـلَ لِواءَهـا عِلْمًـا أنَّ لـوك نَفْسَـهُ كانَ يَعْتَبِـرُ التَّمَكُّنَ مِـنَ اللّاتينيَّةِ مَتاعًا لا تكْـتَمِلُ بِدونِـهِ تَرْبِيَـةُ «الجَنْتِلْمَن»:

«هـل أسْـخَرُ وأهْـزَلُ مِنْ أبٍ يُنْفِـقُ مِنْ مالِـهِ ويُضَيِّعُ مِـنْ وَقْـتِ ابْنِـهِ فـي تَعْليمِـهِ لُغَـةَ الرّومـانِ القُدمـاءِ فـي حيـنِ أنَّـهُ يُعِدُّ هـذا الابْـنَ لامْتِهـانِ التِّجـارَةِ، أي لامْتِهـانِ مِهْنَـةٍ لَنْ يَسْـتَفيدَ عِنْدَ مُمارَسَـتِها في شَـيْءٍ مِـنْ هَذِهِ اللُّغَةِ، بَلْ لَعَلَّ مُمارَسَـتَها أنْ تُنْسِـيَهُ القَليلَ الـذي تَعَلَّمَـهُ مِنْهـا عَنْوَةً علـى مَقاعِدِ الدِّراسَـةِ؟».

تَحْـتَ حُكْـمِ المَنْطِـقِ النَّفْعِـيِّ الـذي يَسْـتَعْلي علـى شـتّى مرافِـقِ حَياتِنـا، وَتَحْـتَ سَـطْوَتِهِ، لَقَـدْ يُصيبُنـا بالدَّهْشَـةِ لَرُبَّمـا أنْ نُطالِـعَ تِلْـكَ المُرافَعَـةَ المَحْمومَـةَ التـي خَطَّهـا، في السِّـجْنِ، سَـنَةَ ١٩٣٢،

قَلَـمُ أنطونيو غرامشـي(*) دِفاعًا عن تَعَلُّـمِ اليونانيَّةِ واللّاتينيَّـةِ والتَّمُكُّـنِ مِنْهُمـا.

«فـي المَدْرَسَـةِ، أيّامَـذاكَ، كانَـتْ دِراسَـةُ قواعِـدِ اللُّغَتَيْـنِ اللّاتينيَّـةِ واليونانيَّـةِ، ودِراسَـةُ آدابِهِمـا، كما دِراسَـةُ التّاريخِ السِّياسِـيِّ اليونانـيِّ والرّومانـيِّ، رُكنًا تَرْبَوِيًّـا رَكينًـا باعْتِبارِ أنَّ المِثالَ الأعْلى الذي جَسَّـدَتْهُ كُلٌّ مِـنْ أثينـا ومِـنْ روما كانَ المِثـالَ الاجْتِماعِـيَّ الأعَـمَّ، وكانَ وَجْهًا أساسِـيًّا مِنْ وُجـوهِ الحَياةِ والثَّقافَةِ الوَطَنِيَّتَيْـن [...]. لَـمْ يَكُـنْ لهِـذِهِ الدِّراسَـةِ غَـرَضٌ عَمَلِـيٌّ مِهَنِـيٌّ مُباشَـرٌ بَـلْ كانَـتْ هـذِهِ الدِّراسَـةُ، في الظّاهِـرِ علـى الأقَـلِّ، مُنَزَّهَـةً عَـنْ أيِّ غَـرَضٍ مِنْ هذا القَبيـلِ ومُوَجَّهَـةً وُجْهَةَ بِنـاءِ الشَّـخْصِيَّة الفَرْدِيَّةِ لِكُلِّ واحِـدٍ مِنّـا وَتَطويرِها. لَـمْ نَتَعَلَّـمِ اللّاتينيَّـةَ واليونانِيَّةَ للحَديـثِ بِهِمـا أوْ طَمَعًـا بِوَظيفَـةٍ. كُنّـا نَتَعَلَّمُهُمـا لِنَتَعَرَّفَ مُباشَـرَةً بِحضارَةِ ذَيْنِكَ الشَّـعْبَيْنِ المُؤَسِّسَيْنِ افْتِراضِيًّـا للحَضـارَةِ الحَديثَـةِ. كُنّـا نَتَعَلَّمُهُمـا لِكَـيْ نَــكونَ مَـنْ نَحْـنُ، ولِكَـيْ نَعِـيَ أكْثَـرَ مَـنْ نَحْن».

رَغْـمَ جَمْهَـرةٍ مِـنَ الاحْتِجاجـاتِ علـى إهْمـالِ اللُّغـاتِ القَديمَـةِ، ومِـنَ المُصَنَّفـاتِ المَنْشـورَةِ فـي فَرَنْسـا وإيطاليـا الدّاعِيَـةِ إلـى إعـادَةِ النَّظَـرِ

(*) أنطونيو غرامشي، (١٨٩١ ـ ١٩٣٧)، فَيْلَسوفٌ ومُناضِلٌ ماركسيٌّ إيطالي.

بِواقِعِ الحالِ هذا والمُذَيَّلَةِ بِتَواقيعِ نُخْبَةٍ مِنَ الأَساتِذَةِ المُسْتَمْسكينَ بِضَرورَةِ تَعليمِ هذِهِ اللُّغاتِ، ومِنَ المُثَقَّفينَ السّابِحينَ عَكْسَ التَّيّارِ، يَبْدو أنَّ قَطْعَ الطَّريقِ على تَفاقُمِ هذا الإهْمالِ باتَ أمْرًا مُسْتَحيلًا ولا سِيَّما أنَّ الطُّلّابَ يُثْنَوْنَ ثَنْيًا عَنِ الغَوْصِ في دِراساتٍ لا تُؤَدّي بِهِمْ عِنْدَ التَّخَرُّجِ إلى نَتائِجَ مَلْموسَةٍ وإلى أرْباحٍ فَوْرِيَّة. وهَكَذا فَإنَّ الإعْراضَ المُطَّرِدَ عَنْ تَعْليمِ اليونانيَّةِ واللّاتينيَّةِ وعَنْ تَعَلُّمِهِما لَنْ يَلْبَثَ أنْ يَمْحَقَ مَحْقًا نِهائِيًّا ثَقافَةً مُسْتَقِرَّةً في أعْماقِنا تَرْفِدُ ثَقافَتَنا بِروافِدَ شتّى.

لَمْ يَنْتَظِرِ الرِّوائِيُّ الفَرَنْسِيُّ جوليان غراك(*) أنْ تَقَعَ الواقِعَةُ لِيُدْلِيَ بِدَلْوِهِ في هذِهِ المَسْأَلَة... ففي مَقالَةٍ بِتَوْقيعِهِ نَشَرَتْها جَريدَةُ **لو موند** الفَرَنْسِيَّةُ في ٥ كانون الثاني (يناير) مِنْ سَنَةِ ٢٠٠٠، نَدَّدَ غراك بِما يَشيعُ في وَسائِلِ الإعْلامِ مِنْ سَطْحِيَّةٍ وتَفاهَةٍ مَرَدُّهُما إلى اسْتِقْواءِ اللُّغَةِ

(*) جوليان غراك، (١٩١٠ ـ ٢٠٠٧)، كاتِبٌ فَرَنْسِيّ.

الإنْكليزيَّـةِ علـى حِسـابِ لُغـاتٍ يُظَـنُّ بِهـا قِلَّـةُ الجَـدْوى والنَّفْـعِ مِـنْ مِثْـلِ اللّاتينيَّـةِ:

«عِـلاوَةً علـى اللُّغَـةِ الأُمِّ، كانَ التَّلاميـذُ، فـي ما مضـى يَتَعَلَّمـونَ لُغَـةً واحِـدَةً هـي اللّاتينيَّـة. وَلَـمْ تكُـنِ الدّاعِيَـةُ إلـى تَعَلُّـمِ اللاتينيَّـةِ تَعَلُّمَ لُغَـةٍ مَيْتَةٍ بِمِقْـدارِ مـا كانَ وَراءَ ذَلِـك، وَرَاءَ تَعَلُّمِها، اكْـتِسابُ مُنَبِّـهٍ ومُحَفِّزٍ فَنِّيٍّ لا مَثيلَ لَهُمـا باعْتِبارِ أنَّ اللّاتينيَّةَ هـذِهِ لُغَـةٌ مُقَطَّـرَةٌ بِفَضْـلِ مـا كُـتِبَ بِها مِـنْ آثارٍ، وأنَّهـا، بالتّالـي، ميـزانُ ذائِقَـةٍ لا مُجَـرَّدَ لُغَـة. أمّا اليَـوْمَ فَهُـم يَتَعَلَّمـونَ الإنْكليزِيَّـةَ بِوَصْفِهـا عامِيَّـةً كَوْنِيَّـةً والطَّريـقَ الأخْصَـرَ إلـى التَّواصُلِ السَّـطْحِي. بَـلْ قُـلْ إنَّ الإنْكليزِيَّـةَ التـي يَتَعَلَّمُها التَّلاميـذُ اليَوْمَ هـي أشْبَهُ بِمِفْتـاحٍ يَفُـكُّ أقْفـالًا كَثيرةً ولكـنْ حَذارِ مِـنَ الظَّـنِّ بِهـذا المِفْتـاحِ خَيْـرًا فهـو لا يَفُـكُّ قِفْـلًا ويَفْتَـحُ بابًـا إلّا لِقـاءَ إغْـلاقِ قِفْـلٍ وإغْـلاقِ أبْـواب».

وإذا كانَ مِـنْ عَواقِـبِ هـذِهِ النَّزْعَـةِ إلـى إهْمـالِ اللّاتينيَّـةِ واليونانيَّـةِ ألّا يَتَجـاوَزَ عَـدَدُ الطُّلّابِ المُسَـجَّلينَ لِتَعَلُّـمِ هاتَيْـنِ اللُّغَتَيْـنِ أصابِـعَ اليَـدِ، فـإنَّ الحَـلَّ المُقْتَـرَحَ لِتَـدارُكِ كُلْفَـةِ تَخْصيصِ أساتِذَةٍ لِتَعْليمِهِمـا فـي غايَـةِ البَسـاطَةِ: إلْغـاءُ

هاتَيْـنِ اللُّغتَيْـنِ وسِـواهُما كالسَّنْسِـكريتيَّةِ مِـنَ المَناهِـج!

بَـلْ إنَّ الأمْـرَ لا يَقِـفُ عِنْـدَ هـذا الحَـدّ. ففـي بَعْـضِ الجامِعـاتِ يَسـودُ توجُّـهٌ إلـى شَـطْبِ فِقْـهِ اللُّغَـةِ، (الفيلولوجيـا)، وعِلْـمِ النُّصوصِ القَديمَـةِ، (الپاليوغرافيـا)، مِـنَ المَناهِج. وَمُـؤَدّى هذا التَّوَجُّهِ أنْ يَنْتَهِـيَ الأمْـرُ عِنْـدَ تَقاعُـدِ الجيـلِ الحاضِـرِ مِـنَ الفيلولوجِيِّيـنَ والپاليوغرافيِّينَ إلـى إقْفالِ عَدَدٍ مِنَ المَكْـتَباتِ ومِنَ المَتاحِفِ، بَـلْ إلى وَقْفِ عَدَدٍ مِنْ بَرامِـجِ التَّنْقيـبِ عَنِ الآثـارِ وَتَحْقيـقِ المَخْطوطاتِ والوَثائِـق. وجاهِـلٌ أو أحْمَـقُ مَـنْ يُطَفِّـفُ مِـنْ عواقِـبِ هـذا التَّوَجُّـهِ ومِـنْ مُتَرَتِّباتِـهِ العَمَليَّةِ على الدّيمقراطيَّـةِ ــ ونَديـنُ لإيـڤ بونفـوا(*) بِشَـرْحٍ وافٍ عَـنْ هـذا الوَجْـهِ مِـنْ وُجـوهِ الخَطَـرِ ــ وعلى الحُرِّيّـاتِ ــ ونَديـنُ لجورجيـو پَسْكوالي(**) بِبَيانِ هـذا الوَجْـهِ الآخَـرِ مِـنْ وُجوهِ الخَطَـرِ حَيْـثُ يَعْتَبِرُ

(*) إيڤ بونفوا، (١٩٢٣ ـ ٢٠١٦)، شاعرٌ وناقِدٌ أدبيٌّ فَرَنْسيّ.

(**) جورجيو پَسْكوالي، (١٨٨٥ ـ ١٩٥٢)، مُحَقِّقٌ إيطالِيٌّ أثْرى عِلْمَ النَّقْدِ النَّصيِّ بإضافاتٍ غَيْرِ مَسْبوقَة.

أنَّ إسْتِعادَةَ الأصالَةِ اللُّغَوِيَّةِ للنُّصوصِ القَديمَةِ عَمَلٌ تَتَقاطَعُ عِنْدَهُ الحَقيقَةُ والحُرِّيَّة.

إنَّ اسْتِمْرارَ الأُمورِ على هذِهِ الوَتيرةِ المُتَسارِعَةِ يُنْذِرُ بإمِّحاءِ ذاكِرَتِنا، وأخْشى ما يَنبغي عَلَيْنا أنْ نَخْشاهُ هو بُلوغُنا يَوْمًا مَرْحَلَةَ فَقْدِ هذِهِ الذّاكِرَةِ بِالكامِل.

عِنْدَها، لا غَرْوَ أنْ نَرى منيموسين، إلهَةَ الفُنونِ والمَعارِفِ في الأساطيرِ اليونانيَّةِ/الرّومانيَّةِ، تُغادِرُ عالَمَنا، وأنْ يَنْقَطِعَ في رِكابِ مُغادَرَتِها حَيْلُ البَشَرِ على اسْتِفْتاءِ الماضي بُغْيَةَ فَهْمِ الحاضِرِ وتَخْطيطِ المُسْتَقْبَل. يَوْمَها سَوْفَ يَصِحُّ القَوْلُ بأنَّ البَشَرِيَّةَ فَقَدَتْ ذاكِرتَها وأضاعَتْ، في جَريرَةِ ذاكِرَتِها، هُوِيَّتَها وتاريخَها.

الانْدِثارُ المُبَرْمَجُ للتُّراثِ وآثارِه

في هذا السِّياقِ الذي نَصِفُ، يَنْحَسِرُ مَحَلُّ التُّراثيّاتِ في المَدارِسِ والجامِعات. فالتَلامِذَةُ

والطُّلّاب، فـي ظِـلِّ التَّنْفيـرِ المُتَزايـدِ مِـنْ كُلِّ مـا يُوْهَمـونَ بأنَّـهُ غَيْـرُ ذي جـدوى ولا نَفْـعٍ يَقْضـونَ السَّـنَواتِ الطِّـوالَ فـي قاعـاتِ الـدَّرْسِ دونَ أنْ يُطالِعـوا أيًّـا مِـنَ النُّصـوصِ التُّراثِيَّـةِ المُؤَسِّسَـةِ للثَّقافَـةِ الغَرْبِيَّـة.

بَـلْ تَراهُم، عِوَضَ التَّحَكُّكِ بِهَذِهِ النُّصوصِ مُباشَـرَةً يَتَكَفَّفـونَ بَكُـتُبِ المُنْتَخَبـاتِ والمَواجِزِ وسِـواها مِنْ أدَبِيّات التَّبْسـيط.

نَعَـمْ، عِـوَضَ أنْ يُهـابَ بالتَّلاميـذِ والطُّلّابِ أنْ يَغوصـوا فـي نُصـوصِ أريوسـتو(*) ورونسـار(**) وأفلاطـون ودي مونتنيـه التي قَـدْ تُكَلِّفُهُـم مَزيدًا مِـنَ الوَقْـتِ ومِـنَ الجَهْـدِ ومِـنَ الصَّبْـرِ، تَراهُـم يُشَـجَّعونَ علـى السَّـيْرِ فـي طُـرُق المُنْتَخَبـاتِ باعْتِبارِهـا الأخْصَـرَ والأقَـلَّ مَشَـقَّة.

(*) لودوڤيكو أريوستو، (١٤٧٤ ـ ١٥٣٣)، شاعِرٌ إيطاليٌّ مِنْ الطَّبَقَةِ الأوْلى.

(**) پـيار دو رونسـار، (١٥٢٤ ـ ١٥٨٥)، شـاعِرٌ فَرَنْسِيٌّ مِنْ رُوّادِ جَماعَةِ «البِلياد» الشِّعْرِيَّةِ التـي سَـعَتْ إلـى الانْقِـلابِ علـى السّـائِدِ أيّامَها مِـنْ أعْـرافِ شِـعْرِيَّةٍ مُتَوَسِّـلَةً فـي سَـبيلِ ذلـكَ العَـوْدَةَ إلـى الأُصولِ ومُحـاكاةِ الأدَبِ الكلاسـيكيّ.

ولا يُظَنَّـنَّ أنَّ مَفاعيـلَ هـذِهِ السِّياسَـةِ تَقِـفُ عِنْدَ أبْـوابِ الجامِعـاتِ والمـدارِس. لِلأسَـفِ، لَيْسَـتْ كَذلِـكَ ولَعَـلَّ أوَّلَ المُتَضَرِّريـنَ مِـنْ هـذِهِ السِّياسَـةِ هُـمْ ناشِـرو كُـتُبِ التُّراث.

فـي إيطاليـا لَـمْ يَبْـقَ مِـنْ كُبْرَيـاتِ السَّلاسِـلِ المَوْقوفَـةِ علـى نَشْـرِ التُّراثِيّـاتِ مُخَبِّـر. في فَرَنْسـا تُنافِـحُ إحدى آخِرِ دُورِ النَّشْـرِ العَريقَـةِ المُتَخَصِّصَةِ بالتُّراثِيّـاتِ للبقـاءِ علـى قَيْـدِ الحَيـاة، عِلمًـا أنَّ دارَ النَّشْرِ هـذِهِ تَلْقـى مَشَـقّاتٍ جَمَّةً فـي العُثورِ على مُحَقِّقيـنَ ومُدَقِّقيـنَ يُمْكِـنُ أنْ تُـوْكَلَ إلَيْهِـم مُهِمَّةُ نَشْـرِ نُصـوصٍ باليونانيَّـةِ واللّاتينيَّـة. فـي بريطانيـا لَيْسَـتِ الأُمـورُ بأفْضَـلِ حـالٍ، أمّـا فـي ألمانيـا وإسـپانيا فـإنَّ دورَ النَّشْـرِ تَخْتَـزِلُ بَرامِـجَ نَشْـرِ الكُـتُبِ التُّراثِيَّةِ إلى أبْعَدِ الحُدودِ، اللَّهُمَ أنْ تَـتَوَفَّرَ لهـا مِنـحٌ وإعاناتٌ مُجْزِيَـة. هذا، في حيـنِ تَزْدَهِرُ، فـي المُقابِـلِ، سـوقُ المُنْتَخَبـاتِ والمُلَخَّصـات...

وإذْ يَسُرُّ هذا الازْدِهارُ لأدَبِ التَّبْسيطِ المُسْتَثْمرينَ فيـه، فَهُـوَ لا يُفْرِحُ علـى الإطْلاقِ أولَئِـكَ الحَريصينَ

علـى إبْقاءِ جَـذْوَةِ الآدابِ والفُنـونِ التُّراثِيَّةِ مُتَّقِدَة. فالشَّـغَفُ بِالفَلْسَـفَةِ أوْ بالشِّـعْرِ أو بالتّاريـخِ لا يُمْكِـنُ أنْ يَتَأَتّـى مِنْ مُطالَعَةِ المُوَطِّئـاتِ والمَواجِزِ وغَيْرِهـا مِنَ الكُـتُبِ التَّعْليميَّة.

وَلكِـنَّ أسْـوأَ ما في الأمْرِ أنَّ مُطالَعَـةَ هَذِهِ الأدَبِيّاتِ الثّانَوِيَّـةِ كَـثيرًا مـا تَـتَحَوَّلُ إلـى عُـذْرٍ يُعْتَـذَرُ بِـهِ للإعْـراضِ عَـنِ النُّصـوصِ الأصْلِيَّة.

الحياةُ على مِحَكِّ التُّراث

لا تَعْليـمَ أهْـلًا لأنْ يُطْلَـقَ عَلَيْهِ هذا الاسْـمُ يُسْـقِطُ مِـنِ اعْتِبـارِهِ كُـتُبَ التُّراث. فإنَّمـا يَلْتَقـي المُعَلِّـمُ والمُتَعَلِّـمُ عِنْـدَ نَـصٍّ وعلـى مُطالَعَـةِ نَـصّ. بِـدونِ هـذا النَّـصِّ، وخـارِجَ الصِّلَـةِ المُباشَـرَةِ بِـهِ، لا أمَـلَ يُرَجّـى بـأنْ يُحِـبَّ التِّلميـذُ الفَلْسَـفَةَ أوِ الأدَبَ، ولا أمَـلَ يُرْجّـى بـأنْ يُفْلِـحَ المُعَلِّـمُ، مَهْمـا بَـرَعَ، فـي إيقـادِ شُـعْلَةِ الشَّـغَفِ والحَماسَـةِ لـدى تَلاميـذِه.

فـي النِّهايَـةِ، لا مَفَـرَّ أنْ يَنْقَطِـعَ يَوْمًـا مـا الخَيْـطُ

الـذي يَصِـلُ الكَلِمَةَ المَكْـتوبَةَ بالحَيـاةِ، أي بِصَوْتِ المُعَلِّـمِ، ولا مَفَـرَّ أنْ تَنْكَسِـرَ الحَلْقَـةُ التـي تَجْمَـعُ القُـرّاءَ الأغْـرارَ بِمَـنْ سَـبَقوهُم وبِمَـنْ يَتَعَلَّمـونَ القِـراءَةَ علـى أيْديهِـم، وَيَومـذاكَ لَـنْ يَكـونَ بُـدٌّ مِـنْ أنْ يَتَدَبَّـرَ هـذا الجيـلُ مِـنَ القُـرّاءِ المُتَمَرِّنيـنَ الاسْـتِماعَ إلـى صَـوْتِ الحَياةِ مُباشَـرَةً ومِنْ خِلالِ ما تَقولُـهُ تِلْـكَ النُّصـوصُ نَفْسُـها لا مِـنْ خِلالِ مـا قالَهُ لَهُـم مُعَلِّموهُـم.

مَهْمـا كانَ، لا يَكْفـي الإلْمامُ بِبَعْضِ المُقْتَطَفاتِ مِنْ هـذا الأثَـرِ أو بِبَعْضِ المُنتَخَباتِ مِنْ ذاك. بِبَسـاطَة: لا مـا يَسُـدُّ مَسَـدَّ قِـراءَةِ هـذِهِ الآثـارِ كامِلَـة. وفـي سِياقِ هـذِهِ القِـراءَةِ، للمُعَلِّـمِ، بالتَّأكيـدِ، دَوْرٌ فـي غايَـةِ الأهَمِّيَّةِ.

حَسْـبُ الواحِـد مِنّا أن يُطالِعَ سـيرَةَ أيٍّ مِنَ العُلَماءِ الكِبـارِ أو تَرْجَمَةَ أيٍّ مِنْهُم لِيَقِفَ، في هـذِهِ السِّـيرَةِ أو التَّرْجَمَـةِ علـى ذِكْـرى أُسـتاذٍ أو مُعَلِّـمٍ كانَ لَـهُ الـدَّوْرُ الفَصْـلُ في تَوْجيـهِ التَّطَلُّعِ العِلْمـيِّ لِتِلْميذِهِ صَـوْبَ هذا الاخْتِصـاصِ أوْ ذاكَ. بَلْ حَسْـبُ الواحِدِ

مِنّـا أنْ يُطالِـعَ في سـيرَتِهِ الشَّـخْصِيَّةِ لِيَتبَيَّنَ ما كانَ لِتَأْثيـرِ فُلانٍ أوْ فُلانٍ مِـنْ أسـاتِذَتِهِ مِـنْ دَوْرٍ فـي تَحْديـدِ مُيولِـهِ العِلْمِيَّةِ.

فَبَيْـنَ المُتَعَلِّـمِ والمُعَلِّـمِ، مِـنْ أوَّلِ العَهْـدِ بالتَّعَلُّـمِ والتَّعْليـمِ شَـيْءٌ مِـنَ الجَـذْبِ والانْجِـذاب. ومِنْ ثَمَّ مـا يَتَعَـذَّرُهُ وَصْـفُ التَّعْليـمِ بالمِهْنَـةِ، ومـا نَذْهَـبُ إليـهِ عِنْـدَ الحَديـثِ عَـنِ التَّعَلُّـمِ بِمَعْنـاهُ الرّاقـي والنَّبيـلِ مِـنْ وَصْفِـهِ بالرِّسـالَةِ. فالمُعَلِّـمُ المُعَلِّـمُ، شَـأْنَ الرّاهِـبِ، يَنْـذُرُ نَفْسَـهُ للتَّعْليـمِ لا أقَلَّ مِـنْ ذلِـكَ، وبِهـذا المَعْنـى لا يَنْبَغـي التَّطْفيـفُ علـى الإطْلاقِ مِـنْ ذَلِـكَ التَّحْذيـرِ الـذي حَـذَّرَهُ جـورج شـتاينر يَوْمًـا إذْ قـال:

«إنَّ دَرْسًـا لا يَسْـتَوْفي شُـروطَ الجَـوْدَةِ جَريمَـةٌ نَكْـراءُ بالمَعْنـى الحَرْفِـيِّ للكَلِمَـةِ، وخَطيئَـةٌ مُميتَـةٌ بالمَعْنـى المَجـازِيِّ!».

فـلا فَصْـلَ مُمْكِـنًا بَيْـن مـا يَلْتَقيـهِ مُعَلِّـمٌ ومُتَعَلِّـمٌ وبَيْـنَ الشَّـغَفِ إلـى المَعْرِفَـةِ الـذي يَجْمَـعُ بَيْنَهمـا.

يُوْضِحُ ماكس شيلر(*) هـذِهِ الفِكْـرَةَ مُستَشْـهِدًا بغوتـه حَيْـثُ يَنْقُـلُ عَنْـهُ قولَهُ:

«لا نَتَعَلَّـم إلّا مـا نَهْـوى ونُحِـبّ؛ وبِمقْـدارِ مـا يَقْـوى هوانـا وَحُبُّنا تَـكْـتَمِلُ مَعْرِفَتُنا بِمـا نَتَعَلَّمُهُ وتَـزْدادُ عُمْقًـا».

وكمـا نَعْرِفُ جَميعًا فإنَّما المَجّانيَّةُ شَـرْطُ الحُبِّ والهـوى. بِهـذا الشَّـرْطِ، بَلـى، يُمْكِـنُ لِمُعَلِّـمٍ يَلْتَقيـهِ مُتَعَلِّـمٌ، أو لِمُؤَلِّـفٍ يُطالِعُـهُ قـارِئٌ، أنْ يُغَيِّـرا مِـنْ حَيـاةِ هـذا المُتَعَلِّـمِ أو القـارِئ...

المَكْـتَباتُ الجامِعِيَّةُ في خَطَر: فَضيحَةُ مَعْهَد واربورغ

... ومِـنْ ضَحايـا اسْـتِعلاءِ المَنْطِـقِ الاسْـتِثْمارِيِّ التِّجـاريِّ المَكْـتباتُ ومَعاهِـدُ الأبْحـاث. ومِـنْ أَبْلَـغِ الأمْثِلَـةِ علـى ذَلِكَ مَكْـتَبَةُ مَعْهَـدِ واربورغ اللَّندنِـيِّ التـي تُـعَدُّ مِـنْ أكْبَـرِ المَكْـتَباتِ فـي

(*) ماكس شيلر، (١٨٧٤ ـ ١٩٢٨)، فَيْلَسوفٌ ألمانيٌّ مِنْ أبْرَزِ مَنْ تَتَلْمَذَ على يَدَيْهِ البابا يوحَنّا بولس الثّاني.

العالَـمِ وأهَمِّها مِنْ أكْـبَرِها بِلِحـاظِ مَوْجوداتِها (٣٥٠,٠٠٠ مُجَلَّـد و٤٠٠,٠٠٠ صـورة)، ومِـنْ أهَمِّهـا لِمـا اضْطَلَعَتْ بِـهِ مِنْ أدَوارٍ فـي ازْدِهارِ الثَّقافَـةِ الأوروپِّيَّـةِ وتَضْطَلِـع.

ضِـفْ إلـى هـذا أنَّ تَرْتيـبَ هـذِهِ المَكْتَبَـةِ، أي مَوْضِـعَ كُلِّ كِـتابٍ مِـنَ الكُـتُبِ التي تَحوي عَلَيْهـا، ومَوْضِـعَ الـرَّفِّ الـذي يُوْجَدُ عَلَيْـهِ هـذا الكِتـابُ أو ذاكَ، آيَـةٌ بِحَـدِّ ذاتِـهِ، حَيْـثُ إنَّ هذا التَّرْتيـبَ يُعَبِّـرُ عَـنْ رُؤيَـةٍ كُلِّيَّـةٍ للمَعـارِفِ فـي تَواصُلِهـا وتَفاعُلِهـا هـي الرُّؤْيَةُ التـي رَفَعَ لِواءَها آبـي واربـورغ(*) وأولئـكَ الذيـن اهْتَـدَوا بِهَدْيه.

ولا يُظَنَّـنَ أنَّ هـذِهِ الرُّؤْيَـةَ مَحْجوبَـةٌ عَـنْ رُوّادِ المَكْتَبَـةِ: بَـلِ العَكْـسُ هـو الصَّحيـحُ حَيْـثُ إنَّ أيَّمـا زائِـرٍ يُمْكِنُـهُ أنْ يَتَفَقَّـدَ هـذا التَّرْتيـبَ بِنَفْسِـهِ: مـا إنْ يَطْلُـبَ كِتابًـا مـا علـى رَفٍّ مِـنَ الرُّفـوفِ حتّـى يَجِـدَ نَفْسَـهُ بَيْـنَ يَـدَيْ مَجْموعَةٍ

(*) آبي واربورغ، (١٨٦٦ ـ ١٩٢٩)، مُنَظِّرٌ ومُؤَرِّخٌ فَنِّيٌّ ألمانيّ.

مِـنَ الكُـتُبِ ذاتِ الصِّلَـةِ بِمَوضـوعِ الكِتـابِ المَطْلـوب.

إنْقـاذًا لِهَذِهِ المَكْـتَبَةِ مِـنَ الهَمَجِيَّـةِ النّازِيَّـةِ الصّاعِـدَةِ نُقِلَـتْ عامَ ١٩٣٤ مِنْ ألمانيـا إلى لَنْدَن ثُـمَّ أُلْحِقـت بجامِعَـةِ المَدينـةِ فـي سَـنَةِ ١٩٤٤.

خِلالَ القَـرْنِ العِشْـرينِ توالـى علـى مَعْهَـدِ واربـوغ القائِـمِ فـي مَيْدانِ ووبـرن عَـدَدٌ مـن أعْلامِ الباحِثيـنَ في عَصْـرِ النَّهْضَـةِ الأوروبـيِّ وَمِـنْ مُؤَرِّخيـهِ(*).

مَـعَ ارْتِبـاطِ أسْـماءِ كُلِّ هَـؤلاءِ بِهـذا المَعْهَـدِ، ومَـعَ مـا لَـهُ، مِـنْ مَحَـلٍّ فَـذٍّ فـي مَجـالِ دِراسَـةِ النَّهْضَوِيّـاتِ الأوروپِّيَّـةِ، فـإنَّ مَكْـتَبَتَهُ، مُنْـذُ

(*) مِـنْ هَـؤلاءِ الفَيْلَسـوفُ الألمانـيُّ إرْنسـت كاسيرر، وَمُـؤَرِّخ الفُنـونِ الأمِريكـيُّ الألمانـيُّ الأصْـلِ رودولـف ويتكـووَر، ومُـؤَرِّخُ الفُنـونِ البريطانـيُّ النِّمْسَـوِيُّ الأصْلِ السَّير إرْنسْـت غومبريتـش، ومُـؤَرِّخُ الفُنـونِ الألمانـيُّ إروين پانوفسـكي، والمُؤَرِّخَـةُ الإنجليزيّـةُ فرانسِـس ييتـس، ومُـؤَرِّخُ الفُنـونِ البريطانـيُّ الألمانـيُّ الأصْلِ إدچار وينـد، ومُؤَرِّخُ الفَلْسَـفَةِ الأمريكـيُّ الألمانـيُّ الأصْـلِ پـول أوسـكار كريسـتِلِر، والنّاقِـدُ الأدَبـيُّ الإيطالـي كارلـو ديونيسـوتي، واللُّغَـويُّ الإيطالـيُّ جيوڤانـي أكُويلكـتشيا، والمُـؤَرِّخُ الأمريكـيُّ المُعاصِـرُ أنتونـي چرافتـون.

سَنَواتٍ، في خَطَر. فَبُغْيَةَ خَفْضِ النَّفَقاتِ، وَضَعَتْ جامِعَةُ لندن مَشْروعًا تُدْمَجُ بِمُوجِبِهِ مَعاهِدُها وهذا المَشْروعُ، بِطَبيعَةِ الحالِ، يُهَدِّدُ اسْتِقْلالَ واربورغ عِلْمًا أنَّ مُؤَسِّسَ المَعْهَدِ كانَ أحْرَصَ ما يَكونُ، مِنْ أوَّلِ الأمْرِ، أي مِنْ يَوْمِ أن أُبْرِمَ اتِّفاقُهُ مَع السُّلُطاتِ الأكاديميَّةِ البريطانِيَّةِ، على ضَمانِ هذا الاسْتِقْلال.

نَعَمْ، مِنْ سُخْرِيَةِ القَدَرِ أنَّ هَذِهِ المَكْتَبَةَ التي أسَّسَها وَريثُ عائِلَةٍ مِنَ المَصْرِفِيِّينَ آثَرَ صُحْبَةَ الكُتُبِ على صُحْبَةِ الأوْراقِ النَّقْدِيَّةِ عُرْضَةٌ للتَّشْويهِ بِفِعْلِ قَراراتٍ يُقَرِّرُها مالِيّونَ يَبْنونَ قَراراتِهم هذِهِ على اعْتِباراتٍ اسْتِثْمارِيَّةٍ ضَيِّقَة. في انْتِظارِ أنْ نَرى لِمَنْ ستُكْتَبُ الغَلَبَةُ في نِهايَةِ المَطاف ـ لِلْمَكْتَبَةِ أمْ لِلْمَنْطِقِ الاسْتِثْماري ـ يَبْقى أنَّ الخَطَرَ على المَكْتَباتِ، يَفشو ويَعُمّ.

في آبَ ٢٠١٢ نَقَلَتْ وَسائِلُ الإعْلامِ الإيطاليَّةُ نَبأً صادِمًا بِكُلِّ مَعنى الكَلِمَة:

لَقَــد تَقَــرَّرَ إيــداعُ مَكْــتَبَةِ المَعْهَــدِ الإيطالــيِّ للدِّراســاتِ الفَلْسَــفِيَّةِ (٣٠٠,٠٠٠ مُجَلَّــد) فــي صَناديــقَ وحاوِيــاتٍ وتَخزينُهــا فــي مُسْــتَوْدَعٍ بإحْــدى ضواحــي ناپولــي! لــم يَتَأَخَّــرْ عَميــدُ المَعْهَــدِ، فــي مــا كانَــتِ الشّــاحِناتُ تَنْقُــلُ المَكْــتَبَةَ، مِــنَ التَّنْديــدِ بِالقَــرارِ ولكِــنْ... علــى مَــنْ تَقْــرَأُ مَزاميــرَكَ يــا داوود!

مَكْتَباتُ بَيْعِ الكُتُبِ أيْضًا وأيْضًا

وإذْ يُصيبُ المَكْــتَباتِ الجامعيَّــةَ مــا يُصيبُهــا مِــنْ خَرابٍ فلا دَهَــشَ أن يَرْتَــدَّ الأمْــرُ نَفْسُــهُ علــى مَكْــتَباتِ بَيْعِ الكُــتُبِ، وأنْ تَــتَحوَّلَ هذِهِ المَكْتَباتُ التــي كانَــتْ، فــي ما مَضــى، مُنْتَديــاتٍ للفِكْــرِ إلــى أسْواقٍ يُدَلَّــلُ فيهــا علــى الكُــتُبِ كمــا يُدَلَّــلُ علــى أيَّــةِ سِــلْعَةٍ أُخــرى.

فــي باريــسَ كمــا فــي رومــا، وسِــواهما، المَشْــهَدُ نَفْسُــهُ يَتَكَرَّر: مَكْــتَباتُ بَيْعِ الكُتُبِ العَريقَةُ تَخْتَفي

عَـنْ بِكْـرَةِ أبيهـا أو تُرْغَمُ، طَلَبًـا للنَّجاةِ، والاسْـتِمرارِ، علـى الخُضـوعِ لمَنْطِـقِ السّـوقِ فتَراها تُقَلِّـصُ، إلى أبْعَدِ الحُدودِ، المَساحاتِ المُخَصَّصَةَ لِكُـتُبِ التُّراثِ وسِـواها مِـنْ الآثـارِ التي لا يَرقى الشَّـكُّ إلـى قيمَتِها ومَكانَتِهـا، وتُوَسِّـعُ واجِهاتِها للكُـتُبِ التي تَنْجَحُ في امْتِحـانِ الإعْـلامِ فَتُقَلَّدُ لبَعْضِ الوَقْتِ قِلادَةَ «الأكْـثَرَ مَبيعًـا» إلـى أنْ يُطيـحَ بِها عَنْ عَرْشِـها المَوْهومِ هذا «أكْـثَر مبيعًـا» آخَرُ وهكـذا دوالَيْك!

بالطَّبْـعِ، لا يَخْلـو الأمْـرُ، بَعْـدُ، هُنـا وهُنـاكَ، مِنْ جُيـوبِ مُقاوَمَـةٍ يَجِـدُ فيهـا القـارِئُ ضالَّتَـهُ، غَيْرَ أنَّ هـذِهِ الجُيـوبَ تُعاني الأَمَرَّيْـنِ للصُّمودِ فَضْلًا عَمّـا تُرْغَـمُ عَلَيْـهِ مِنَ النُّـزولِ عِنْدَ إمْلاءاتِ كِبارِ المُوَزِّعيـنَ مُوَزِّعـي «الأكثَرَ مَبيعًـا». وَبِمِقْدارِ ما تَـتضاءَلُ فُـرَصُ الصُّمـودِ يَزْدادُ مِقْـدارُ التَّنازُلاتِ المَطْلـوبِ تَقْديمُهـا ومِـنْ هـذِهِ التَّنـازُلاتِ مـا نَـراهُ مِـنْ اضْطِـرارٍ إلـى إحْـلالِ باعَـةٍ مَغْمورِيـنَ يُمْكِـنُ أنْ يُوَظَّفـوا لِبَيْـعِ أيِّ سِـلَعٍ كانَ مَحَـلَّ كُـتُبِيِّينَ مُحْتَرِفيـنَ علـى دِرايَـةٍ بِمـا يَبيعون.

ما لَزومَ لَهُ ومُفاجآتُهُ السّارّة

... ويا حَبَّذا أن يُفْهَمَ مَديحي للآدابِ وَلِلْفَلْسَفَةِ ولِما يَسْتَجْلِبانِهِ مِنْ مَنافِعَ قَدْ تَبْدو للبَعْضِ غَيْرَ ذاتِ جَدْوى على المَعْنى الذي أقْصِدُ إلَيْه. أقولُ، ولَيْسَ قَوْلي مُجامَلَةً يَطْمَئِنُّ مَعَها زُملائي العِلْمِيِّينَ إلى قَصْدي ـ أقول: لَيْسَ مِنْ غَرَضي أنْ أنْفُخَ الرّوحَ في ذلِكَ السِّجالِ العَقيمِ الذي يَنْتَصِرُ أحَدُ طَرَفَيْهِ للمَعارِفِ الإنْسانِيَّةِ والآخَرُ للمَعارِفِ العِلْمِيَّة.

هيهاتَ أنْ يَكونَ الأمْرُ مِنّي كَذلك. بَلْ أقولُ أكْثَرَ: إنَّ للمَعارِفِ العِلْمِيَّةِ يَدًا لا شَكَّ فيها، ماضِيًا وحاضِرًا، في صَدِّ ما يَسْتَعليه مَنْطِقُ السّوقِ وما يَتَمَدَّدُهُ بَيْنَنا هاجِسُ الرِّبْحِيَّةِ السَّريعَة.

ومِمّا لا يُحْتاجُ إلى التَّذْكيرِ بِهِ أنَّ عَدَدًا مِنَ الجُهودِ العِلْمِيَّةِ التي لَمْ يُوَجِّهْها أصْحابُها إلى مآرِبَ عَمَلِيَّةٍ أفْضَتْ إلى مُفاجآتٍ

سـارَّةٍ وأينَعَـتْ ثِمـارًا يَصْعُـبُ علـى الواحِـدِ مِنّا والواحِـدَةِ أنْ يَتَصَـوَّر العالَـمَ خُلْـوًّا مِنهـا.

لَقَـدْ كانَ مِـنَ المُسْـتَحيلِ علـى ماركونـي(*) (١٨٧٤ ـ ١٩٧٣) أنْ يَخْتَـرِعَ اخْتِراعاتِـهِ لَـوْلا مـا سَـبَقَهُ إلَيْـهِ جيمـس ماكسـويل(**) وهاينريـش هرتـس(***) مِـنْ أبْحـاثٍ مَدارُهـا علـى التَّـرَدُّدِ الكهرومِغْنَطيسِـيِّ وهـي أبْحـاثٌ إنَّمـا قـامَ بِهـا هذا وذاكَ مِـنْ بـابِ الفُضـولِ النَّظَـرِيِّ لَيْـسَ إلّا.

لَـمْ يُرافِـع أحَـدٌ عَنْ هـذِهِ الفِكْرَةِ كما فَعَـلَ أبراهام فلكسـنر الـذي يُشَـرِّفُني أنْ أضُـمَّ نَـصَّ مُرافَعَتِـهِ الباهِـرَةِ إلـى كِتابـي هذا.

(*) غولييلمـو ماركونـي، (١٨٧٤ ـ ١٩٣٧)، عالِـمٌ ومُخْتَـرِعٌ إيطاليٌّ لَهُ إسْـهاماتٌ فـي الكهرومِغْنَطيسـيّاتِ، وإلَيْـهِ يُنْسَـبُ اخْتِـراعُ الرّاديـو وتِقْنِيَّـةِ الإبْـراقِ اللّاسِـلْكِيّ.

(**) جيمس كلارك ماكسـويل، (١٨٣١ ـ ١٨٧٩)، عالِمٌ اسـكوتلنديٌّ لَهُ إسْـهاماتٌ حاسِـمَةٌ فـي عِلْمَيِّ الجاذِبِيَّـةِ والكَهْرَباء.

(***) هاينريـش رودولـف هرتـس، (١٨٥٧ ـ ١٨٩٤)، فيزيائـيٌّ ألمانـيٌّ يَديـنُ لَهُ العِلْـمُ بأنَّـهُ أثْبَـتَ وجـودَ التَّرَدُّداتِ اللّاسِـلْكِيَّة. ومِنْ ثَـمَّ فهو مِنْ آبـاءِ ما تلا مِنِ اخْتِـراعِ التِّلِغراف.

يَذْهَبُ فلكسنر في مُرافَعَتِهِ هذِهِ إلى أنَّ الاكْتِشافاتِ الحاسِمَةَ في تاريخِ البَشَرِيَّةِ، والتي غَيَّرَتْ وَجْهَ التّاريخِ، ومَعَهُ وَجْهَ البَشَرِيَّةِ، لَمْ تَتَأَتَّ في سِياقِ اسْتِجْلابِ أيَّةِ مَنْفَعَةٍ عَمَلِيَّةٍ رِبْحِيَّةٍ وإنَّما تأتَّتْ مِمّا أطْلَقَهُ أصْحابُها، في مَنأى مِنْ أيَّةِ غَرَضِيَّةٍ، لِفُضولِهِم مِن عِنان. وإذْ يُمَثِّلُ فلكسنر على أمْثالِ هَؤلاءِ المُكْتَشفينَ، فَلَيْسَ بأقَلَّ من هاماتٍ عاليَةٍ كهاماتِ چاليليو(*) ونيوتن(**).

على الرَّغْمِ مِنْ أنَّ الشَّواهِدَ التّاريخيَّةَ تُثْبِتُ بما لا يَقْبَلُ الشَّكَّ فيهِ جَدْوى البَحْثِ المَتْروكِ على

(*) چاليليو چاليلي، (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢)، عالِمٌ فَلَكِيٌّ وفَيْلَسوفٌ وفيزيائيٌّ إيطاليٌّ مِنْ أبْرَزِ المُدافِعينَ عَنْ نَظَرِيَّةِ كوپرنيكوس القائِلَةِ بِمَرْكَزِيَّةِ الشمس. حوكِمَ چاليليو على يَدِ الكَنيسَةِ الكاثوليكيَّةِ بِسَبَبِ مِنْ دِفاعِهِ عَنْ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ، وأُدينَ، وَضُرِبَ الحَظْرُ على مُؤَلَّفاتِه. لأعْوامٍ قَليلَةٍ خَلَتْ، تَراجَعَتِ الكَنيسَةُ عَنْ حُكْمِها واعْتَذَرَتْ عَلانِيَةً عمّا ارْتَكَبَتْهُ مِنْ خَطَأٍ بِحَقِّ هذا العالِمِ الفَذّ.

(**) إسحاق نيوتن، (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧)، عالِمٌ إنْچليزيٌّ مِنَ المُبَرِّزينَ في الفيزياءِ والرِّياضيّاتِ يَرْتَبِطُ اسمُهُ بـ «قانونِ الجاذِبِيَّةِ» ولَوْ أنَّ هذا الاكتِشافَ فَتْحٌ مِنْ فُتوحاتِهِ العِلْمِيَّةِ الكَثيرَة.

سَجِيَّتِهِ فإنَّ إعْراضَ الحُكوماتِ إعْراضًا مُطَّرِدًا عَنْ تَمويلِ مِثْلِ هذِهِ الأبْحاثِ يَدْفَعُ بالجامِعاتِ وبِمراكِزِ الأبْحاثِ دَفْعًا إلى اسْتِعْطاءِ المِنَحِ والعَطايا مِنَ القِطاعِ الخاصِّ ومِنْ الشَّرِكاتِ الكُبْرى. وإذْ يكونُ مِنْ هذا القِطاعِ ومِنْ تِلْكَ الشَّرِكاتِ أنْ يُمَوِّلوا مَشاريعَ بَحْثِيَّةً فَبُغْيَةَ التَّوَصُّلِ إلى إنْتاجِ سِلَعٍ آيلَةٍ للتَّسْويقِ أو بُغْيَةَ تَطويرِ وسائِلِ إنْتاجٍ تَسْتَفيدُ مِنها هذِهِ الشَّرِكاتُ نَفْسُها في ازْدِهارِ أعْمالِها.

لَيْسَ لأحَدٍ أن يُنكِرَ يَدَ هذِهِ العَطايا والمِنَحِ في دَفْعِ البَحْثِ العِلْمِيِّ قُدُمًا ولكنْ لا بُدَّ مِنَ الاعْتِرافِ بأنَّ بَوْنًا شاسِعًا يَفصِلُ بَيْنَ جَوِّ البَحْثِ العِلْمِيِّ المَحْكومِ سَلَفًا بهاجِسِ «الجَدْوى» وَبَيْنَ جَوِّ البَحْثِ العِلْمِيِّ في مُؤَسَّسَةٍ كَمِثْلِ تِلكَ التي يُشيرُ إليها فلكسنر، أعني «مَعْهَدَ الدِّراساتِ المُتَقَدِّمَةِ» ببِرينستون.

مِنْ ثَمَّ، لَيْسَ مِنْ بابِ الصُّدْفَةِ أنِ ازْدَهَرَ الغِشُّ والاحْتِيالُ خِلالَ العُقودِ الأخيرَةِ في

مَجالِ البَحْثِ العِلْمِيّ. ومِنْ أبرزِ مَنْ تَوَقَّفَ عِنْدَ هذِهِ الظّاهِرَةِ ودَقَّ ناقوسَ الخَطَرِ مُحَذِّرًا مِنْ عَواقِبِها، الأستاذُ في مَعْهَدِ ألبرت آينشتاين للعُلومِ الطِّبِّيَّةِ في نيويورك أرتورو كاسادِڤال.

وَيُفَسِّرُ كاسادڤال داعِيَتَهُ إلى التَّوَجُّسِ العَلَنِيِّ بأنَّ عام ٢٠٠٧ سَجَّلَ إبْطالَ سِتَّةٍ وتِسْعينَ بَحْثًا من أصْلِ مليون. وَيَزيدُ مِنْ أسْبابِ التَّوَجُّسِ أنَّ أحَدَ الأسْبابِ المُحَرِّضَةِ على الغِشِّ هي الضَّغوطُ التي يَخْضَعُ لها البَحْثُ العِلْمِيُّ، لأسْبابٍ اقْتِصادِيَّة، في مَجالِ البيولوجيا الطِّبِّيَّة.

وإنْ تَحْتَجْ هذِهِ الظّاهِرَةُ إلى ما يُمَثِّلُ عَلَيْها فَخَيْرُ مِثالٍ تِلْكَ المَقالَةُ التي نَشَرَها أندرو ويكفيلد عام ١٩٩٨ في مَجَلَّةٍ عِلْمِيَّةٍ مَرْموقَةٍ وَشَكَّكَ فيها بِجَدوى التَّطْعيمِ ثُمَ لَمْ تَلْبَثِ المَجَلَّةُ تِلْكَ أنْ سَحَبَتْ تأييدَها للمَقالَةِ المَذكورَةِ وما فيها بَعْدَ أن أُدينَ صاحِبُها لِما ثَبُتَ مِنْ تَرادِفٍ بَيْنَ أبْحاثِهِ العِلْمِيَّةِ وبَيْنَ مَصالِحِهِ المالِيَّة.

فيمَ النَّظَرِيّاتُ الرِّياضيَّة؟

مِنْ أقليدس إلى أرخميدس

بِشَهادَةِ أرِسْطو، وبِشَهاداتٍ شَتّى مِنْ تَراجِمِ عُلَماءِ العُصورِ القَديمَةِ وما يَرِدُ فيها مِنْ مَنْقولاتٍ، فإنَّ التَّمْييزَ في تِلْكَ العُصورِ بَيْنَ عِلْمٍ تأمُّلِيٍّ مُنَزَّهٍ عَنِ الأغْراضِ العَمَلِيَّةِ وبَيْنَ عِلْمٍ ذي أغْراضٍ عَمَلِيَّةٍ تَطْبيقِيَّةٍ كانَ مِنْ بابِ تَحْصيلِ الحاصِل.

حَسْبُنا للوقوفِ على ذلكَ أن نَتَذَكَّرَ ما يَرْويهِ المُحَقِّقُ ستوبيه(*) مِنْ رِوايَةٍ عَنْ إقليدسَ وأحَدِ تَلاميذِه. فإذْ أخَذَ التِّلْميذُ عَنْ مُعلِّمِهِ إحْدى نَظَرِيّاتِهِ الرِّياضِيَّةِ بادَرَهُ بالسُّؤالِ: «وبَعْدُ؟ أيُّ نَفْعٍ أنْتَفِعُهُ مِمّا أخَذْتُهُ عَنْك؟» فما كانَ مِنْ إقليدسَ إلّا أنْ أمَرَ أحَدَ عَبيدِهِ بأنْ يَنْقُدَ التِّلْميذَ جائِزَةً «لأنَّهُ، [التِّلْميذُ]، في حاجَةٍ إلى اسْتِنْفاعِ مَنْفَعَةٍ ما مِمّا تَعَلَّمَه».

(*) مِنْ أبْناءِ القَرْنِ الخامِسِ الميلادِيّ.

كذلـكَ، فَلْنَسْـتَأْنِفْ قِـراءَةَ تِلْـكَ الفِقْـرَةِ التـي يُخَصِّصها فلوطارخـس(*) للـكَلامِ علـى مـا كان أرخميـدس يَكُـنُّهُ مِـنِ احْتِقـارٍ للميكانيـكا حـدَّ اعْتِبـارِهِ أنَّـهُ مِـنَ المُعيـبِ بالعالِـمِ أنْ يَكْتُـبَ فـي المَسـائِلِ ذاتِ الصِّلَـةِ بالفُنـونِ الصِّناعِيَّـةِ:

«لَقَـدْ كانَ مِـنِ اعْتِزازِ أرخميدسَ بِنَفْسِـهِ، وَمِنْ ثاقِبِ نَظَـرِهِ، وَمِـنْ عِلْمِـهِ الغَزيـرِ، أنَّـهُ ضَـرَبَ صَفْحًـا، مِـنْ أنَـفٍ، عَـنْ كِتابَـةِ سَـطْرٍ واحِدٍ فـي الاخْتِراعـاتِ التي اخْتَرَعَهـا والتـي خَلَّـدَتْ ذِكْـرَهُ، وَرَفَعَـتْ ذَكاءَهُ إلـى مَرْتَبَـةٍ لَمْ يَبْلُغْها العالَمون. فالميكانيكا، وَسِـواها مِنَ الأُمـورِ التِّقْنِيَّـةِ ذاتِ الصِّلَـة بِحاجـاتِ البَشَـرِ اليَوْمِيَّةِ كانَـتْ مُحْتَقَـرَةً فـي اعْتِبـارِهِ، وكانَ الانْهِمـاكُ بِها مِنْ شَـأْنِ العُمّـالِ أصْحابِ الكَفـاءاتِ اليَدَوِيَّة. لَقَـدْ أفْرَغَ أرخميـدس جَهْـدَهُ علـى المَسـائِلِ الشَّـريفَةِ التـي تَزْهـو علـى الضَّروريّاتِ، والتي لا يُقايـسُ أهَمِّيَّتَها إلّا مـا تَسْـتَوْجِبُهُ مِـنْ إعْمـالِ الفِكْـرِ والنَّظَـر».

مِـنَ الشَّـطَطِ أنْ نَحْمِـلَ كلامَ فلوطارخـس علـى المَحْمَـلِ الحَرْفِـيِّ شَـأْنَ مـا كانَ مِـنْ بَعْـضِ كِبـارِ المُؤَرِّخيـن. فَعِنايَـةُ أرخميـدس بِمـا كانَ يُطْلَـقُ

(*) فلوطرخس، (حوالى ٤٥ ـ ١٢٥)، فَيْلَسوفٌ وَمُؤَرِّخٌ يُونانِيّ.

عَلَيْـهِ أيّامـذاكَ الميكانيـكا عِنايَةٌ يُسـتْدَلُّ عَلَيْها في العَديـدِ مِنْ مُؤلَّفاتِهِ كما فـي العَديدِ مِنِ اخْتِراعاتِهِ الشَّـهيرَة. مـا يَعْنينـا مِـنْ هـذِهِ الشَّـهادَةِ المُتَأثِّـرَةِ علـى الأرْجَـحِ بِنَزْعَـةِ فلوطارخـس الأفلاطونيَّـةِ هـو مـا تَصِفُـهُ مِـنْ شَـخْصِيَّةِ العالِـمِ وفي هـذا الوَصْفِ بَيـانٌ جَلِـيٌّ علـى مـا يَحْضُـرُهُ التَّمْييـزُ بَيْـنَ العِلْـمِ المُنَـزَّهِ والعِلْـمِ العَمَلِـيِّ لـدى الأقْدَميـن.

في أنَّ العِلْمَ ثَرْوَةٌ لا يُنْقِصُ مِنها التَّصَدُّقُ بِها [«زكاةُ العِلْمِ نَشْرُه»]

بِنـاءً علـى كُلِّ مـا تَقَـدَّمَ لا مُبالَغَـةَ فـي القَـوْلِ بـأنَّ المَطْلـوبَ مِنّـا خِـلالَ السَّـنَواتِ المُقْبِلَـةِ لَيْـسَ حِمايَـةَ العُلـومِ والمُؤَسَّسـاتِ التَّعْليميَّـةِ مِمّـا يُحْـدِقُ بِهـا مِـنْ أخْطارٍ فَحَسْـبُ، بَـلْ حِمايَةُ الثَّقافَـةِ، بَـلْ قُـلْ كُلَّ مـا نُدْرِجُـهُ تَحْـتَ هـذا المَفْهـوم. نَعَـمْ، المَطْلـوبُ مِنّـا هـو أنْ نَتَصَـدّى لِمـا يَتَعـرَّضُ لَـهُ التَّعْليـمُ والبَحْـثُ العِلْمِـيُّ ولِمـا

تَـتَعَرَّضُ لَـهُ التُّراثِيّـاتُ والثَّقافَـةُ مِـنْ مُحـاولاتِ إلْغـاءٍ مُبَرْمَجَـة. ففـي الحَـطِّ مِـنْ شَـأْنِ التَّعْليـمِ والثَّقافَـةِ، وفـي السُّـكوتِ عَـنْ تَقويـضِ أرْكانِهِما، مُحاصَرَةٌ لِمُسْـتَقْبَلِ البَشَـرِيَّةِ لا يُسْتَبْعَدُ أنْ يَنْتَهِيَ بالإجْهـازِ عَلَيْـهِ وعَلَيْهـا!

لِسَـنواتٍ خَلَـتْ أُتيـح لـي، فـي دارٍ لِلمَخْطوطاتِ بإحـدى الواحـاتِ، أنْ قَـرَأتُ علـى يافِطَـةٍ تُزَيِّـنُ أحَـدَ جُـدْرانِ هـذِهِ المَكْـتَبَةِ العِبـارَةَ التّالِيَـةَ: «العِلْـمُ ثَـرْوَةٌ لا يَنْتَقِـصُ مِنْهـا التَّصَـدُّقُ بِهـا».

لا مَزيـدَ علـى مـا تَقولُـهُ هـذِهِ العِبـارَةُ الموجَـزَةُ: نَشْـرُ المَعـارِفِ، كُلِّ المَعـارِفِ، هـو السَّـبيلُ الأوَحْـدُ لِمُدافَعَـةِ مَنْطِـقِ الاسْـتِئْثارِ والرِّبْـح: فَهَلْ مِـنْ شَـيْءٍ، سِـوى المَعْرِفَـةِ، يُمْكِـنُ الواحِـدُ مِنّـا والواحِـدَةُ أنْ يَتَنـازَلَ عَنْـهُ بِـدونِ أنْ يَفْتَقِـر؟ بَـلْ هَـلْ مِنْ شَـيء سِـوى المَعْرِفَـةِ يُمْكِنُ الواحِـدُ مِنّا والواحِـدَةُ أنْ يَغْتَنـيَ هـو نَفسُـهُ فـي تَنازُلِـهِ عَنْهُ وأنْ يُغْنـي؟

«إنَّما يُدْخِلُ البَهْجَةَ على قَلْبِ الإنْسانِ
أنْ يَتَنعَّمَ بِما يَمْلِكُ لا أنْ يَمْلِكَ ما يَمْلِك».

ميشال دو مونتنيه

III

مِنَ المِلْكِ ما قَتَل: في الكَمالِ الإنْسانيِّ والحُبِّ والحَقيقَة

«صَدى السِّنينِ الحاكي»

علـى خِتـامِ هـذهِ الطّائِفَةِ مِنَ التَّأَمُّلاتِ في جَدوى ما لا جَـدْوى مِنْـهُ مِـنَ المَعـارِفِ الإنْسـانيَّة، أوْلـى بِـيَ أنْ أدَعَ المِنْبَـرَ للأُدَبـاءِ والعُلَمـاءِ والفلاسِـفَةِ الذيـن تَأمَّلـوا فـي هذِهِ الجَـدْوى، وأنْ أدْعُـوَ قُرّائي إلـى الاسْـتِماعِ إلَيْهـم لَعَـلَّ هـذا الاتِّصـالَ المُباشَـرَ بَيْنَهُـمْ وَبَيْـنَ كَلِمـاتِ هـؤلاءِ السّـابِقينَ أنْ يَفْعَـلَ فِعْلَـهُ فيهم.

علـى ما تَقَـدَّمَ، يَتَبَـوَّأُ مَفْهـومُ المِلْكِ والحِيـازَةِ، في يَوْمِنـا الحاضِـرِ، مَكانَـةً رَفيعةً في سُـلَّمِ القِيَمِ الذي تَـتَبَنّاه مُجْتَمَعاتُنا.

علـى الرَّغْـمِ مِنْ هـذهِ المَكانَةِ، لَمْ يَفُـتْ عَددًا لا يُسْـتَهانُ بِـهِ مِنْ أهْلِ الرَّأْيِ، وَمِـنْ أصْحابِ القَلَمِ،

التَّنْبيـهُ علـى طَبيعَـةِ المِلْـكِ الخُلَّبِيَّـةِ وعلى آثارِ المِلْـكِ المُدَمِّـرَةِ للمَعـارِفِ وللعَلاقاتِ الإنْسـانِيَّةِ سَـواءٌ بِسَـواء؛ وفـي الطَّليعَـةِ مِـنْ هَـؤلاءِ المُحَذِّريـنَ مِـنَ الاغْتِـرارِ بالمِلْـكِ والحِيـازَةِ ميشـال دو مونتينـه الـذي أفْتَتِـحُ هـذا الفَصْـلَ باسْـتِعادَةِ قَوْلَتِـهِ الشَّـهيرَة:

«إنَّمـا يُدْخِـلُ البَهْجَـةَ على قَلْبِ الإنْسـانِ أنْ يَتَنَعَّمَ بمـا يَمْلِـكُ لا أن يَمْلِكَ مـا يَمْلِك».

مِـنْ مَسـائِلَ عِـدَّةٍ يُمْكِـنُ اسْـتِحَضارُها فـي هـذا المَقـامِ أكْـتَفي بِثَلاثٍ لَـمْ تَـزَلْ تُؤَثِّـرُ أيَّمـا تَأْثيرٍ علـى حَيـاةِ البَشَـر. وأمّـا الثَّـلاثُ المَسـائِلُ هـذه فهـي مَسْـأَلَةُ الكَمـالِ البَشَـرِيِّ، ومَسْـأَلَةُ الحُـبِّ، وَمَسْـأَلَةُ الحَقيقَـة.

فـي هـذه المَـوارِدِ الثَّلاثَـةِ لا يَسَـعُ شَـهْوَةَ المِلْكِ والأثَـرَةِ إلّا أنْ تَرْتَـدَّ وَبـالًا علـى صاحِبِها في حينِ أنَّهـا المَجْلـى بامْتِيـازٍ لِقِيَـمِ المَجّانِيَّـةِ والبَـذْلِ والتَّرَفُّع.

الكَمالُ البَشَريُّ:
وَهْمُ النِّعْمَةِ وتَعْهيرُ الحِكْمَة

هَلْ يَسْتَقيمُ أنْ يُقاسَ كَمالُ فُلانٍ مِنَ النّاسِ بالثَّرَواتِ التي يَمْلِكُها أمْ أنَّ هذا الكَمالَ لا يُقاسُ إلّا تَبَعًا لِقِيَمٍ لا شَأْنَ للرِّبْحِ وللمَنافِعِ الماديَّةِ بِها؟

أُحِبُّ أنْ أسْتَهِلَّ مُحاوَلَةَ الجَوابِ عَنْ هذا السُّؤالِ بالإحالَةِ إلى مَجْموعَةِ رَسائِلَ مَنْسوبَةٍ إلى أبِقراط، أبي الطِّبِّ، يَرْوي فيها ما كانَ بَيْنَهُ وبَيْنَ ديمقريطس(*) يَوْمَ أنِ اسْتُدْعِيَ للكَشْفِ على هذا الأخيرِ مِنْ بَعْدِ أنِ اشْتُبِهَ بأنَّ مَسًّا قَدْ مَسَّه .

تَنْبَني السَّرْدِيَّةُ التي تَجْمَعُ جِماعَها هذِهِ الرَّسائِلُ على تَبادُلٍ للشَّخْصيّاتِ وللأدْوارِ بَيْنَ الطَّبيبِ والمَريضِ حَيْثُ يَتَقَمَّصُ المَريضُ، في سِياقِ السَّرْدِيَّةِ، قَميصَ الطَّبيبِ وَيَتَقَمَّصُ

(*) ديمقريطس، (٤٦٠ ق.م. ـ ٣٧٠ ق.م.)، فَيْلَسوفٌ يونانِيٌّ مِنْ أصْحابِ مَذْهَبِ الذَّرَّة.

الطَّبيبُ قَميصَ المَريض. وهكذا يَنقَلِبُ جُنونُ ديمقريطس المَزْعومُ إلى شَيْءٍ أدْنى إلى الحِكْمَةِ، وتَنْقَلِبُ حِكْمَةُ الأبديريِّين، قَوْمِ ديمقريطس، إلى شَيْءٍ أدْنى إلى الجُنون.

تَبْدَأُ السَّرْدِيَّةُ بِمَشْهَدٍ بالِغِ الدَّلالة: مُعْتَكِفًا في دارَتِهِ القائِمَةِ على إحدى الرَّوابي تَسْتَوْلي على الفَيْلَسوفِ نَوْباتٌ مُتواصِلَةٌ مِنَ الضَّحِكِ والقَهْقَهَةِ تَبْلُغُ مَسامِعَ مُواطنيهِ فَيَقْلَقون أشَدَّ القَلَقِ مِمّا يُصيبهُ وَيَتَوَسَّمونَ بِهِ عِلَّةً ما، ويَقَرُّ رَأْيُهُم على اسْتِدعاء الطَّبيبِ أبقراط.

إبْتداءً، يُصارِحُ أبقراطُ مُحَدِّثيهِ بأنَّهُ لَيْسَ للمالِ أدْنى تأثيرٍ عَلَيْهِ في مُمارَسَتِهِ الطِّبَّ:

«حَذارِ حَذارِ الإساءَةَ إليَّ والظَّنَّ بأنَّني اسْتَجَبْتُ لِنِدائِكُمْ طَمَعًا بِمالٍ أجْنيهِ. ثَمَّ سَلِّموا مَعي بأنَّ الطِّبَّ مِهْنَةٌ حُرَّةٌ يَتَعاطاها المَرْءُ بِحُرِّيَّة. طُلّابُ المالِ يُسَخِّرونَ العُلومَ لِمآرِبِهِم مُنْكرينَ عَلَيْها حُرِّيَّتَها في التَّعْبيرِ عَنْ نَفْسِها وَمُصَفِّدينَ إيّاها في أغْلالِ العُبوديَّة. بِئْسَ حَياةٍ يَعْصِفُ بِها الجَشَعُ عَصْفَ الرِّيحِ في الشِّتاء.

وحَبَّـذا، بِمَشيئَةِ الآلهـةِ، أنْ تَـتَضَافَرَ جُهـودُ النَّطّاسـينَ وأنْ يَجِدوا دَواءً لهذا الدّاءِ، داءِ الجَشَـعِ، الـذي يَبْـدو لـي أعْضَـلَ بكثيـرٍ مِـنَ الجُنـون».

يَصِـلُ أبقـراط إلـى دارَةِ ديمقريطـس ويأخُـذُ الرَّجُـلانِ بِتَجـاذُبِ أطْـرافِ الحَديـثِ ثُـمَّ يَنْتهـي الأمْـرُ بِهِمـا إلـى ما دعا بـالأوَّلِ إلى زِيـارَةِ الثّاني، وهُنـا يَمضـي ديمقريطـس فـي الإجابَـةِ علـى اسْتِفْسـاراتِ أبقـراط:

«إنَّمـا أضْحَـكُ لِغَباءِ الغَبِـيِّ مِنْ بَني البَشَـرِ وَعَجْزِهِ عَـنِ الإتْيانِ بأيِّ عَمَـلٍ جَليل.

أضْحَـكُ لانْدِفاعِـهِ بـلا تَـرَوٍّ إلـى أقْصـى أطْـرافِ الأرْضِ، وَلِخَوْضِـهِ فِجاجَها العَميقَـةَ، ولانْهِماكِـهِ بِصَهْـرِ الذَّهَـبِ والفِضَّةِ والاسْـتِزادَةِ مِنْهُما، ولِطَلَـبِ غَيْرِهـا مِـنَ الخَيْـراتِ، وكُلُّ ذلكَ بِذَريعَـةِ ألّا يُدْرِكَهُ العَوَزُ.

[ثُـمَّ إنَّ الغَبِـيَّ مِنْ هَؤلاءِ] لا يَشْـعُرُ بـأيِّ نَدَمٍ على الجَهْـرِ بأنَّـهُ سَـعيدٌ لا مُلْتَفِتًا إلى أنَّ صُنّاعَ سَـعادَتِهِ هـذهِ عَبيـدٌ مَغْلولـونَ بالسَّلاسِـلِ يَحفِـرونَ الأرْضَ، حتّـى أعْمَـقِ أعْماقِها، بأيديهِمِ العارِيَـةِ فَيَهْلِـكُ مِنْهُـمُ مَـنْ يَهْلِـكُ تَحْـتَ مـا يكونُ مِـنِ انْهيـاراتِ التُّرْبَـةِ وانْزِياحاتِهـا ويَحْيـا مِـنْ يَحْيـا فيُواصِـلُ

حياتَـهُ البائِسَـةَ هذهِ كَمُجْـرِمٍ حُكِمَ عَلَيْهِ بالأشْـغالِ الشّاقَّة.

[أضْحَـكُ لهـذا الغَبِـيِّ الذي] يَضْـرِبُ فـي الأرْضِ طَلَبًا للذَّهَـبِ والفِضَّـةِ فَيَنْكُـتُ فـي النُّفاياتِ هُنـا، ويَنْقُلُ أكْـوامَ الرِّمـالِ مِـنْ هُنـاكَ إلـى هُنـا، وَيَشُـقُّ صَـدْرَ الأرْضِ هُنالِـك ــــ يَشُـقُّ صَـدْرَ هـذهِ الأرْضِ التي هي مِنّـا فـي مَحَـلِّ الأمِّ ويُعامِلُها، لا آبِهًـا بِصَبْرِها، مُعامَلَةَ العَـدُوِّ اللَّدود.

[أضْحَـكُ لِهـذا الغَبِـيِّ الـذي] يَحْتَفِـلُ بِـهِ النّـاسُ ويُعْلُـونَ مِـنْ قَـدْرِهِ فـي حيـنِ أنَّ أقْدامَهُـم تَـدوسُ الأرْضَ، مَصْـدَرَ ثَرْوَتِـهِ، بالنِعـال».

لا غَـرْوَ أنْ يَقِـفَ أبِقـراط مَدْهوشًـا بَيْـنَ يدي هذهِ التَّأَمُّـلاتِ. وحتّـى نَحْـنُ، أبنـاءَ الألفيَّـةِ الثّالِثَـةِ، لا نَمْلِـكُ إلّا الانْبِهـارَ بَيْـنَ يَدَيْهـا!

«أُمُّنـا الأرْضُ التـي يُشَـقُّ صَدْرُهـا طَمَعًا باسْـتِخْراجِ الذَّهَـبِ والفِضَّـة»... «الآدَمِيّـونَ المُسْـتَعْبَدونَ والمَغْلولـونَ بالأصْفـادِ مِثْـلَ مَحْكوميـنَ بالأشْـغالِ الشّـاقَّة»... مَـنْ يَمْلِـكُ أنْ يَقـولَ أكْـثَرَ مِمّـا يَقولُـهُ ديمقريطـس بِعبـاراتٍ أبْلَـغَ مِنْ عِباراتِـهِ لِيَصِـفَ ما

يُـؤَدّي إِلَيْهِ الشَّـبَقُ إِلـى مُراكَمَةِ المَزيدِ مِـنَ الثَّرْوَةِ مِـنْ أَخْطارٍ تُهَدِّدُ مُسْـتَقْبَلَ البَشَـرِيَّة؟ فَهذا الشَّـبَقُ لا يَقْـدَحُ فـي الكَمالِ والكَرامَةِ البَشَـرِيَّيْنَ فَحَسْـبُ، بَـل يُزَيِّـنُ السَّـيرَ فـي طَريـقٍ مَفْضاهُ إِلـى الجُنونِ والانْتِحار.

لِيُبَيِّـنَ الطَّبيعةَ الخادِعَةَ للأَوْهـامِ التي يُزَيِّنُها المالُ والسُّـلْطانُ للبَشَـرِ، يُشَـبِّهُ سِـنِكا(*) فـي رسـائِلِهِ إِلى لوكيلـوس العالَـمَ بِخَشَـبَةِ مَسْـرَح: مَثَـلُ السَّـعادَةِ التـي يَشْـعُرُ بِهـا الأَثْريـاءُ مَثَـلُ الشُّـعورِ بالعَظَمَـةِ التـي يَشْـعُرُ بِهـا مُمَثِّـلٌ يُـؤَدّي دَوْرَ المَلِـك. مـا إِنْ تَنْتَهِـي المَسْـرَحِيَّةُ وَيَخْلَـعُ المُمَثِّـلُ ثِيابَ المَلِـكِ يَعـودُ كُلُّ شَـيْءٍ إِلـى حالِـهِ وَيَعـودُ كُلُّ أَحَـدٍ إِلـى مَحَلِّـهِ مِـنَ الإِعراب:

لَيْـسَ مِـنْ كُلِّ هَـؤلاءِ الذيـن يَتَزَيَّـوْنَ بالإِسْـتَبْرَقِ والأُرْجـوانِ مَـنْ هـوَ سَـعيدٌ حقًّـا. مَثَـلُ الواحِـدِ مِنْهُم مَثَـلُ أميـرٍ على خَشَـبَةِ مَسْـرَحٍ لَيْـسَ الصَّوْلَجانُ مِنْهُ

(*) سِنِكا، (٤ ق.م. ـ ٦٥ م.)، فَيْلَسوفٌ وَخَطيبٌ وكاتِبٌ مَسْرَحِيٌّ رومانِيّ.

والعَبـاءَةُ إلّا عِـدَّةَ الشُّـغْلِ التـي يَقْتَضيها مِنْـهُ تَمْثيلُ هـذا الـدَّوْر. يَخْتَـالُ الواحِـدُ مِنْهُـم أمـامَ الجُمْهـورِ وَيَتَبَخْتَـرُ وَيَصـولُ وَيَجـولُ وَيَخْبِـطُ الأرْضَ خَبْطًـا بِمَداسِـهِ ذي الكَعْـبِ العالـي ولكِـنْ مـا إنْ يَنْتَهِـي الـدَّوْرُ المُـوْكَلُ إلَيْـهِ تأدِيَتُـهُ، ويَدْلِـفُ إلـى الكَواليسِ وَيَتَخَفَّـفُ مِـنْ زِيِّـهِ ومِـنْ مَداسِـهِ حتّـى يَعـودَ مَـنْ كانَـهُ قَبْـلَ اعْتِلائِـهِ الخَشَـبَةَ، ويَعـودَ إلَيْـهِ قَـدُّهُ الذي وَهَبَتْـهُ إيّـاهُ الطَّبيعـةُ بِـلا زِيـادَةٍ ولا نُقصـان. نَعَـمْ، لَيْـسَ مِـنْ أحَـدٍ مِـنْ كُلِّ هَـؤلاءِ الـذي يُعْلـي المـالُ والجـاهُ مِـنْ شَـأْنِهِم مَـنْ هـو كَبيـرٌ حقًّـا أو عَظيـم».

وعلـى مـا يُتابِعُ سِـنِكا فـإنَّ ما يُطيـشُ سَـهْمَ عِلْمِنا بالنّـاسِ ومَعْرِفَتِنـا بِهِـمْ هـو أنَّنا لا نَرى إلـى الواحِدِ مِنْهُـم علـى حَقيقَتِـهِ بَـلْ نَـرى إلـى مـا عَلَيْـه مِـنْ ثِيـابٍ ومِـنْ حُلِيٍّ:

«أمّـا إنْ رُمْـتَ أنْ تَـتَبَصَّرَ بإنْسـانٍ مـا حَـقَّ التَّبَصُّـرِ، وأنْ تَزينَـهُ حَـقَّ الـوَزْنِ، فانْظُـرْ إلَيْـهِ عارِيًـا. أُدْعُهُ أنْ يَخْلَـعَ عَنْـهُ تَليـدَهُ والطَّريـفَ ومـا أنْعَمَـتْ بِـهِ عَلَيْـهِ المَقاديـرُ بَـلْ جَـرِّدْهُ بِنَظَـرِكَ مِـنْ جِسْـمِهِ وانْظُـرْ إلى روحِـهِ وسَـلْ نَفْسَـكَ: هَـلْ يَسْـتَمِدُّ هـذا الإنْسـانُ مـا يَبْـدو عَلَيْـهِ مِـنْ رِفْعَـةٍ مِـنْ ذاتِ نَفْسِـهِ أمْ أنَّ رِفْعَتَهُ رِفْعَـةٌ مُسْـتَعارَة؟

ثُـمَّ تَمْضـي القُـرونُ تِلْوَ القُـرونِ ويَضَعُ الفَيْلَسـوفُ جيوڤانـي پيكـو ديـلّا ميرانـدولّا(*) مُؤَلَّفَـهُ الشَّـهيرَ **رسـالَةَ فـي كمـالِ الإنْسـانِ وكرامَتِـه**، وَيُعَرِّفُنا بأَنَّ حُرِّيَّـةَ الإرادَةِ هـي سِـرُّ هـذا الكَمالِ ومُسْـتَوْدَعُه.

فـإذْ خَلَـقَ اللَّـهُ الإنْسـانَ، وإذْ وَزَّعَ الصِّفـاتِ والمُحَـدِّداتِ علـى مـا خَلَقَـهُ مِـنْ كائِنـاتٍ، وإذْ شـاءَتْ مَشـيئَتُهُ أنْ يَتَمَيَّـزَ الإنْسـانُ عَـنْ هـذِهِ الكائِنـاتِ، لَـمْ يَجِـدْ مِـنْ سَـبيلٍ إلـى ذلـكَ سِـوى بـأنْ يَرْفَـعَ التَّحْديـدَ عَنِ الإنْسـانِ وبِأَنْ يَـدَعَ لَهُ أنْ يُقَـرِّرَ مَصيـرَهُ بِنَفْسِـهِ:

«أمّـا الكائِنـاتُ الأُخْـرى فَلَقَـدْ غَرَزْنـا فـي طَبيعَتِهـا قَوانيـنَ تَحْكُـم عَلَيْهـا. أمّا أنْـتَ، [أيُّها الإنْسـانُ]، فلا ضَوابِـطَ تَحْكُـمُ عَلَيْك. لَكَ، مُتَوَسِّـلًا بِمَلَـكَةِ التَّقْديرِ التـي وَهَبْنـاكَ إيّاهـا، أنْ تُحَـدِّدَ طَبيعَتَـكَ [...] وإذْ لَـمْ نَجْعَلْـكَ دُنْيَوِيًّا ولا سَـماوِيًّا، ولا فانيًـا ولا مُخَلَّدًا، فلِكَيْ تُشَـرَّفَ بأنْ تُقَرِّرَ بِنَفْسِـكَ ما تُريدُ أنْ تَـكونَهُ وأنْ تَـكونَ عَلَيْه».

(*) جيوڤانـي پيكـو ديـلّا ميرانـدولّا، (١٤٦٣ ـ ١٤٩٤)، فَيْلَسـوفٌ ولاهوتـيٌّ إيطالـيٌّ مِـنْ وجـوهِ عَصْـرِ النَّهْضَـةِ الأوروبِّـيِّ.

بالإحالَـةِ إلـى هـذِهِ الحُرِّيَّـةِ، للإنْسـانِ أنْ يُقَـرِّرَ بِنَفْسِـهِ مَحَلَّـهُ مِـنْ هـذا الكَـوْنِ وفيـه؛ لَـهُ أنْ يَخْتـارَ الـذُّرى إلـى جانِـبِ الكائِنـاتِ السّـامِيَةِ أوْ أنْ يَخْتـارَ الحَضائِـضَ إلـى جانِـبِ الوحـوشِ العُجْـمِ... للإنْسـانِ الأمْـرُ فـي أمْـرِهِ: مَـنْ تَهْـدِهِ الفَلْسَـفَةُ، مثـلًا، فـي مَناكِـبِ الحَيـاةِ، لَـنْ يَلْبَـثَ أنْ يُـدْرِكَ بـأنَّ كمالَـهُ هـو فـي طَلَـبِ المَعْرِفَةِ لا فـي طَلَـبِ الأرْبـاحِ والغَنائِـم ـــ مَعْرِفَـةِ أسْـبابِ الأشْـياءِ، ومَسـالِكِ الطَّبيعَـةِ، والتَّدابيـرِ الإلهيَّـةِ وغَوامِـضِ الأرْضيـنَ والسَّـماوات.

بالطَّبْـعِ، لِرُؤْيَـةِ ديـلّا ميرانـدولّا الكَوْنِيَّـةِ القائِمَةِ علـى مَرْكَزِيَّـةِ الإنْسـانِ فـي الكَوْنِ حُدودُهـا بَيْدَ أنَّ هـذِهِ الحُـدودَ لا تُقَلِّـلُ في شَـيْءٍ مِـنَ الإكْبارِ الواجِـبِ لَـهُ عَلَيْنـا بِلِحـاظِ الجُهْـدِ النَّظَـرِيِّ الذي بَذَلَـهُ لِتَخْليـصِ الحِكْمَـةِ والكَمـالِ البَشَـرِيِّ مـن رِبقَـةِ الرِّبْحِيَّـةِ القاتِلَة:

«وَيَزيـدُ الأمْـرَ سُـوءًا أنَّنا بِتْنـا لا نَعُدُّ فـي الحُكَماءِ إلّا مُرْتَزِقَـةَ الحِكْمَة. حتّى العَفيفـةُ بَيْنَ العَفيفاتِ،

بـالاس(*) التـي اختـارَتْ بِنِعْمَـةٍ مِـنَ الآلِهَـةِ أنْ تَسْـتَوْطِنَ بيَـن البَشَـرِ، باتَـتْ بِحُكْـمِ الطَّريـدَةِ والمَرْذولَـة. لا مَـنْ يَبْـذِلُ الحُـبَّ لِبـالاس ولا مَـنْ يَلْتَفِـتُ إلَيْهـا ــ اللَّهُـمَّ أنْ تبيعَ نَفْسَـها على مَعْنًى مـا، وأن تُعَهِّرَهـا، وأنْ تَشْـتَرِيَ بالثَّمَـنِ البَخْـسِ لِعُذرِيَّتِهـا السَّـليبَةِ رِضـى عَشـيقٍ يَسـومُها المَذَلَّـةَ لقـاءَ عِشْـقِهِ إيّاهـا».

ولأنَّ الأُمـورَ آلَـتْ إلـى مـا يَصِفُ ديـلا ميراندولّا، فـلا غَـرْوَ أنْ نَرى الكاتِبَ المُهَنْدِسَ ليون باتِّيسـتا ألبيرتـي(**) يَضَـعُ كِتابًـا بأُمِّهِ وأبيـهِ لِيُثْبِتَ ضَرورَةَ أن يُكَـرِّسَ المَـرْءُ حياتَـهُ أجْمَـعَ، إنْ رامَ الفَضيلَـةَ حقًّـا، لِدِراسَـةِ الآدابِ والتَّبَحُّـرِ فيهـا لا مُلْقِيًـا بالًا إلى داعـي الكَسْـبِ والإثْراء.

فـي الصَّفحـاتِ الأخيـرَةِ مِنْ كِـتابِهِ هـذا، وهـي صَفَحـاتٌ يُتَرجِـمُ فيهـا ألبيرتـي لِنَفْسِـهِ، يَقُـصُّ علـى قُرّائِـهِ قِصَّـةَ حُبِّـهِ الخالِـصِ للمَعْرِفَـة:

(*) پالاس، إلَهَةٌ إغريقيّةٌ تُنْسَبُ، في ما تُنْسَبُ، إلى الحِكْمَة.

(**) ليـون باتِيسـتا ألبرتـي، (١٤٠٤ ـ ١٤٧٢)، مِعْمـارٌ وعالِـمُ رِياضيّـاتٍ وشـاعِرٌ إيطالِـيّ.

«لِوَجْـهِ الآدابِ، على ما يَعـرِف بَعْضُ النّاس، ما كانَ مِـنْ صُمـودي بِشـجاعَةٍ وعَزْمٍ لِمـا تَكَبَّدْتُهُ مِـنْ فَقْرٍ ومـا عانَيْتُـهُ مِنْ ظُلْـمٍ وعَداوَة. نَعَمْ، لـم أصْمُدْ لِكُلِّ هـذهِ المِحَنِ والإحَـنِ مِنْ بابِ الاسْـتِمْتاعِ بالتَّحَدّي، ولا فـي سَـبيلِ كَسْـبٍ مـادِيٍّ لِما تَعَـذَّر عَلَـيَّ الفَوْزُ بِـهِ لَـو ارْتَأَيْـتُ أنْ أُقايِضَ التِّجـارَةَ بِصُحْبَةِ الكُـتُب. ألا حَبَّـذا أنْ تَتَّقِـدَ روحُ أَهْلِ الآدابِ بالشَّـوْقِ الدّائِمِ إلـى الحِكْمَةِ لا إلـى المال».

علـى غـرارِ ألبرتـي، يَذْهَـبُ واضِـعُ رسـالةٍ **فـي السُّـمُوّ** إلـى أنَّ حُـبَّ الثَّـرْوَةِ داءٌ وبَيـلٌ لا يُفْسِـد النَّفْـسَ الإنْسـانِيَّةَ فَقَـطْ بَلْ يُفْسِـدُ المُجْتَمَعَ أيْضًا والحَيـاةَ المَدَنِيَّـةَ:

«أجَـلْ، إنَّ الجَشَـعَ إلـى الثَّـرْوَةِ الـذي يَفْتِـكُ بِنـا فَتْـكًا لا نَمْلِـكُ مَعَـه أنْ نُثْنِـيَ أنفُسَـنا عَنْـهُ، وحُـبَّ الشَّـهَواتِ الـذي يَفْتِـكُ بِنـا الفَتْـكَ نَفْسَـهُ، يَحْكُمـانِ عَلَيْنـا بِعُبوديَّـةٍ لا مَفَـرَّ مِنْها. بَلْ قُلْ إنَّ هذا الجَشَـعَ وذَلِـكَ الحُـبَّ لأَشْـبَهُ بِخَرْقَيْـنِ فـي سَـفينَةٍ يَحْكُمانِ عَلَيْهـا بالغَـرَقِ المُحَتَّـم. إنَّ الجَشَـعَ إلى الثَّـرْوَةِ داءٌ مُـذِلٌّ [...] وَمَـعَ إطالَـةِ التَّفْكيرِ في الأمْـرِ فإنَّني، في الحَقيقَـةِ، لا أفْهَـمُ كَـيْفَ أنَّنـا، نَحْـنُ الذيـن نُعْلـي مِـنْ شَـأْنِ الثَّـرْوَةِ، بَـلْ يَصِـلُ بِنـا الأمْـرُ إلـى تَأْليهِها،

ونَعْمى، في ما هي تَنْمو بَيْنَ أيْدينا وتَتراكَم، عَنْ كُلِّ العُيوبِ والمَضارِّ التي تَسْتَنْبِتُها في أنْفُسِنا».

في أنَّ الحُبَّ على سَبيلِ الحِيازَةِ والامْتِلاكِ يَقْتُلُ الحُبّ!

على غِرارِ ما إنَّ التَّأَمُّلَ في الكَمالِ البَشَريِّ يُفْضي إلى تَقْديمِ المَجّانِيَّةِ على سِواها مِنَ القِيَمِ، كَذَلِكَ التَّأَمُّلُ في الحُبّ. فَلُحْمَةُ الحُبِّ وسَداهُ ـــ الحُبُّ الحُبُّ ـ هو العَطاءُ الخالِصُ بلا مُقابِلٍ وبِلا تَوَقُّعٍ لأيِّ مُقابِل. مِنْ ثَمَّ فإنَّ أشْبَهَ ما يُمْكِنُ أنْ يُشَبَّهَ بِهِ الحُبُّ الحَقيقيُّ هو اللِّقاءُ بَيْنَ كائِنَيْنِ يَسيرُ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما بِمِلْءِ حُرِّيَّتِهِ نَحْوَ الآخَر. إنَّ ما يَجْمَعُ بَيْنَ هَذَيْنِ الكائِنَيْنِ هو الرَّغْبَةُ المُتَبادَلَةُ في اللِّقاءِ بِمَعزِلٍ مِنْ أيِّ غَرَضٍ شَخْصِيٍّ أو أنانيٍّ سِوى هذا اللِّقاءِ نَفْسِه.

أمّا متى ما اسْتَعْلَتْ لدى الواحِدِ مِنَ النّاسِ داعِيَةُ التَّمَلُّكِ والحِيازَةِ، فَيَنْقَلِبُ الحُبُّ لَدَيْهِ إلى ما نُسَمّيهِ الغَيْرَة. ومِنْ عَلاماتِ الغَيْرَةِ أنْ

يَسْتَوْلِيَ على المُحِبِّ الهَوَسُ بأنْ يَتَحَقَّقَ في كُلِّ حينٍ مِنْ إخْلاصِ مَحْبوبِهِ لَهُ، وأمانَتِه، وصَفاءِ مَشاعِرِه ونَقائِها.

وحَسْبي في هذا المَقامِ أنْ اسْتَشْهِدَ بِشاهِدَيْنِ اثْنَيْنِ مِنْ أثَرَيْنِ أدَبِيَّيْنِ عَظيمَيْنِ خالِدَيْن: أُحْدوثَةِ «رِنو والفارِس ذي الكَأْسِ الذَّهَب» (التي نَدينُ بِها لِقَلَمِ شاعِرِ النَّهْضَةِ الإيطالِيِّ لودوڤيكو أريوستو، (١٤٧٤ ـ ١٥٣٣)، والتي تَرِدُ في النَّشيدِ الثّالِثِ والأرْبَعينَ مِنْ **رولان غضوبًا**)، والأُحْدوثَةِ المُعَنْوَنَةِ «في أنَّ الفُضولَ عَيْبٌ فادِحٌ» التي تَرِدُ في القِسْمِ الأوَّلِ مِنْ رائِعَةِ ميغيل دي ثيربانتس، (١٥٤٧ ـ ١٦١٦)، **دون كيخوته**.

أدْرَكَ اللَّيْلُ رِنو، بَطَلَ حِكايات أريوستو، بَيْنَ مانتو وفيراري مِنْ أعْمالِ إيطاليا، فاسْتَقَرى إلى أحَدِ قُصورِ المِنْطَقَةِ التي وَجَدَ نَفْسَهُ فيها. على نِهايَةِ العَشاءِ دعاهُ رَبُّ القَصْرِ إلى امْتِحانِ الكأسِ الذَّهَب. أمّا مُفادُ هذا

الامْتِحـانِ فـأنْ يَتَجَـرَّعَ المُمْتَحَـنُ مـا فـي الكَأْسِ تِلْـكَ مِـنَ الخَمْـر: فـإنْ تَجَـرَّعَ مـا فيهـا ولَـمْ يَسِـلْ شَـيْءٌ مِنْـهُ علـى صَـدْرِهِ فَمَعْنـاهُ أنَّ زَوْجَةَ المُمْتَحَـنِ مُخْلِصَـةٌ لَـه. رَفَـعَ رِنـو الـكَأْسَ بِيَدَيْـهِ وَلكنَّـهُ، قَبْـلَ أنْ يُدْنيهـا إلـى شَـفَتَيْهِ، عَـدَلَ عَـنْ خَـوْضِ الامْتِحـانِ وأعـادَ الـكَأْسَ إلـى مَحَلِّهـا مِنَ المائِـدَةِ، مُتَحَيِّـرًا كُلَّ الحَيْـرَةِ بَيْـنَ رَغْبَـةٍ جامِحَةٍ إلـى مَعْرِفَـةِ حَقيقَـةِ إخْلاصِ زَوْجِـهِ لَـهُ وبَيْـنَ داعِيَـةِ الجَهْـلِ حيطَـةً وحَـذَرًا.

يَنْتَهـي الأمْـرُ بِرِنـو إلـى العُـزوفِ عَـنْ وَضْـعِ نَفْسِـهِ تَحْـتَ الامْتِحان: فـي مَعْـرِضِ الحُـبِّ، ثَمَنُ الوُقـوفِ علـى الحَقيقَةِ، أو مُحاوَلَـةُ الوُقوفِ على الحَقيقَـةِ، أن يُخَلِّـيَ المَـرْءُ بَيْـنَ نَفْسِـهِ وَبَيْـنَ أنْ تَسْـتَوْليَ عَلَيْهـا الشُّـكوكُ والرِّيَـب.

علـى وَشْـكِ الإمْتِحـانِ، أدْرَكَ رِنـو أنَّـهُ لا يَسْـعى وَراءَ حقيقَـةٍ لا سَـبيلَ، أصْلًا، إلَيْها إلّا امْـرُؤٌ يَتَلَذَّذُ بالعَـذاب. فإنَّمـا شَـرْطُ الحُـبِّ المَشْـروطُ أنْ يَتَخَلّـى المُحِـبُّ عَـنْ طَلَـبِ اليَقيـن.

لا مَحَلَّ فـي الحُبِّ المُؤَسَّـسِ على الاحْتِـرامِ بَيْنَ الحَبيبَيْـنِ إلّا للثِّقَـةِ والاطْمِئْنـان. يَقولُ رِنو:

«حَسبِيَ ما في نَفْسـي مِنْ ثِقَـةٍ ومِـنِ اطْمِئْنان... لَقَـدْ كَفَياني فـي مـا مضـى، ولـي فيهمـا اليَـوْمَ ما أحْتاجُـهُ مِـنْ كِفايَـة.... نافِـلٌ، إذًا، أنْ أضَـعَ نَفْسـي تَحْـتَ الامْتِحان».

عِنْـدَ هـذا الجَـوابِ أجْهَـشَ الفارِسُ، مُضيـفُ رِنو، بالبُـكاءِ واعْتَـرَفَ لَهُ بـأنَّ الغَيْرَةَ هي مـا كانَ وَراءَ مـا بَيْنَـهُ وبَيْـنَ زَوْجِه مِـنْ فِراق.

فَلَقَد كانَ يَوْمًا أنْ تَسَـلَّطَ عَلَيْهِ الشَّـكُّ في خِيانَتِها إيّـاهُ واسْـتَبَدَّ بِـهِ الخَـوْفُ مِـنْ أن يُهْجَـرَ، فَشَـرَعَ يَمْتَحِـنُ إخْلاصَهـا لَـهُ بِكُلِّ أشْـكالِ الامْتِحان.

صَمَـدَ وَفـاءُ الـزَّوْجِ لِـكُلِّ ما نَصَبَـهُ لهـا زَوْجُها مِنْ أحابيـلَ وشِـراكٍ إلـى أنِ اقْتَـرَحَ عَلَيْـهِ أحَدُهُم أنْ يَدْفَـعَ إلَيها كَلْبًـا لَهُ يَخْـرَأُ ذَهَبًا وجَواهِـرَ لِقاءَ أنْ تَقْضِـيَ لَيْلَةً فـي فِراشِـهِ فَوافَقَت...

لا يَتَمَكَّـثُ أريوسـتو طَويـلًا عِنْـدَ فِكْـرَةِ الإفْسـادِ التـي يَتَسَـبَّبُ بهـا الجَشَـعُ إلـى مُراكَمَـةِ الثَّـرْوَةِ

والمـالِ بِمِقْـدارِ مـا يَتَمَكَّثُ عِنْدَ مَسْـؤوليَّةِ الزَّوْجِ الـذي تَسَـبَّبَ هـو نَفْسُـهُ، باسْـتيلاءِ وَسْـواسِ الخِيانَـةِ عَلَيْـهِ ــ خِيانَـةِ زَوْجَتِـهِ لـه.

أصْغـى رنـو إلـى اعْتِرافـاتِ الفـارِسِ ذي الـكأسِ الذَّهَـبِ ثُـمَّ عابَ عَلَيْهِ مـا اعْتَبَرَهُ خِفَّةً في سُـلوكِهِ وحَماقـةً. فالمَسْـؤوليَّةُ عمّـا كانَ مِـنْ أمْـرِ الفـارِسِ وَزَوْجِـهِ لا تُنْسَـبُ إلـى الـزَّوْجِ وإنَّمـا إلـى الفـارِسِ الـذي زَيَّـنَ لـه الكِـبْرُ والتَّجَبُّـرُ أنْ يَمْتَحِـنَ إخْلاصَ زَوْجِـهِ وصُمودَهـا أمـامَ المُغْرِيـات. كانَ الأوْلى بِهِ، بالفـارِسِ، أن يَقْهَـرَ داعِيَـةَ المِلْـكِ والحِيـازَةِ، وأنْ يَرْتَضـيَ بالسَّـكَنِ إلـى زَوْجِـهِ، علـى بَيِّنَـةٍ مِمّـا قَـدْ يَتَخَلَّـلُ هـذهِ العِشْـرةَ مِـنْ مُنَغِّصـاتٍ لَيْـسَ أقَلَّهـا فِـراقُ مـا بَيْنَ الزَوْجَيْـن. بِكلامٍ آخَـرَ، كانَ الأوْلى بِهِ أنْ يُسَـلِّمَ بِهشاشَـةِ الحُـبِّ وضَعْفِهِ أمـامَ الحادِثاتِ وأنْ يَدْفَـعَ عَنْـهُ التَّوَهُّـمَ بأنَّ رابِطَ الحُـبِّ لا انْحِلالَ لِوَثاقَتِـهِ وأنْ يُوَطِّـنَ نَفْسَـهُ علـى أنَّ العَلاقـاتِ بَيْـنَ البَشَـرِ لا تَخْلـو مِنْ أنْ يَشـوبَها الغُمـوضُ، ولا تَخْلو أنْ تُظَلِّلَهـا أحيانًـا ظِلالٌ مِنَ الشُّـكوكِ ومِنَ الظُّنون.

مِـنْ ثَـمَّ فَمَـنْ يَطْلُـبُ فـي مَقـامِ الحُـبِّ الشَّـفافيَّةَ التّامَّـةَ، والحَقيقَـةَ بالمُطْلَـقِ، إنَّمـا يُقَـوِّضُ بِيَدَيْـهِ أركانَ هـذا الحُـبِّ ويَخْنُـقُ، بِذَريعَـةِ المبالَغَـةِ فـي الحَـذْبِ، أنفاسَـه.

إلـى شَـيْءٍ شَـبيهٍ بِحِكْمَـةِ رِنـو تَنْتَهـي أُقْصوصَـةُ ثرفانتـس «فـي أنَّ الفُضـولَ عَيْـبٌ فـادِحٌ». تُصَـوِّرُ هـذِهِ الأُقْصوصَـةُ صَديقَيْـنِ مُتآخِيَيْـنِ هُمـا لوتيـر وآنْسِـلْم. يَتَـزوَّجُ آنْسِـلْم الفاتِنَـةَ كاميّـي، وَرَغْـمَ الهَنـاءَةِ التـي تُخَيِّـمُ علـى حياتِهِمـا وعلـى حُبِّهِمـا يَتَسَـلَّلُ الشَّـكُّ إلـى صَـدْرِهِ ويَبْـدَأُ بإيغـارِه: هَـلْ يَسْـتَقيمُ لامْـرأةٍ لَـمْ يُمْتَحَـنَ إخْلاصُهـا لِزَوْجِهـا قَطُّ أنْ تُوصَـفَ بالمُخْلِصَـةِ؟

«هـل يُعْقَـلُ أنْ يُحْمَـدَ مِنِ امْرَأَةٍ سُـلوكُها مِنْ قَبْلِ أنْ تُسَوِّلَ لَها نَفْسُها الزَّلَـلَ فَتَـتَأبّى عَنْه؟

هَـل يُعْقَـلُ أنْ تُمْـدَحَ لِتَواضُعِهـا وَخَفيـضِ جَناحِهـا طالَمـا أنَّ سـانِحَةَ التَفَلُّـتِ لَـمْ تَسْـنَحْ لهـا بَعْـدُ مَـعَ عِلْمِها بـأنَّ زَوْجَها لَـنْ يَتَـرَدَّدَ فـي قَتْلِهـا جَـزاءَ أيِّ فَلْتَـةٍ تَفَلَّـتُ مِنهـا؟ إنَّ المَـرْأَةَ الفاضِلَـةَ عَـنْ خَـوْفٍ وَرَهْبَـةٍ، العَفيفةَ عَياءَ عَشـيقٍ تُواعِدُهُ، لَيْسَـتْ عِنْدي

فـي شَـيْءٍ بَيْنَ يَـدَيِّ المَـرْأَةِ التي تَصُدُّ بِحَـزمٍ خُطّابَ الـوُدِّ مَهمـا بَلَغ إلْحاحُ هَـؤلاءِ الخُطّـابِ عَلَيْها وبَلَغَتْ مُناشَـداتُهُم إيّاهـا».

مُسَـلِّمًا أمْـرَهُ لِسُـلْطانِ الغَيْـرَةِ يَطْلُـبُ آنسِـلم مِـنْ صَديقِـهِ لوتيـر أنْ يُغَـرِّرَ بكاميّـي، امْتِحانًـا لأمانَتِهـا وإخْلاصِهـا. يُعـارِضُ لوتيـر صديقَـهُ فـي مـا يُريـدُهُ عَلَيْـهِ ويَحْشُـدُ لِثَنْيِـهِ عَـنْ مَطْلَبِـهِ حُجَجًـا تُسَـفِّهُ هـذا المَطْلَـبَ كُلَّ التَّسْـفيه: فـإنْ تَمَنَّعَـتِ الـزَّوْجُ المَشْـكوكُ بِهـا وحَفِظَـتْ ذِمَّـةَ زَوْجِهـا فَلَـنْ يَكونَ مِـنْ شَـأْنِ ذَلِـكَ أنْ يَزيـدَ مِـنْ حُبِّهـا لِزَوْجِهـا، وإنْ لَـمْ تَـتَمَنَّعْ وجـارَتِ المُغَـرِّرَ بِهـا فـي ما يُريـدُ فإنَّ الـزَّوْجَ، بافْتِعالِـهِ التَّغْريـرَ، يكـونُ قَـدِ افْتَـرى علـى نَفْسِـهِ واسْـتَجْلَبَ لَهـا العـار.

ويَزيـدُ لوتيـر علـى حُجَّتَيْـهِ هاتَيْـنِ حُجَّـةً ثالِثَـةً فيَسْتَشْـهِدُ بِمـا كانَ مِـنْ أمْـرِ رِنو وتَقديمِـهِ التَّرَوّي علـى خَـوْضِ امْتِحـانِ الـكأسِ الذَّهَـب:

«لَسَـوْفَ يَدمـى قَلْبُـكَ وَتَـذْرِفُ الدَّمـوعَ الحَـرّى إنْ سِـرْتَ علـى خِطَّتِـكَ هـذِهِ ويَكـونُ شـأنُكَ شـأنَ ذاكَ الـذي يَـروي لنـا أريوسـتو قِصَّتَـهُ فـي **رولان غضوبًـا**

عِلْمًا أنَّ رِنو، كما تَعْلَم، رَفَضَ الامْتِحانَ ورَفَضَ أنْ يَتَجَرَّعَ الخَمْرَ الذي في تلكَ الكأسِ المَسْحورَة. لَعَلَّ هذهِ القِصَّةَ مِنْ نَسْجِ الخَيالِ ولكنَّ فيها حِكْمَةً حَقُّها مِنّا التَّأَمُّلُ والاتِّباع».

يَكونُ هذا مِنْ لوتير ولكنَّ حِكْمَتَهُ تُخْفِقُ في أنْ تَكْتُبَ نِهايَةً سَعيدَةً لِقِصَّةِ حُبِّ آنْسِلْم وكامِيي. فما هي حَتّى يَقَعَ لوتير في حُبِّ كاميي، وتَقَعَ كاميي في حُبِّ لوتير، فَيَموتُ آنْسِلْم كَمَدًا ولا يَلْبَثُ العاشِقانِ أنْ يَموتا بِدَوْرِهِما.

مُسْتَبِقًا على مَوْتٍ لا مَفَرَّ مِنْهُ، يَكْتُبُ آنسلم على نِيَّةِ زَوْجِهِ كَلِماتٍ، يَعْتَرِفُ لها فيها بأنَّهُ السَّبَبُ في ما جرى:

«لَقَدْ كَلَّفني حَياتي عَيْبٌ فادِحٌ عُيِبْتُ بِه. إنْ بَلَغَ نَبَأُ مَوْتي كاميي فَلْتَعْلَم أنَّني صَفَحْتُ عَنْها: لا هي كانَ عَلَيْها أنْ تأتِيَ بالمُعْجِزاتِ ولا كانَ لي، أنا، أنْ أطْلُبَ مِنْها ذلك. وبِما أنَّني اسْتَجْلَبْتُ العارَ على نَفْسي، فَحَقّي أن...».

أقَلُّ ما يُقالُ في هذهِ الأُقْصوصَةِ أنَّها تُثْبِتُ، إنْ كانَ الأمْرُ يَحْتاجُ إلى إثْباتٍ، فِطْنَةَ ثرفانتس

فـي قـراءَة أريوسـتو. علـى أنَّـهُ، وفـي مـا يَتجـاوَزُ هذَيْـنِ العَلَمَيْـنِ، أريوسـتو وثرفانتـس، فـإنَّ أهـمَّ مـا فـي القِصَّتَيْـنِ المُسْتَشْـهَدِ بِهِمـا أنَّهُمـا، وإنِ اتَّخَذَتـا العَلاقـاتِ الغَرامِيَّـةَ مَوْضوعًـا، تَذْهَبـانِ في الخُلاصـاتِ التـي يُمْكِـنُ اسْـتِخْلاصُها مِنْهُمـا إلـى أبْعَـدَ مِـنْ هـذا القَبيـلِ مِنَ العَلاقـاتِ حَيْـثُ إنَّهُما، فـي العُمْقِ، تَأَمُّلاتٌ في مَسْـأَلَةٍ أوْسَـعَ هي مَسْـأَلَةُ التَّسـامُح: فلوتيـر، علـى خُطى رِنو وهَدْيـه، يَدْعونا أنْ نُسَـلِّمَ بـأنَّ الهَشاشَـةَ مَكْـتوبَةٌ فـي طَبيعَـةِ كُلِّ مـا نَفْتَحُـهُ مِـنْ فُتـوحٍ وَنَحـوزُهُ مِـنْ حِيـازاتٍ ومِـنْ أمـاراتِ هـذه الهَشاشَـةِ العُمْـرُ القَصيـرُ للبَشَـرِ والأشْـياءِ سـواءٌ بِسَـواء!

ومَهْمـا طَلَبْنـا مِـنْ أمْثِلَةٍ علـى الحُبِّ وَمَآلاتـهِ ومِنْ عَيِّنـات، فَلَـن نَنْتَهِـيَ إلّا إلـى الخُلاصَـةِ إيّاهـا: لا حُـبَّ على سَـبيلِ التَّمَلُّـكِ والحِيازة. ويُغالِطُ نَفْسَـهُ مَـنْ يَحْسَـبُ أنَّ بِوَسْـعِهِ أنْ يَحْبِـسَ الحُـبَّ فـي دائِـرَةٍ مُغْلَقَـةٍ وأنْ يُكْرِهَـهُ علـى قَضاءِ العُمْـرِ فيها: بِبَسـاطَةٍ، لا ما يَحْفَظُ الحُبَّ مِمّا هو مَكْـتوبٌ في

الطَّبيعَـةِ البَشَـرِيَّةِ مِنْ نُزوعٍ إلى التَّحَوَّلِ والتَّناسُـخِ، وهـذا مـا يَذْهَبُ إليه الفَيْلَسـوفُ الفَرَنْسِـيُّ ديدرو حَيْـثُ يَأْتـي تَحْـتَ قَلَمِـهِ فـي كِتابِـهِ **حاشِـيَةٌ علـى رِحْلَـةِ بوچانڤيل:**

«وَهَـلْ أخْـرَقُ مِـنَ التَّعاليـمِ التـي تَـنَفي مـا هـو مَكْـتوبٌ في طَبيعَتِنا مِنْ نُزوعٍ إلـى التَّبَدُّلِ والتَّغَيُّر؟ أَوْ هَـل أخْـرَقُ مِـنْ عَهْـدٍ بـ"الوَفـاءِ المُتَبـادَلِ"، مـدى الدَّهْـرِ، يَقْطَعُـهُ علـى نَفْسَيْهِما كائِنـانِ مِـنْ لَحْـمٍ ودَمٍ تَحْـتَ سَـماءٍ تُمْطِـرُ حينًـا وتَصْحـو حينًـا آخَـرَ، أو يُشْـهِدانِ عَلَيْـهِ صَخْـرَةً مَصيرُها، رَغْـمَ صَلابَتِها، أنْ تَـتَفَتَّتَ يَوْمًا، أو يُشْـهِدانِ عَلَيْهِ شُـجَيْرَةً لَنْ تَلْبَـثَ أنْ تَسْـمِقَ حتّـى لَتُضـارِعَ الغُيـومَ ارْتفاعًـا؟».

بَيْـتُ القصيـد: لا سَـبيلَ إلـى حَبْـسِ الحُـبِّ فـي الأقْفاصِ والزَّنازين، فَشـيمَةُ الحُبِّ التَّرْحالُ والسَّفَر. حَسْـبُنا، رُبَّمـا، لِنُـدْرِكَ المَقْصـودَ بِهـذا الـكَلامِ أنْ نَسْـتَحْضِرَ الصّـورَةَ الرّائِعَـةَ التـي اسْـتَخْدَمَها ريلكه فـي إحْـدى رَسـائِلِهِ الغراميَّـة:

«مَنْـزِلُ الحُـبِّ، إنْ لَـمْ يَكُـنْ لَـهُ بُـدٌّ مِـنْ مَنْـزِلٍ، راحَةُ كَـفٍّ مَبْسـوطَةٌ لَـهُ أنْ يَقِفَ عَلَيْهـا أو أن يَطير. أمّا إنِ انْقَبَضَـتْ هـذِهِ الكَفُّ فلا يُدْهِشَـنَّنا أنْ يموتَ الحُبُّ، وأن تَصيرَ مِنْـهُ كالتّابوتِ مِـنَ المَيِّت...».

فشَهْوَةُ المِلْكِ والحِيازَةِ تَقْتُل:

«نَظَراتُ المَرْءِ هي سِلاحُهُ الأَمْضى [...] وإن كُـتِبَ لأحَدٍ ما أنْ يُثْرِيَ فَلَيْسَتِ الثَّرْوَةُ ما قَدْ يَسْتَقِرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ لحينٍ مِنَ الزَّمَنِ ثُمَّ لا يَلْبَثُ مِنْ بَعْدِهِ أنْ يَتَبَخَّرَ، وإنَّما الثَّرْوَةُ كُلُّ ما يُمْكِنُ أنْ يَدْخُلَ في مِلْكِهِ وأنْ يَخْرُجَ مِنْهُ مَثَلَ الدَّخولِ إلى مَنْزِلٍ مِنْ بابِهِ والخُروجِ مِنْها. بِئْسَ أيْدينا إنْ تَحَوَّلَتْ إلى تَوابيتَ نُسْجّي فيها ما نَمْلِك. حَقُّ أيْدينا وشَرَفُها أنْ تَكونَ أسِرَّةً تَنامُ فيها الأشياءُ نَوْمَ الهَناءِ سابِحَةً في أحْلامِها... حَقُّها أنْ تَكونَ أسِرَّةً وَثيرةً تُعَبِّرُ فيها الأشياءُ خِلالَ نَومِها، وخِلالَ أحْلامِها، عَنْ حَميمِيّاتِها الأعَزِّ ودُخْلُلِها المَحْجوبِ عَنِ الأنظارِ [...] فَقَرينُ المِلْكِ والحِيازَةِ الفَقْرُ والقَلَقُ أمّا المِلْكُ والحيازَةُ في مَعْزِلٍ من الفَقْرِ والقَلَقِ فَمَقامٌ لا يَبْلُغُ إلَيْه إلّا مَنْ مَلَكَ وحازَ وأحْسَنَ التَّخلّي عَمّا مَلَكَهُ وحازَه».

في أنَّ امْتِلاكَ الحَقيقةِ وحيازَتَها قَتْلٌ للحَقيقَة

بَيْنَ الحُبِّ والحَقيقَةِ مَسافَةُ خُطْوَةٍ أو أقَلّ. فَلْنَسْتَحْضِر أسْطورَةَ إروس بِروايَةِ أفلاطون

وهـي الأُسْـطورَة التـي ذاعَ صيتُهـا كُلَّ الذُّيوع لا سِـيَّما فـي عَصْـرِ النَّهْضَـةِ الأُوروبِـيّ.

فـي الحِوارِيَّـةِ المَوْسـومَةِ بـ **المَأدُبـة** يُقـارِن الفَيْلَسـوفُ «الحُـبَّ» بـ«الفَلْسَـفَة». كلاهمـا يَخْضَـعُ لحُكْـمِ الأضْدادِ في الْتِقائِهِمـا وافْتِراقِهِما المُتَّصِلَيْـنَ إلـى مـا لا نِهايـة.

تُفَصِّـلُ خُرافَـةُ مَوْلِدِ إروس التـي تَقُصُّها الكاهِنَةُ ديوتـوم وَيَرْويهـا أفلاطـون فـي **المَأدُبـة** بِسَـنَدِ سـقراط ــ تُفَصِّـلُ وَجْـهَ الشَّـبَهِ بَيْـنَ الاثْنَيْـنِ علـى أفْضَـلِ مـا يكـون:

خِلالِ احْتِفـالٍ بِمَوْلَـدِ أفروديـت، (رَبَّـةِ الحِكْمَةِ عِنْـدَ الإغريـق)، يَقْتَـرِنُ بـوروس، (رَبُّ الثَّـرْوَة)، وقـد أسْـكَرَهُ مـا احْتَسـاهُ مِـنْ رَحيـقٍ بِنْيـا (رَبَّـةِ العَـوَزِ): مِـنْ هـذا الفِـراشِ يُولَـدُ إروس الـذي يَـرِثُ عـن أبَوَيْـهِ طَبيعَتَيْهِمـا المُتعارِضَـةِ، ومِـنْ ثَـمَّ يُقَـدَّرُ لَـهُ أنْ يُعْـوِزَهُ كُلُّ شَـيْءٍ وأنْ يَنْعَـمَ بِـكُلِ شَـيْء. كذلـكَ، ولأنَّ إروس لَيْـسَ بالفانـي

ولا بالمُخَلَّـد، ولأنَّـه لَيْـسَ بالمُعْـوَزِ ولا بالغَنِـيِّ، يَتَرَتَّـبُ عَلَيْـهِ أنْ يَضْطَلِعَ بِـدَوْرِ «الوَسـيطِ»، وبِهـذا المَعْنـى يَنْعَقِـدُ الشَّـبَهُ بَيْنَـهُ وبَيْـنَ الفَيْلَسـوفِ المُعَلَّـقِ حُكْمًـا، وعلـى الـدَّوامِ، بَيْنَ الحِكْمَـةِ والجهالَـة.

بَـلْ أكْـثَرُ مِـنْ ذلِـكَ: فـي مَحَـلٍّ وَسَـطٍ بَيْـنَ الآلِهَـة الذيـن تُغْنيهـم أُلوهِيَّتُهُـم عَـنْ طَلَـبِ الحِكْمَـةِ ونُشْـدانِها، وبَيْـنَ الجَهَلَـةِ الذيـن يُغْنيهـم تَوَهُّمُهُـم امْتِلاكَ الحِكْمَـةِ عَـنْ طَلَبِهـا ونُشْـدانِها، لا يَجِدُ الفَيْلَسـوفُ المُحِـبُّ للحِكْمَةِ حـقَّ المَحَبَّـةِ لِنَفْسِـهِ مَفَـرًّا مِـنَ السَّـعْي، بـلا كَلالَـةٍ، إلـى مُداناةِ الحِكْمَـةِ والاقْتِـرابِ مـا أمْكَـنَ مِنْهـا.

بأُسْـلوبٍ مُبْتَكَـرٍ يَسْـتَعيرُ جيوردانـو برونـو صورةَ الفَيْلَسـوفِ طالِـبِ الحِكْمَـةِ، المُثابِـرِ، خاطِـبِ وُدِّهـا مِـنْ غَيْـرِ بـأسٍ ولا قُنوطٍ ــ يَسْـتَعيرُ هذهِ الصّـورَةَ ويَجْلوهـا حتّـى آخِـرِ مـا يُمْكِـن لِجَلْواها أنْ تُفْضِـيَ إلَيْـهِ مِـنْ نَتائِـج.

يَسْتَوْحي برونو في كِتابِهِ **الغَضْبات البُطوليّة** أساليبَ الشِّعْرِ الغَزَلِيِّ مُوَظِّفًا إيّاها لِبَيانِ ما يَكْدَحُهُ طالِبُ الحِكْمَةِ مِنْ كَدْح. وبِلِحاظِ أنَّ تَقْبيلَ ثَغْرِ الحَبيبِ المُتَمَنِّعِ هو غايَةُ العاشِقِ الوَلْهان، يُؤَوِّلُ برونو القُبْلَةَ مُؤَوِّلَ الرَّمْزِ مِمّا يَنْشُدُهُ الفَيْلَسوفُ «الغَضِبُ» في سَعْيِهِ البُطوليِّ إلى الحِكْمَة.

مَحْمولًا على مَتْنِ الشَّوْقِ المَحْمومِ الذي يُشَوِّقُ العاشِقَ الوَلِهَ إلى ما يَصْبو إلَيْهِ، يَتَحَوَّلُ طَلَبُ الحِكْمَةِ إلى شَيْءٍ أشْبَهَ بالطِّرادِ الذي تَرْفِدُهُ روحٌ قِتالِيَّةٌ مَشْبوبَة:

> «كُلّما بدا للمَرْءِ أنَّ في الأُفُقِ حَقيقةً أهْلٌ لأنْ تُعْرَفَ وخَيْرًا أهْلٌ لأنْ يُسْتَجْلَبَ، عادَ عَوْدَهُ واسْتأنَفَ سَعْيَه طَلَبًا لِتِلْكَ الحَقيقَةِ واسْتِجْلابًا لِذَلِكَ الخَيْر. ولا نِهايَةَ لِهذا الطَّلَبِ عِنْدَ حَقيقَةٍ مُحَدَّدَةٍ ولا نِهايَةَ لهذا الاسْتِجلابِ عِنْدَ خَيْرٍ مُعَيَّن».

هكذا، يَنْزِلُ طَلَبُ الحِكْمَةِ عِنْدَ برونو مِنْ عَلْيائِهِ ويَتَحَوَّلُ إلى فِعْلٍ بَشَرِيٍّ عَقْلانِيٍّ لا مَحَلَّ فيهِ للمُعْجِزاتِ أوِ الخَوارِقِ، ولا للسِّحْرِ

أوِ للشَّـطْحِ أوْ مـا شـابَهَ مِـنْ زيجاتٍ إلَهيَّـةٍ أو مِـنْ وعـودٍ بِحَيَـواتٍ أُخْرَوِيَّةَ: لا مُسَـكِّنَ لِشَـوْقِ المُشْـتاقِ الغَضِـبِ، ولا مُهَـدِّئَ، لِسَـبَبٍ في غايَةِ البَسـاطَةِ: الكائِـنُ البَشَـرِيُّ مَحْـدودٌ مُتناهٍ، أمّـا المَعرِفَـة فَغَيْـرُ مَحْـدودَةٍ ولا مُتناهِيَـةً!

علـى أنَّ الأمْـرَ لا يَقِـفُ عِنْـدَ هـذا الحَـدّ. فالمُفارَقَـةُ المُفارَقَـةُ هي أنَّ التَّوَتُّـرَ الحاكِمَ على عَلاقَـةِ الإنْسـانِ المُتناهـي بالمَعْرِفَـةِ اللّامُتناهِيَةِ هـو مـا يُمْكِـنُ أنْ يَرْتَقـيَ بِهـذا الإنْسـانِ نَفْسِـهِ إلـى أعْلـى مَـدارِجِ المَعْرِفَةِ، وأنْ يَغـوصَ بِهِ إلى أَعْمَـقِ أسْـرارِ الطَّبيعَـةِ، وأن يُنْعِمَ عليـهِ بالقُدْرَةِ علـى أنْ يُبْصِـرَ بِعَيْـنِ العَقْـلِ ما يُنَظِّـمُ بَـدَدَ العالَـمِ وتَبَعْثُـرَهِ فـي نِظـامٍ واحِـدٍ تَرْعـاهُ مبادِئُ كُلِيَّة .

ولأنَّ وَعْـيَ الإنْسـانِ وإدْراكَـهِ اسْـتِحالَةَ التَّوَحُّـدِ بالحِكْمَـةِ أو ضَيِّهـا تَحْـتَ جَناحِـهِ هـو مـا يُتَيِّـمُ الفَيْلَسـوفَ ويَبْعَـثُ فيـهِ روحَ الفَتْحِ والقِتـال، فـإنَّ المُعَـوَّلَ عَلَيْـه لـدى برونـو لَيْـسَ تَحْصيـلَ

تِلْكَ المَعْرِفَةِ والحِكْمَةِ اللّامُتَناهِيَتَيْنِ وإنَّما سُلوكُ السّالِكِ إلَيْهِما وَصِفاتُهِ وخِصالُه.

بِكَلامٍ آخَرَ، الفَلْسَفَةُ لدى برونو هي قُدْرَةُ الفَيْلَسوفِ على البِرِّ بِما تَعْنيهِ حَرْفِيًّا لَفْظَةُ فَلْسَفَة ـ هي قُدْرَتُهُ على حُبِّ الحِكْمَةِ والمُثابَرَةِ على ذلك.

غايَةُ الصَّيْدِ، على ما يَعْرِفُ بالخِبْرَةِ كُلُّ ذي أحَدٍ تعاطى الصَّيْدَ، وعلى ما يُذَكِّرُنا دو مونتنيه في إحْدى أجْمَل صفحاتِ كِتابِهِ **المُحاوَلات** ـ غايَةُ الصَّيْدِ مُلاحَقَةُ الطَّريدَةِ بَل قُلْ طِرادُها:

«الطِّرادُ والصَّيْدُ قِسْمَتُنا ولا عُذْرَ لنا بأنْ نُسيءَ تَدَبُّرَهُما أمّا أنْ يُفْلِحَ الواحِدُ مِنّا في قَنْصِ الطَّريدَةِ أو ألّا يُفْلِحَ فَشَأْنٌ آخَر. لَقَد رُتِّبْنا في هذا العالَمِ لِنَنْشِدَ الحَقيقَةَ؛ أمّا حِيازَتُها فَلِذي سُلْطانٍ واقْتِدارٍ لَيْسا مِنّا في شَيْءٍ [...]. وإنَّما هذا العالَمُ مَدْرَسَةٌ نَتَعَلَّمُ فيها أنْ نَتَحَرّى عَنِ الأشياء، والنّابِغُ في هذه المَدْرَسَةِ لَيْسَ المُتَفَوِّقَ في نَصْبِ الفِخاخِ بَلْ المُتَفَوِّقُ في الطِّراد...».

لِكَـيِ نَفْهَـمَ مُقَدِّمـاتِ برونـو ودو مونتينـه وخُلاصاتِهِمـا عَلَيْنـا أنْ نَتَذَكَّـرَ بأنَّهُما عاشـا الحُروبَ الدّينيَّـةَ التي عَصَفَتْ بأُوروبّا وشَـهِدا مآسـيها وَرَأَيا رأيَ العَيْـنِ كَيْـفَ حَـوَّلَ الاقْتِنـاعُ بامْتِـلاكِ الحَقيقةِ وحِيازَتِهـا الكنائِـسَ إلى غُرَفِ عَمَلِيّاتٍ تُديرُ أعمال العُنْـفِ والإرْهـاب.

لَقَـد لَمَـسَ الإثْنانِ لَمْـسَ اليَدِ كَـيْفَ أدّى التَّعَصُّبُ إلـى هَـلاكِ الآلافِ مِـنَ الأبْريـاءِ العُـزَّلِ وكَيْفَ أدّى إلـى اسْـتِدْخال المَـوْتِ والخَرابِ إلـى كُلِّ مَرافِـقِ المُجْتَمَـعِ، بِمـا فيهـا الأُسْـرَةُ الواحِـدَة. كانَ هـذا رَغْـمَ مـا سَـبَقَ لإيراسـموس(*) أنْ بَيَّنَـهُ فـي دِفاعِـهِ المُسْـتَميتِ عَـنِ السَّـلامِ مِـنْ أنَّ التَّوَسُّـلَ بالعُنْـفِ وبالخُشـونَةِ لَيْـسَ مِـنَ الدّيـن فـي شَـيْءٍ بَـلْ هـو علـى النَّقيـضِ مِـنَ الدّيـن وجَوْهَـرِهِ:

«لَيْـسَ فـي النُّصـوصِ التـي يُؤْمِـنُ بِهـا المَسـيحيّونَ، لَيْـسَ فـي العَهْـدِ القديـم ولا فـي العَهْـدِ الجَديد، إلّا الدَّعْـوَةُ إلـى السَّـلام وإلـى ائْتِلافِ القُلـوب. علـى

(*) ديزيديريـوس إراسـموس، (١٤٦٦ ـ ١٥٣٦)، عالِمٌ هولَنْـدِيٌّ مِـنْ أرْكانِ عَصْـرِ النَّهْضَـةِ الأوروبِيّ.

الرَّغْمِ مِنْ ذلك، يَقِفُ بَعْضُ المَسيحيّين حياتَهُم على الحَرْبِ والقِتال».

بِكَلِماتٍ بَسيطَةٍ يَضَعُ إيراسموس يَدَهُ على جُرْحٍ آلَمَ المَسيحيّينَ لِقُرونٍ خَلَتْ غَيْر أنَّهُ ما يَزالُ جُرْحًا فاغِرًا لدى كثيرٍ آخَرين. فالتَّعَصُّبُ جُرثومَةٌ مُلازِمَةٌ للأدْيانِ، كُلِّ الأدْيانِ، ولا يَغُرَّنَنا ما يَكونُ أحْيانًا مِنْ دُخولِ هذهِ الجُرْثومَةِ في النَّوْمِ أوِ الغَيْبوبَة...

فباسْمِ اللَّهِ، سَلَّمَ مَنْ سَلَّمَ وأنْكَرَ مَنْ أنْكَر، باسْمِ اللَّه، على مَرِّ الحِقَبِ، وفي شَتّى البُلْدانِ، ارتُكِبَ ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصى مِنْ جرائِمَ ومِنْ مَجازِرَ ومن إباداتٍ ومن اغْتِيالات، وباسْمِ اللَّهِ أُتْلِفَ ما أُتْلِفَ مِنْ عُيونِ الفَنِّ، وأُحْرِقَ ما أُحْرِقَ مِنَ مَكْتَباتٍ، وأُعْدِمَ مَنْ أُعْدِمَ مِنْ عُلماءَ ومِنْ فَلاسِفَةٍ كانَ لَهُمُ الفَضْلُ الجَزيلُ في تَطويرِ المَعارِفِ والعُلوم.

لِنَتَذَكَّرَ ما كانَ في ١٧ شباط (فبراير) ١٦٠٠

مِـنْ إعْـدامِ جوردانـو برنـو حَرْقًـا فـي سـاحَةٍ عامَّـةٍ مـن سـاحاتِ رومـا بأمْـرٍ مِـنْ مَحْكَمَـةِ التَّفْتيـشِ، ولنَتَذَكَّـرِ العَذابـاتِ التـي أُنْزِلَـت فـي جنيـف، سَـنَةَ ١٥٥٣، بميغيـل سـيرڤيت(*) بأمْـرٍ مِـنَ المُصْلِـحِ الدِّينِـيِّ كالڤـن(**). ولكـنْ فَلْنَتَذَكَّرْ أيْضًـا أنَّ كُلَّ أحْـكامِ الإعْـدامِ التـي يُمْكِـنُ أنْ تَنْطِـقَ بِهـا مَحْكَمَـةُ تَفتيـشٍ أو يُمْكِـنُ أنْ يَنْطِقَ بِهـا فَقيـهٌ مُتَألِّـهٌ لا تَمْحـو كَلِمـاتِ سيباسـتيان كاسـتليون(***) فـي الرِّسـالَة التـي وَضَعَهـا فـي المُخالَفَـةِ علـى كالڤـن:

«مَـنْ يأمُـرْ بإحْـراقِ إنْسـانٍ بِحُجَّـةِ الصُّـدوعِ لأحْـكامِ إيمانِـهِ وعَقيدَتِـه إنَّمـا يُحْـرِقُ نَفْسَـه. ومَـنْ يَقْتُـلْ دِفاعًـا عـن عَقيـدةٍ لا يُدافِـع عَـنْ عَقيـدَةٍ بَـلْ يَقْتُـل.

(*) ميغيـل سـيرڤيت، لاهوتِـيٌّ وعالِـمٌ وطَبيـبٌ ومُتَرْجِـمٌ كانَ مَوْلِـدُهُ فـي إسـبانيا فـي ١٥١١، وكانَ إعْدامُـهُ حَرْقًـا بِسَـبَبٍ مِـنْ آرائِـهِ اللّاهوتِيَّـةِ سَـنَةَ ١٥٣٣ فـي جنيـف.

(**) جـان كالڤـن، (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤)، مُصْلِـحٌ دينِـيٌّ ولاهوتِـيٌّ فَرَنْسِـيٌّ اسْـتَوْطَنَ جنيـف سَـنَةَ ١٥٤١ وأجْـرَى فيهـا حُكْمَـهُ تَبَعًـا لآرائِـه.

(***) سيباسـتيان كاسـتليون، لاهوتِـيٌّ كانَ مَوْلِـدُهُ بِفَرَنسـا عـام ١٥١٥ وكانَـتْ وفاتُـهُ ببـازل السّويسـريَّةِ عـام ١٥٦٣، عُـرِفَ بِمُنافَحَتِـهِ عَـنْ حُرِّيَّـةِ الـرَّأْي وَدَعْوَتِـهِ إلـى التَّسـامُحِ الدِّينـيّ.

يَـوْمَ قَتَـلَ أهْلُ جنيڤَ ميغيل سـيرڤيت، لَـمْ يُدافعوا عَـنْ عقيـدةٍ بَـلْ قَتَلـوا نَفْسًـا زَكِيَّة».

هـو كذلـكَ رَغْـمَ ما فـي الأمْرِ مـن مُفارَقَةٍ: باسْـمِ الحَقيقَـةِ المُطْلَقَـةِ تُرْتَكَـبُ أشْـنَعُ الجَرائِـمِ بِحُجَّةِ أنَّها الشَّـرْطُ المَشْـروطُ لِصَلاحِ البَشَـرِيَّةِ وخَيْرِها!

علـى أنَّـهُ ففـي هـذا المَقـامِ أيْضًـا لا مـا يَتَصَـدّى للتَّعَصُّـبِ والتَّزَمُّـتِ كَمِثْـلِ الآدابِ التـي تَأْخُـذُ علـى عاتِقِهـا أنْ تُثْبِـتَ، بالكَلِمَةِ، أنَّ وَهْـمَ امْتِلاكِ الحَقيقَـةِ المُطْلَقَـةِ وحيازَتِهـا، حتّـى فـي مَجـالِ الإلهِيّـاتِ مَفْضـاهُ إلـى تَقْويـضِ الدّيـنِ وإلـى تَهافُـتِ الحَقيقـة؛ ويَذْهَـبُ تَفْكيـري مِـنْ بـابِ التَّمْثيـلِ علـى مـا تَقَـدَّمَ إلـى كاتِبَيْـنِ عَظيمَيْـنِ اثْنَيْـن صَـرَّفَ كُلٌّ مِنهُما، على طَريقَتِه وبأُسْـلوبِهِ، قِصَّـةً مَعْروفَـةً مِمّـا يُثْبِـتُ أنَّ صَفْحَةً واحِـدَةً مِنْ أثَـرٍ أدَبِـيٍّ أبْعَـدُ أثَـرًا أحْيانًا مِـنْ مُطالَعَةٍ مُسْـهَبَة. أمّـا القِصَّةُ التي أعْني فَتِلْـكَ المَعْروفَةُ بـ«الخَواتِمِ الثّـلاث» التي ضَمَّنها بوكاتشـو فـي **الدّيكاميرون**، (الأيّـام العَشْـرَة)، والتـي اسْـتَأْنَفَ كِتابَتَهـا، بَعْـدَ

أَرْبَعَمِئَـةِ سَـنَةٍ، الألمانـيُّ لِسِـنْج(*) في مَسْـرَحِيِّته «ناثـان الحكيـم».

فـي الأُقْصوصَـةِ الثَّالِثَةِ مِـنْ أقاصيصِ اليَـوْمِ الأَوَّلِ مِـنَ **الدّيكاميرون** يَسْـتَدْعي سُـلطانُ مِصْرَ، صلاحُ الديـن، إلى بَلاطِـهِ الثَّـرِيَّ اليَهوديَّ مِلْشيسِـدِتش لِيَسْـتَفْتيهِ أيًّـا مِـنَ الدِّيانـاتِ الثَّلاثِ، (اليَهوديَّـةِ والمَسـيحيَّةِ والإسْـلام)، هـيَ الدّيـنُ الصَّحيح.

يَتَوَجَّـسُ الرَّجُـلُ مِـنْ وَراءِ السُّـؤالِ فَخًّـا مَنْصوبًـا لَـهُ فَيُؤْثِـرُ بِحِكْمَتِـهِ أنْ يَسْـتَعيضَ عَـنِ الجَـوابِ المُباشَـرِ عَـنْ هـذا السُّـؤالِ المُشْـكِلِ بحِكايَـة: تَقـولُ الحِكايَـةُ إنَّ أبًـا أَوْصـى يَوْمًا، فـي عِدادِ ما أَوْصـى بِـهِ لابْنِـهِ الذي اصْطفـاهُ وَريثًا لَـهُ، بِخاتَمٍ مِـنْ ذَهَـب.

مِـنْ إذّاكَ اخْتَلَـفَ علـى وِراثَـةِ هـذا الخَاتَـمِ مِنَ الأبْنـاءِ وأبْنـاءِ الأبْنـاءِ وأبْنـاءِ أبْنـاءِ الأبْنـاءِ مَـنِ

(*) إفرايـم لِسِـنْج، (١٧٢٩ ـ ١٧٨١)، كاتِـبٌ وفَيْلَسـوفٌ وناقِـدٌ فَنِّـيٌّ أَلْمانِـيٌّ مِـنْ أرْكانِ عَصْـرِ التَّنْويـرِ الأُوروبِيّ.

اعْتُبِـرَ الأوْلـى بالوِراثَـةِ ودَرَجَ الأمْـرُ علـى هـذا النَّحْـوِ أجْيـالًا إلـى أنْ اسْـتُقْبِلَ أحَـدُ الآبـاءِ بِمـا لَيْـسَ فـي الحُسـبان. فَلَقَـدْ أنشَـأَ هـذا الأبُ ثلاثَـةَ أبْنـاءٍ صالحيـنَ مُطيعيـنَ أحَبَّهُـم بالقَـدْرِ نَفْسِـه... فَكَيْـفَ لَـهُ، وهـو كذلـك، وَهُـمْ كذلكَ، أنْ يُكافِئَهُـم والخَاتَـمُ لا ثاني لَـهُ ولا ثالث؟ على سَـبيلِ حُسْـنِ التَّخَلُّـص طَلَـبَ الأبُ مِـنْ صائِـغٍ صَنـاعٍ أنْ يَعْمَـلَ لَـهُ نَسْـخَتَيْنِ طِبْـقَ الأصْـلِ مِـنَ الخَاتِـمَ المَـوْروث. وإذْ شَـعَرَ الأبُ بِدُنُـوِّ أجَلِـهِ اسْـتَدْعى أبنـاءَهُ واحِدًا واحِدًا وائْتَمَـنَ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُـم علـى خَاتَـمٍ بِوَصْفِـهِ الـ «خاتَـم».

ثُـمَّ مـا هِـيَ، مِـنْ بَعْـدِ أنْ مـاتَ الأبُ، وأنِ ادَّعى كُلٌّ مِنْهُـم أنَّـهُ الوَريثُ المُسَـمّى، أنْ تَبيَّنَ للأبْناءِ مـا احْتالَـهُ أبوهُم مِـنْ حيلَةٍ:

«أمّـا وأنَّ الخَواتِـمَ الثَّلاثَـةَ تَشـابَهَتْ حَـدَّ اسْـتِحالَةِ التَّمْييـزِ بَيْنَهـا ومَعْرِفَـةِ أيِّهـا هـو الأصْلِـيُّ، فَلَقَـدْ تَعَـذَّرَ تَعْييـنُ الوَريـثِ الوَريـثِ، فَعُلِّـقَ الأمْـرُ ومـا يَـزالُ إلـى يَومِنـا هـذا مُعَلَّقًـا. مَثَـلُ هَـؤلاءِ الأبْناءِ، يـا مـولايَ، مَثَـلُ الشَّـرائعِ الثَّـلاثِ التي أنْزَلَهـا الرَّبُّ

علـى الأُمَـمِ الثَّـلاث [...] كُلُّ أُمَّـةٍ مِنها تَحْسُـبُ نَفْسَـها الوَريـثَ المُسَـمّى، الحافِظَـةَ للشَّـريعَةِ، الآمِـرَةَ بِمَعْروفِها، النّاهِيَـةَ عَنْ مُنكَرِها. ولكِنْ، أيٌّ مِنْهـا هـيَ الوَريثُ الوَريث؟ شَـأْنُ الخواتِـمِ الثَّلاثَةَ، لا سَـبيلَ إلـى الجَـزْمِ أيُّ واحِـدٍ مِنْهـا هـو الخَاتَـمُ الأَصْلِـيّ».

أفْلَحَـتْ حِنْكَـةُ مِلْشيسِـدِتش فـي إرْضـاءِ السُّـلْطانِ وبِوُسْـعِها أيْضًـا أنْ تُسَـكِّنَ مِـنْ قَلَقِنـا ومِـنْ هَواجِسِـنا: لَيْـسَ لِبَنـي البَشَـرِ أنْ يَفُكّـوا، بِمـا تَحْـتَ يَدِهِـم مِـنْ وَسـائِلَ بَشَـرِيَّةٍ، ألْغازًا لا يَمْلِـكُ حَلَّهـا إلّا اللّـه وَحْـدَه. لَمْ تَـكُنِ المَسْـأَلَةُ التـي يَتَصـدّى لَهـا بوكاتشـو بِغَريبَـةٍ عَـنْ عَصْـرِه وَلَـكِنَّ فَضْلَـهُ فـي ما يَقْتَرِحُـه مِـنْ مُعالَجَـةٍ تَنْتَهـي بأيْسَـرِ مَنْطِـقٍ إلـى الدَّعْوَةِ إلـى الاحْتِرامِ المُتَبـادَلِ بَيْـنَ البَشَـرِ والتَّسـامُحِ والتَّعايُـشِ ومـا إلـى ذلـكَ مِـنْ قِيَـم.

علـى خُطـى بوكاتشـو، وبَعْـدَ قُـرونٍ عَلَيْـهِ، يَمضـي لِسِـنْچ، فـي رائِعَتِـه **ناثـان الحكيـم**، فـي رِحْلَـةِ البَحْـثِ عَـنِ التَّـوازُنِ بَيْـنَ بَنـي البَشَـر.

رِوايَـةُ لِسِنْچ، فـي **ناثـان الحكيـم**، كَرِوايَـةِ بوكاتشـو: يَهـوديٌّ أيْضًـا ولكـنْ يَهـودِيٌّ مَوْسـومٌ بسِـماتِ عَصْـرِهِ حَيْـثُ إنَّـهُ يُوَجِّـهُ الأبْنـاءَ الثَلاثَةَ المُخْتَلِفيـنَ علـى إرْثِ أبيهِـم إلـى قـاضٍ ليَحْكُـمَ بَيْنَهُـم فيَرْتـأي القاضي مِنْ بَعْدِ أنْ سَـمِعَ القَضِيَّةَ أن يَنْصَـحَ للأبْناءِ الثَّلاثَـةِ أنْ يَدَعَ كلٌّ مِنْهُم الأمورَ تَجْـري علـى سَجِيَّتِها وأنْ يَعْتَبِـرَ أنَّ الخاتَمَ الذي آلَ إلَيْـهِ مِـنْ أبيـهِ هـو الخاتَـمُ الأصْلِـي:

«لَعَـلَّ القَصْـدَ الـذي قَصَـدَ إلَيْـهِ أبوكـم ألّا يَطْغـى علـى الميـراثِ مِـنْ بَعْدِهِ صاحِـبُ الخَاتَـمِ الوحيد. لا رَيْـبَ أنَّـهُ أحَبَّكُـم بالسَّـوِيَّةِ [...] مِنْ ثَـمَّ فَلْيَجْهَدْ كُلُّ واحِـدٍ مِنْكُـم بـأنْ يَكونَ على قَـدْرِ الفُصِّ الـذي يُزَيِّنُ خاتَمَـهُ فَيَعُـمُّ الخَيْـرُ الجَميع».

مَقولُـهُ: طالَمـا أنَّهُ مِنَ المُتَعَذِّرِ إثْبـاتُ الدّينِ الحَقِّ فَلْيُحـاوِلْ كُلُّ صاحِـبِ ديـنٍ أنْ يَتَوَسَّـلَ بِمَلَـكاتِ دينِـهِ ليُبَشِّـرَ بِـهِ، وليَمْتَحِـنَ طاقَتَـهُ علـى نَشْـرِ المَحَبَّـةِ والتَّضامُـنِ والسَّـلام. شـأنَ الفَلْسَـفَةِ، علـى كُلِّ ديـنٍ مِـنَ الأديـانِ أنْ يَرتضـيَ أنْ يكـونَ نَمَـطَ عَيْـشٍ وأُسـلوبَ حياة. بذلِـكَ لا تَطْغى أيُّ فَلْسَـفَةٍ

مِـنَ الفَلْسَـفاتِ، ولا يَطْغـى أيُّ ديـنٍ مِـنَ الأدْيـانِ، بذريعَـةِ امْتلاكِ الحَقيقَـةِ المُطْلَقَةِ الصّالِحَةِ للبَشَـرِ كافَّـة. فأيُّمـا أحَـدٍ، مِنْ فَـرْدٍ أو مِـنْ جَماعَـةٍ، يَأْنَسُ مِـنْ نَفْسِـهِ امْتِـلاكَ الحَقيقَـةِ دونَ سـواه، لا يَتَأَخَّـرُ عَـنْ تأويـلِ مِلْكِـهِ هَـذا مُؤَوِّلَ الواجِـبِ المَوْجوبِ عَلَيْـهِ بـأنْ يُعَمِّـمَ هـذه الحَقيقَـةَ علـى الآخَريـنَ بِزَعْـمِ هِدايَتِهِـم إلـى الصِّراطِ المُسْـتَقيمِ وَلَـوِ اقْتَضـاهُ تَعْميمُهـا علـى هَـؤلاءِ الآخريـنَ التَّوَسُّـلَ بالقُـوَّةِ والشِّـدَّة. فـلا اسْتِمسـاكَ بِعَقيدَةٍ مَـعَ الظَّنِّ بأنَّهـا الأصْـدَقُ لا يَنْتَهـي إلـى شَـيْءٍ مِـنَ التَّعَصُّـب: مِـنَ التَّعَصُّـبِ الأخْلاقِـيِّ أو الدِّينيِّ أو السِّياسِـيِّ أوِ الفَلْسَـفِيِّ أو العِلْمِـيِّ. مِـنْ ثَـمَّ لا مُبالَغَـةَ قَـطُّ فـي اسْـتِخلاصِ الخُلاصَـةِ التّالِيَة: كُلُّ ذي أحَـدٍ يَحْمِلُ ما يَحْسُـبُهُ حَقيقَـةً على مَحْمَـلِ الحَقيقَةِ الفَـرْدِ، قامِعٌ للبَحْـثِ عَـنِ الحَقيقَـةِ قاتِـلٌ لها.

فَمَـنْ يَسـتَكينُ إلى وَهْمِ امْتِـلاكِ الحَقيقَةِ وَحِيازَتِها يَسْـتَغْني حُكمًـا عَنْ طَلَبِها وَيَسْـتَغْني عَـنْ مُحاوَرَةِ الآخَريـن وعَـنِ الإصْغـاءِ إلـى مـا لَدَيْهِـم مِـنْ أفْكارٍ

وعَـنْ وَضْعِ نَفْسِـهِ تَحْتَ امْتِحـانِ التَّنَـوُّعِ وَمُجَرَّبِه. وَحْدَهُ مَـنْ يُحِـبُّ الحَقيقةَ يَسْـعى إلَيْها بِـلا كَلالَة. ولأنَّـهُ كذلـكَ فالشَّـكُّ لَيْـسَ عَـدُوَّ الحَقيقَـةِ بَـل الدّاعِيَـةُ إلى الاسْـتمرارِ فـي طَلَبِها ونُشْـدانِها. ومِنْ هُنـا فـإنَّ مَـنْ يُؤْمِـنَ حَـقَّ الإيمـانِ بـأنَّ الحَقيقـةَ قيمَـةٌ عُلْيـا لا يَتَـرَدَّدُ عَـنِ المُثابَـرَةِ علـى وَضَـعِ مـا يَتَحَصَّـلُ لَدَيْـهِ مِـنْ حقائِـقَ علـى مِحَـكِّ الشَّـكِّ ولا يَتَأَخَّـر. وَعَلَيْـهِ أيْضًـا وأيْضًـا فـإنَّ شَـرْطَ التَّسـامُحِ المَشْـروطَ هـو أنْ يُنْكِرَ المَرْءُ ابْتِـداءً وجودَ حَقيقةٍ مُطْلَقَـةٍ لا تَـؤولُ ولا تَحـولُ ولا تَـتَبَدَّل.

نَعَـم، لا بُـدَّ للمَرْءِ مِنْ كَـثيرٍ مِـنَ الحَيْـرَةِ ولا بُدَّ لَهُ مِـنْ كَثيـرٍ مِـنَ التَّواضُعِ في تَقْديـرِ قُدْرَتِـهِ لِيُتاحَ لَهُ أنْ يَلْتقـي بآخَـرَ وآخَرينَ لا يَرى أو يَرَوْنَ إلى الأمورِ بالعَيْـنِ التـي يَراهـا هـو بِهـا ومِـنْ خِلالهـا. وهـذا هـو السَّـبيلُ الـذي يُفْضي بِنا إلـى أنْ نَحْمِـلَ تَعَدُّدَ الآراءِ واللُّغـاتِ والأديانِ والثَّقافاتِ والشُّـعوبِ على مَحْمَـلِ الثَّرْوَةِ مِنَ البَشَـرِيَّةِ لا على مَحْمَـلِ العَقَبَةِ المانِعَـةِ لِتَقَدُّمِ البَشَـرِيَّةِ وَتَطَوُّرِها.

تَحْـتَ هـذا العُنـوانِ أيْضًا فإنَّ الإنْـكارَ على وُجودِ حَقيقَـةٍ مُطلقَـةٍ لَيْـسَ بابًـا مِـنْ أبْـوابِ العَدَمِيَّـةِ. فَوَسَـطِيَّةُ الآخِذيـنَ بأنَّـهُ لا حَقيقـةَ مُطْلَقَـةٌ بَيْـنَ العقائِدِيِّيـنَ (الزّاعِميـنَ كلٌّ علـى طريقَتِـهِ امْتِلاكَ حَقيقـةٍ مُطْلَقَـةٍ مِـنَ الحَقائِـقِ)، والعَدَمِيِّيـنَ (المُنْكِريـنَ ابْتَـداءً وجـودَ الحَقيقـة)، ـــ وَسَـطِيَّةُ الآخِذيـنَ بِهـذا المَذْهَـبِ تَرْفَعُهُـم إلـى مَرْتَبَـةِ المُحِبّيـنَ حَـقَّ المَحَبَّـةِ للحَقيقَـةِ واسْـتِطرادًا إلى مَرْتَبَـةِ طُلّابِهـا المُثابريـنَ بِـلا قُنـوطٍ ولا كَلالَـة.

كَلّا، لَيْـسَ انْحيـازًا إلـى حِـزْبِ اللّاعَقْلانِيَّـةِ والعَشْـوائِيَّةِ أنْ يَتَقَبَّـلَ المَـرْءُ احْتِمـالَ دُخـولِ الخَطَـأِ علـى رأيِـهِ، وَأنْ يَضَـعَ نَفْسَـهُ ومعارِفَـهُ تَحْـتَ غِرْبـالِ التَّصْحيـحِ والتَّصويـبِ، بَـلْ هـو تَأْكيـدٌ علـى أوَّلِيَّـةِ النَّقْـدِ، وعلـى أوَّلِيَّةِ مُمارَسَـتِهِ، وتَأْكيـدٌ علـى الحاجَـةِ المُسْـتَمِرَّةِ إلـى التَّفاوُضِ حِـوارًا مَـعَ الآخريـنَ بِمَـنْ فيهـم أولَئِـكَ الذيـن يُنافِحـونَ عَـنْ قِيَـمٍ مُخالِفَـةٍ للقِيَـمِ التـي يأخُـذُ بهـا الواحِـدُ مِنّـا.

كانَ جـون ميلتـون(*) مِـنْ أبْـرَزِ المُدافعيـنَ عَـنْ حُرِّيَّـةِ الصَّحافَـةِ بِوَجْـهِ الرِّقابَـةِ بَشَـتّى أشْـكالِها وصُوَرِهـا، ومِـنْ ثَمَّ فلا غَـرْوَ أنْ رَأى، وهو الضَّريرُ، إلـى الحَقيقَـةِ بِوَصْفِها نَبْـعَ مـاءٍ جارٍ:

«لَيْـسَ مِمّـا يَغيـبُ عَـنْ كُلِّ ذي أحَـدٍ اعْتـادَ التَّبَصُّرَ بالأُمـورِ، والتَّمَعُّـنَ فيهـا، مـا للمُثابَرَةِ مِـنْ فَضْلٍ في تَفَتُّـحِ معارِفِنا شـأنَ مـا لها مِنْ فَضْلٍ فـي الرِّياضاتِ الجَسَدِيَّة.
تُشَـبَّهُ الحَقيقَـةُ، فـي الكِتـابِ المُقَـدَّسِ، بِمـاءٍ جـارٍ لأنَّ المـاءَ متـى ما انْقَطَعَ عَـنِ الجَرَيانِ أسِـنَ وخَمَّ. كذلـك قُـلْ عَـنِ الحَقيقَة».

ومِمّـا يَذْهَـب إلَيْـهِ ميلتـون فـي مـا يَذْهَـبُ أنَّ أولَئِـكَ الذيـن يَتَوَسَّـلونَ بـ«العَدالَـةِ المُسَـلَّحَةِ» بِحُجَّـةِ إحْقـاقِ الحَقيقـةِ لا يأتـونَ مِنْ شَـيْءٍ، في واقِـعِ الأمْـر، سـوى قَتْـلِ الحَقيقَـةِ قَتْـلًا لا مَبْعَـثَ لَهـا مِنْـه؛ وَبِقَتْلِهِـمِ الحَقيقـةَ، يَقْتُلـونَ، علـى بَيِّنَةٍ مِـنْ أمْرِهِـم أو علـى غَيْـرِ بيِّنَـةٍ، الحُرِّيَّـة. وخِلافُ

(*) جـون ميلتـون، (١٦٠٨ ـ ١٦٧٤)، شـاعِرٌ وعالِـمٌ إنجليـزيٌّ أشْـهَرُ قصائِـدِهِ «الفِـرْدَوْس المَفْقـود» التـي كَتَبَهـا عـامَ ١٦٦٧. كُـفَّ بَصَـرُهُ ذاتَ حيـنٍ غَيْـرَ أنَّ هـذِهِ العاهَـةَ لَـمْ تَحُـلْ بَيْنَـهُ وبَيْـنَ مُتابَعَـةِ الكِتابَـةِ والتَّفَـوُّقِ فيهـا.

ما تَقَدَّم صَحيحٌ أيضًا: مَنْ دأبُهُ قَمْعُ الحُرِّيَّةِ، يَقْمَعُ اسْتِطرادًا كُلَّ سَعْيٍ إلى طَلَبِ الحَقيقَةِ ونُشدانِها:

«اسْلُبوني ما شِئْتُم مِنْ حُرِّيّاتي ولكِنْ دَعوا لي حُرِّيَّةَ القَوْلِ والكِتابَةِ بِحَسْبِ ما يُمْليهِ عليَّ ضَميري».

فحُرِّيَّةُ التَّعْبيرِ عَنِ الرَّأْيِ، وحُرِّيَّةُ الحِوارِ والمُجادَلَةِ، هي ما يُتيحُ تَجْميعَ نُتَفِ الحَقيقَةِ، مِنْ هُنا وهُناك، وُصولًا إلى الحَقيقَةِ:

«فأنْ نَسْعى، بِلا كَلالَةٍ، إلى تَعَلُّمِ ما نَجْهَلُهُ بِناءً على ما نَعْرِفُهُ، وأن نَسْعى إلى إضافَةِ الحَقيقَةِ على الحَقيقَةِ، (باعْتِبارِ أنَّ الحَقائِقَ تأتَلِفُ)، هذهِ هي قاعِدَةُ المَعْرِفَةِ الذَّهَبِيَّةُ في اللّاهوتِ كما في الرِّياضيّات».

كُلُّ ما تَقَدَّمَ لا يَعْدو أنْ يكونَ قَليلًا مِنْ كَثيرٍ حَقُّهُ أنْ يُثْبَتَ وأنْ يُسْتَعاد.

مُقِرًّا بِتَقْصيري عَنْ إيفاءِ المَسْأَلَةِ التي نَحْنُ بَيْنَ يَدَيْها حَقَّها مِنَ التَّفْصيل أكْتفي، على سَبيلِ

اخْتتـامِ هـذا الفَصْـلِ، بِقَـوْلٍ للفَيْلَسـوفِ الألمانـي لِسِـنْج يَخْتَصِـرُ فيهـا مُوجِـبَ طَلَـبِ الحَقيقـةِ ونُشْـدانِها علـى الإنْسـان:

«ليسَـتْ قيمَـةُ الإنْسـانِ في ما يَمْلِكُهُ مِـنْ حَقيقَةٍ أو مـا يَدَّعـي امْتِلاكَـهُ مِنْهـا وإنَّمـا فـي مـا يَبْذُلُـهُ مِـنْ جَهْـدٍ صـادِقٍ لِبلـوغِ الحَقيقَة.

فالمَلَـكاتُ التـي تَسـيرُ بالإنْسـانِ إلـى مَزيـدٍ مِـنَ الكَمـالِ لا تَزيـدُ بِمـا يُحَصِّلُهُ مِـنَ الحَقيقَـةِ بَلْ بِما يَنْشُـدُهُ مِنها.

المِلْكُ والحِيازَةُ أخْصَرُ سَبيلَيْنِ إلى الدَّعَةِ المُتكاسِلَةِ والصَّلَفِ الأحْمَق.

لَـوِ اجْتَمَعَـتْ فـي يَميـنِ المَوْلـى كُلُّ الحَقائِـق، وفـي يُسْـراه كُلُّ المَشَـقَّةِ التـي يَقْتَضيهـا البَحْـثُ عِـنِ الحَقيقَـةِ، ثُـمَّ عَـرَضَ المَوْلـى عَلَـيَّ كَفَّيْـهِ وقـال: "إخْتَـرْ!". لَمِلْـتُ، بِـلا تَـرَدُّدٍ، علـى بَيِّنَـةٍ مِنْ أمْـري، نَحْـوَ اليُسْـرى، وَلِسـانُ حالي يَقـول: هاتِ! مـولايَ، هـاتِ، إنَّمـا الحَقيقَـةُ الحَقيقَةُ لَـكَ وَحْدَكَ لا شَـريكَ لَـكَ فيهـا!».

كُلّي ثِقَةٌ بأنَّ هذا الاسْتِشْـهادَ، كما الاسْتِشْـهاداتِ التـي تَوالَـتْ في الصَّفَحـاتِ السّـابِقَةِ، كَفيلَةٌ بأنْ

تَجِدَ طَريقَها إلى أعْماقِ الفُؤادِ مِنْ كُلِّ واحِدٍ وواحِدَةٍ مِنّا، وبأنْ تُسَرِّعَ مِنْ وَتيرَةِ المُتَباطِئِ مِنْ خَفَقانِهِ، وبأنْ تَشْهَدَ بالحَقِّ على لُزومِ ما يُزَيَّنُ لنا أحْيانًا أنْ لا لزومَ لَه.

نَعَمْ، إنَّ هذِهِ الكَلِماتِ تَشْهَدُ، بِرَسْمِنا، وَبِرَسْمِ الأجْيالِ التي مِنْ بَعْدِنا، أنَّ النُّزوعَ إلى طَلَبِ المَعْرِفَةِ المُتَحَرِّرَ مِنْ أيِّ مُوجِبٍ نَفْعِيٍّ أو عَمَلِيٍّ هو المُعَوَّلُ عليه لِتُرَفرِفَ بالبَشَرِيَّةِ أجْنِحَتُها صَوْبَ مزيدٍ مِنَ الحُرِيَّةِ ومِنَ التَّسامُحِ... بَلْ قُل: صَوْبَ مَزيدٍ مِنَ الإنْسانيَّة...

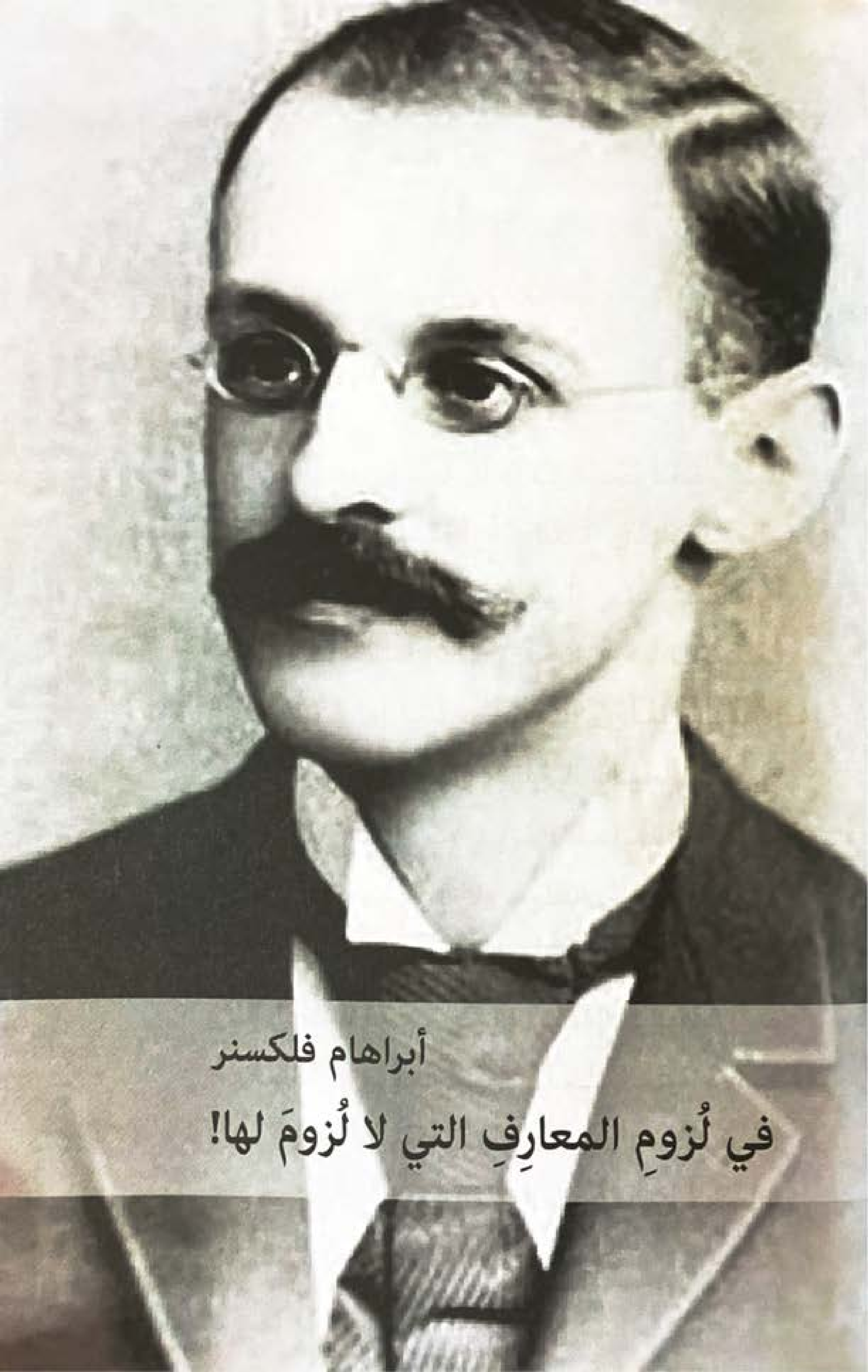

أبراهام فلكسنر

فيِ لُزومِ المعارِفِ التيِ لا لُزومَ لها!

١

أَلَيْسَ مِمّا يُسْتَغْرَبُ لَهُ أنْ نَجِدَ في هذا العالَمِ، عالَمِنا، الذي تَتَناهَبُهُ أحْقادٌ عَمْياءُ تَكادُ أنْ تَقْضِيَ على الحَضارَةِ نَفْسِها ـ أَلَيْسَ مِمّا يُسْتَغْرَبُ لَهُ أنْ نَجِدَ رِجالًا ونِساءً، مِنْ سائِرِ الأعْمارِ، يَنْأَوْنَ بِأَنْفُسِهِم، كُلِّيًّا أو جُزْئِيًّا، عَنْ صَخَبِ الحَياةِ اليَوْمِيَّةِ وضَوْضائِها ويُكَرِّسونَ أنْفُسَهُم لِصِناعَةِ المَزيدِ مِنَ الآثارِ الجَميلَةِ، ولِتَوْسيعِ آفاقِ العُلومِ، ولاخْتِراعِ عِلاجاتٍ تَشْفي مِنْ أمْراضٍ تُوْصَفُ بالمُسْتَعْصِيَةِ، وللتَّخْفيفِ مِنْ عَذاباتِ البَشَرِ، ويكونُ هذا السَّعْيُ مِنْ هَؤلاءِ بَيْنَما يَنْصَبُّ جَهْدُ آخَرينَ، يَتَمَلَّكُهُمُ التَّعَصُّبُ، على نَشْرِ البَشاعَةِ والألَمِ واليَأْسِ والضَّغائِنِ بِكُلِّ ما أُوْتوا مِنْ بَأْسٍ وقُوَّةٍ؟

نَعَـمْ، مِـنْ أوَّلِ الأمَـرِ لَـمْ يَـزَلْ عالَمُنـا هـذا مَكانًـا يَعُمُّـهُ البُـؤْسُ والاضْطِـراب. هـو كذلِـكَ، ولكـنْ مِـنْ حُسْـنِ الحَـظِّ أنَّ شـيمَةَ الشُّـعَراءِ والفَنّانيـنَ والعُلَمـاءِ أنْ يَتَجاهَلـوا ما يَحوطُ بِهِم مِنْ أسْـبابِ القُنـوطِ فَيَمْضـونَ فـي حـالِ سَـبيلِهِم حاجِزيـنَ بَيْنَهُـمْ وَبَيْـنَ كُلِّ مـا يُمْكِـنُ أنْ يَقْطَـعَ عَلَيْهِـم طَريـقَ الشِّـعْرِ أو مَنافِـذَ الاكْـتِشاف.

بالمَقاييـسِ العَمَلِيَّـةِ النَّفْعِيَّـةِ، لا جَـدْوى، فـي الظّاهِـرِ، مِـنْ أعْمـالِ الفِكْـرِ والذِّهْنِ أو مـا يُمْكِنُ أنْ نُطْلِـقَ عَلَيْـهِ عُمومًا مُسَـمّى النَّشـاطِ الثَّقافيّ؛ فإنَّمـا النَّشـاطُ الثَّقافـيُّ، تَبَعًـا لهـذِهِ المَقاييـسِ، مَرْفِـقٌ مِـنْ مَرافِـقِ الحَيـاةِ البَشَـرِيِّةِ يَجِـدُ بَعْـضُ النّـاسِ فـي وَقْـفِ أنْفُسِـهِم وَحَياتِهِم عَلَيْـهِ مُتْعَةً، بَـلْ مُتَعًـا، لا تُوَفِّرُهـا المَرافِـقُ الأُخـرى.

إنَّ غايَتـي مِنْ هذهِ المَقالَـةِ أنْ أُبَيِّنَ، أوْ بالأحْرى، أنْ أُحـاوِلَ أنْ أُبَيِّـنَ، كَيْـفَ يَتَّفِـقُ لهـذهِ المُتَـعِ النّافِلَـةِ التي يَسْـتَغْرِقُ فيها بَعْضُ النّـاسِ أنْ تُؤْتِـيَ نَتائِـجَ باهِـرَةً لم تَخْطُرْ، أحيانًـا، حتّى بِبالِ طُلّابها.

مِـنَ الأحاديـثِ المَكْـرورَةِ التـي تُصَـمُّ بِهـا الآذانُ، حَديـثٌ مُفـادُهُ أنَّ عَصْرَنا المُسْـتَغْرِقَ فـي مادِّيَّتِهِ مَدْعُـوٌّ بإلْحـاحٍ إلى السَّـعْي إلى أنْ تُـوَزِّعَ مَوارِدَهُ المادِّيَّـةُ، وفُـرَصُ النَّجـاحِ الاجْتِماعِـيِّ فيـهِ، علـى نَحْـوٍ أعْدَل.

فَمِـنْ سِـماتِ عَصْرِنـا التَّذَمُّـرُ المُبَرَّرُ البالِـغُ أحْيانًا حَدَّ الثَّـوْرَةِ الـذي يَصْدَعُ بِـهِ كُلُّ هـؤلاءِ الذيـنَ كَـتَبَتْ عَلَيْهِـم المَقاديـرُ أن يُحْرَمـوا النَّصيـبَ العـادِلَ مِـنَ الخَيْراتِ ومِـنَ الفُرَصِ، والـذي يُؤَدّي بِهِـم، أو بِطائِفَـةٍ كَبيـرَةٍ مِنْهُـم، إلـى الإعْـراضِ عَنْ فُـروعِ العِلْـمِ التـي تَخَصَّـصَ فيهـا آباؤهُـم، وإلـى التَّحَـوُّلِ إلـى فُـروعِ العِلْـمِ التـي تُعْنـى بالاجْتِماعِ والاقْتِصـادِ وفُنـونِ التَّدْبيـرِ الحُكومـيّ.

لا اعْتِراضَ عِندي على هذا التَّوَجُّه. فالعالَمُ هو ما تَهْدينا حَواسُّنا إلَيْهِ باعْتِبارِهِ العالَم. وطالَما أنَّ هذا العالَمَ على حالِهِ، وطالَما أنَّنا لَمْ نُحْسِنْ تَطْويرَهُ ولا أفْلَحْنا في جَعْلِهِ أعْدَلَ مِمّا هو، فلا غَرْوَ أنْ يَسْتَمِرَّ المَلايينُ مِنَ البَشَرِ في

حَثَّ الخُطى إلى نِهاياتِهِم المَحْتومَةِ صامِتينَ مَحْزونينَ مُحْبَطين.

ولَطالَما رَثَيْتُ، أنا نَفْسي، أنَّ مَدارِسَنا تَتَعامى عَنْ واقِعِ العالَمِ أي عَنِ العالَمِ الذي لا مَهْرَبَ للتَّلاميذِ والطُّلّابِ، عاجِلًا أم آجِلاً، مِنَ العَيْشِ فيهِ ومِنَ النُّزولِ عِنْدَ أحْكامِه.

كانَ ذلكَ مِنّي ولكِنَّني، اليَوْمَ، لا أمْلِكُ إلّا أنْ أتَساءَلَ: هَلْ مِنْ مُتَّسَعٍ بَعْدُ، في هذا العالَمِ الذي أُخْلِيَ مِنْ كُلِّ ما لا لُزومَ لَهُ — هَلْ مِنْ مُتَّسَعٍ فيهِ، بَعْدُ، لِكَمالاتِ الحَياةِ الإنْسانِيَّةِ، أي لِتِلْكَ العناصِرِ التي تَمْحَضُ الحَياةَ الإنْسانِيَّةَ بُعْدَها الرُّوحيّ؟ بِكَلامٍ آخَرَ: هل ضاقَ تَعْريفُنا لِما هو لازِمٌ إلى حَدٍّ لا مَحَلَّ مَعَهُ، بَعْدُ، لِنَزَواتِ الرّوحِ الإنْسانِيَّةِ بَلْ لِطَيْشِها ونَزَقِها؟

ولنا أنْ نَنْظُرَ في هذهِ المَسْألَةِ مِنْ وُجْهَتَيْنِ اثْنَتَيْن: الوُجْهَةِ العِلْمِيَّةِ والوُجْهَةِ الإنْسانِيَّةِ، (أو الرّوحيَّة).

فَلْنَبْدأ بالأولى: لِسَنواتٍ خَلَتْ دارَ بَيْني وَبَيْنَ جورج إيستمان(*) حَديثٌ مَدارُهُ على النّافِعِ والنّافل؛ أمّا مُناسَبَةُ هذا الحَديثِ مَعَ هذا الرَّجُلِ الحَكيمِ اللَّطيفِ البَعيدِ النَّظَرِ عِلاوَة على ما وُهِبَهُ مِنْ ذائِقَةٍ موسيقيَّةٍ فَنِّيَّةٍ رَفيعةٍ فَما كانَ إيستمان قد عَقَدَ العَزْمَ عَلَيْهِ مِنْ وَقْفِ جُزْءٍ مِنْ ثَرْوَتِهِ الطّائِلَةِ لِتَشْجيعِ التَّعْليمِ في فُروعِ العِلْمِ النّافِعَة.

في مَعْرِضِ حَديثِنا سَأَلْتُهُ، على بَيِّنَةٍ مِمّا في سُؤالي مِنْ مُجازَفَة: مَنْ هُوَ المُقَدَّمُ لَدَيْكَ مِنَ العُلَماءِ بِلِحاظِ ما أنْعَمَهُ على البَشَرِيَّةِ مِنْ مَنْفَعَةٍ في المَجالِ العِلْمِيّ؟ بلا تَرَدُّدٍ أجاب: ماركوني! لَمْ أتَمالَكْني، عِنْدَ جَوابِهِ هذا، مِنَ التَّعْليق: «أيًّا تَكُنِ المُتْعَةُ التي يُوَفِّرُها لنا المِذْياعُ، وأيًّا تَكُنِ أهَمِّيَّةُ الاتِّصالِ اللّاسِلْكِيِّ في حَياةِ البَشَرِ، فَإنَّ يَدَ ماركوني في هذا جميعًا لا تَكادُ تُذْكَر!».

(*) جورج إيستمان، (١٨٥٤ ـ ١٩٣٢)، مُؤَسِّسُ شَرِكَةِ «إيستمان كوداك» التي عَمَّمَتْ ثقافَةَ التَّصْويرِ بَيْنَ عامَّةِ النّاس.

وإنْ أنْسى لا أنْسى دَهْشَتَهُ مِنْ تَعْليقي هذا. وإذِ اسْتَزادَني في بَيانِ ما أعْني حَدَّثْتُهُ بالكَلِماتِ التّالِيَة: «يا سَيِّدي العَزيز، لا، لَيْسَ لي، ولا لأحَدٍ أنْ يُنْكِرَ فَضْلَ ماركوني؛ غَيْرَ أنَّهُ، إنْ كانَ لا بُدَّ مِنْ أن يُنْسَبَ فَضْلُ هذا الاخْتِراعِ الحاسِمِ إلى أحَدٍ مِنَ النّاس، فالأوْلى بالفَضْلِ أنْ يُنْسَبَ إلى العَلّامة كليرك ماكسويل الذي اشْتَغَلَ عام ١٨٦٥ على مَجْموعَةٍ مِنَ الحِساباتِ المُعَقَّدَةِ العَويصَةِ في مَجالِ المِغْنَطيسيّاتِ والكَهْرباءِ والذي نَشَرَ المُعادَلاتِ النَّظَرِيَّةَ التي تَوَصَّلَ إلَيْها مِنْ حِساباتِهِ تِلْكَ عام ١٨٧٣.

في تِلْكَ السَّنَة، وبِمُناسَبَةِ مُؤْتَمَرٍ عَقَدَهُ "المَعْهَدُ البريطانِيُّ للتَّقَدُّمِ العِلْمِيِّ"، عَلَّقَ أُسْتاذٌ بِجامِعَةِ أوكسفورد على أبْحاثِ ماكسويل وخُلاصاتِها بالقَوْل: "حَقٌّ على كُلِّ عالِمِ رِياضِيّاتٍ يُطالِعُ هذهِ الأبْحاثَ أنْ يُقِرَّ بأنَّها إضافَةٌ هامَّةٌ إلى مَنْهَجِ الرِّياضِيّاتِ البَحْتِ وعِلْمِها".

وخِلالَ السَّنواتِ الخَمْسِ عَشْرَةَ التّالِيَةَ رَفَدَتْ

اكْـتِشافاتٌ أُخْـرى الجَهْـدَ النَّظَـرِيَّ الـذي رادَهُ ماكسـويل. وأخيرًا، في ١٨٨٧ و١٨٨٨ حَلَّ هَيْنريخ هرتـس، مُسـاعِدُ العَلّامَـةِ هلْمهولتـس(*) المَسْـأَلَةَ التـي كانَـتْ لَمْ تَـزَلْ حتّى يَوْمذاكَ عالِقَـةً ومَوْضِعَ أخْـذٍ ورَدٍّ وهـي مَسْـأَلَةُ التَّعَـرُّفِ علـى المَوْجـاتِ الكَهرومِغْنَطيسـيَّةِ المُوصِلَةِ للإشـاراتِ اللّاسـلكيَّة. علـى أنَّـهُ، وَلِلْعِلْـمِ بِالشَّـيْء، فـلا ماكسـويل ولا هرتـس كانـا فـي شُـغْلٍ شـاغِلٍ مِـنَ التَّطبيقـاتِ العَمَليَّـةِ المُحْتَمَلَـةِ لأبْحاثِهِمـا واكْتِشـافاتِهِما، بَـلْ لا مُبالَغَـةَ فـي القَـوْلِ إنَّ هـذهِ التَّطبيقـاتِ كانَـتْ آخِـرَ هَمِّهُما.

بالمَعْنـى القانونـيِّ، ماركونـي، نَعَـمْ، هـو صاحِبُ الاخْتِـراعِ، أمّـا بالمَعْنـى العِلْمِـيِّ فما الـذي يُمْكِنُ نِسْـبَةُ اخْتِراعِهِ إلى ماركوني؟ لا شَـيْءَ حَقًّا سِـوى بَعْضِ التَّفاصيلِ التِّقْنِيَّةِ التي يَتَأَلَّفُ مِنْها مِكْشـافُ المَوْجـاتِ، جِهـازُ الاسْـتِقْبالِ الـذي نَتَعـارَفُ علـى

(*) هيرمـان هلمهولتـس، (١٨٢١ ـ ١٨٩٤)، فيزيائِـيٌّ ألمانِـيٌّ لَـهُ إسْـهاماتٌ جَليلَـةٌ فـي عَـدَدٍ مِـنَ المَجـالاتِ العِلْمِيَّـة.

تَسْمِيَتِهِ بـ "الرّاديو"/"المِذْياعِ"، والذي يَتَقادَمُ اسْتِخدامُهُ إلّا في نِطاقاتٍ جُغرافِيَّةٍ ضَيِّقَة.

نَعَمْ، رُبَّ قائِلٍ إنَّ ماكسويل وهرتس لَمْ يَخْتَرِعا شَيْئًا، وهو قَوْلٌ صَحيحٌ، ولكنْ صَحيحٌ أيْضًا أنَّهُ لَوْلا ما اسْتَغْرَقا فيهِ مِنْ جَهْدٍ نَظَرِيٍّ لَما تَمَكَّنَ فَنِّيٌّ ماهِرٌ مِنْ قَبيلِ ماركوني مِنِ اخْتِراعِ هذِهِ الوَسيلَةِ الجَديدَةِ النّافِعَةِ والمُسَلِّيَةِ مِنْ وَسائِلِ الاتِّصال، ولَما تَحَقَّقَ لآخَرينَ، بِفَضْلِ هذِهِ الوَسيلَةِ، على قِلَّةِ مُساهَمَتِهِم في تَطْويرِها، ما تَحَقَّقَ لَهُم مِنْ مَجْدٍ ومَكاسِب. فَلْنَسْأَلِ السُّؤالَ مُجَدَّدًا: مَنْ هوَ صاحِبُ اليَدِ في هذا الفَتْح؟ بِلا تَرَدُّدٍ: إنَّهُما العَبْقَرِيّانِ ماكسويل وهرتس اللَّذانِ صَفَتْ نِيَّتُهُما مِنْ أيِّ قَصْدٍ نَفْعِيّ. أمّا ماركوني فإنَّما اخْتَرَعَ ما اخْتَرَعَ لِوَجْهِ النَّفْعِ لَيْسَ إلّا...».

وإذِ اسْتَحْضَرَ ذِكْرُ هرتس إلى خاطِرِ السَّيِّدِ إيستمان التَّرَدُّداتِ الهِرتسيَّة، اقْتَرَحْتُ عَلَيْهِ أنْ يَتَحَقَّقَ مِنْ أساتِذَةِ الفيزياءِ بِجامِعَةِ روتْشِسْتَر مِمّا قامَ بِهِ ماكسويل وهرتس مَعَ ثِقَتي المُطْلَقَةِ

بِما أُؤَكِّدُهُ مِنْ أنَّ العالِمَيْنِ هَذَيْنِ لَمْ يَقْصِدا فـي كُلِّ أبْحاثِهِما إلى أيَّةِ غايَةٍ عَمَلِيَّةٍ نَفْعِيَّةٍ، ومَعَ ثِقَتي بأنَّ المُعْظَمَ مِنَ الاكْتِشافاتِ ومِنَ الاخْتِراعاتِ الكُبْرى التي أفادَتِ البَشَرِيَّةُ مِنْها إنَّما جَرَتْ على أيْدي رِجالٍ ونِساءٍ لَمْ يُوَلّوا في ما اكْتَشَفوهُ واخْتَرَعوهُ وَجْهَ النَّفْعِ والجَدْوى وإنَّما لَبَّوا نِداءَ الفُضولِ والمَعْرِفَةِ المُجَرَّدَة.

- لبّوا نِداءَ الفُضول؟

- نَعَمْ، لبّوا نِداءَ الفُضول!

فالفُضولُ، سَواءٌ أتَمَخَّضَتْ عَنْهُ أُمورٌ نافِعَةٌ أمْ لَمْ يَتَمَخَّضْ عَنْهُ شَيْءٌ، هو السِّمَةُ الأبْرَزُ مِنْ سِماتِ الفِكْرِ الحَديثِ. والحَقيقَةُ أنْ لا جَديدَ حَقًّا بِأنَّهُ كذلك.

فَنَسَبُ الفُضولِ هذا يَرْتَفِعُ إلى عُصورٍ خَلَت، بَلْ يَرْتَفِعُ إلى چاليليو وبيكون(*) ونيوتن، والأوْلى

(*) فرانسيس بيكون، (١٥٦١ ـ ١٦٢٦)، فَيْلَسوفٌ وَرَجُلُ دَوْلَةٍ وكاتِبٌ إنْجليزيٌّ مِنْ رُوّادِ «المُلاحَظَةِ والتَّجْريب».

بِنا أنْ نُشَجِّعَ ازْدهـارَهُ بَيْنَنـا، والأوْجَـبُ علـى المُؤَسَّسـاتِ العِلَميَّـةِ ومَعاهِـدِ البَحْـثِ أنْ تُشَـجِّعَ علـى ذلـك أيضًا. فَبِمِقْـدارِ ما يُزاحُ عَـنْ كاهِلِ هذِهِ المُؤَسَّسـاتِ والمَعاهِـدِ مُوجِـبُ الإنْتـاجِ النَّفْعِـيِّ المُباشَـرِ، بِمِقْـدارِ مـا يُرَجّـى أنْ تَزيـدَ مُسـاهَماتُها فـي خَيْـرِ البَشَـرِيَّةِ وصَلاحِهـا، وبِمِقْـدارِ مـا يُرَجّـى لهـا أيْضًـا، (ولَيْسِ هذا مِمّا يُسْـتَهانُ بِهِ)، أنْ تُشْـبِعَ الفُضـولَ وحُـبَّ الاسْـتِطلاعِ بِوَصْفِهِمـا، فـي عَصْرِنـا هـذا، سَـيِّدا الحيـاةِ الثَّقافِيَّـةِ والعِلْمِيَّـةِ.

II

ومـا يَصْـدُقُ علـى العالِـمِ هينريـخ هيرتـس الـذي عَمِلَ طيلَةَ سَـنَواتٍ، على أواخِرِ القَرْنِ التَّاسِـعَ عَشَرَ، بِصَمْـتٍ وَتَجَـرُّدٍ، فـي مُخْتَبَـرِ أسـتاذِهِ هلمهولتـس، يَصْـدُقُ، إلـى حَـدٍّ بَعيـدٍ، علـى كُلِّ عُلمـاءِ العالَـمِ.

حَسْـبُنا أنْ نَتَمَثَّـلَ فـي خَيالنـا، وَلَـوْ لِلَحْظَـةٍ واحِدَةٍ، أنَّـهُ لـولا الجُهـودُ التـي بَذَلَهـا بَعْـضُ هَـؤلاءِ لكُنّـا

نَعيـشُ فـي عالَـمٍ يُخَيِّمُ عَلَيْـهِ، في ما يُخَيِّـمُ، الظَّلامُ ــ الظَّـلامُ بِالمَعْنـى الحَرْفِـيِّ للكَلِمَة...

فـإنْ يُسْـتَفْتى النّـاسُ فـي مَشـارِقِ الأرْضِ وَمَغارِبِها عَـنْ الاخْتِـراعِ الأوْسَـعِ انْتِشـارًا والأكثَـرِ تأثيـرًا على حَياتِهِـم العَمَلِيَّـةِ لمـا تَـرَدَّدَ المُعْظَـمُ مِنْهُـم عَـنِ القَـوْل: الكَهْرَبـاء! فَمَـنْ هُـمُ أُولئـك الذيـن نَديـنُ لَهُـم بالاكْـتِشافاتِ الرَّئيسَـةِ التـي أفْضَـتْ إلـى اخْتِـراعِ الكَهْرَبـاء؟ سُـؤالٌ وَجيـهٌ وجَوابُهُ فـي مَحَلِهِ فـي سِـياقِ بَحْثِنـا هـذا.

هاكُم بَعضًا مِنْ قِصَّةِ الكَهرباء: وُلِدَ مايكل فارادي، (١٧٩١ ـ ١٨٦٧)، لأبٍ يَعْمَلُ حَدّادًا. على الرّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنَ العُمْرِ التَحَقَ مايكل بِحانوتِ كُتُبِيٍّ يَتَعاطى أيْضًا تَجْليدَ الكُتُبِ لِيَتَعَلَّمَ مِهْنَةَ التَّجليدِ هذِه.

ثُـمَّ كانَ ذاتَ يَـوْمٍ، بَعْـدَ سَـنَواتٍ علـى ذلـكَ، أنِ اصْطَحَبَـهُ صَديـقٌ لَـهُ إلـى «المَعْهَـدِ المَلَـكِيِّ» لِحُضـورِ مُحاضَـراتٍ فـي الكيميـاء يُلقيهـا السّـير همفـري ديفـي.

مِنْ وَحْيِ هذه المُحاضَراتِ، دَوَّنَ الشّابُّ ذو الإحْدى والعِشْرينَ سَنَةً مَجْموعَةً مِنَ المُلاحَظاتِ وافى السّير ديفي بِنُسْخَةٍ مِنْها.

لَمْ يَسْتَهْتِر ديفي بِهَذِهِ المُلاحَظاتِ ولا تأخَّرَ عن الاتِّصالِ بالشّابِ، وما هي إلّا أشْهُرٌ حتّى وَجَدَ فارادي نَفْسَهُ في وَظيفَةِ باحِثٍ مُساعِدٍ في مُخْتَبَرِ الكيمياءِ الذي يُديرُهُ ديفي.

وما إنْ دَخَلَ العامُ التّالي حتّى وَجَدَ مايكل نَفْسَهُ يُرافِقُ السّير ديفي في رِحْلَةٍ عِلْمِيَّةٍ إلى أوروبّا. وفي عامِ ١٨٢٥، على الرّابعةِ والثّلاثينَ مِنَ العُمْرِ، عُيِّنَ مايكل مُديرًا لِمُخْتَبَرِ «المَعْهَدِ المَلَكِيِّ» وأقامَ في هذا المَنْصِبِ أرْبَعًا وخمسينَ مُتَتالِيات.

شَيْئًا فَشَيْئًا كانَ اهْتِمامُ فارادي قَدْ تَحَوَّلَ مِنَ الكيمياءِ إلى الكَهْرَبائِيّاتِ والمِغْنَطيسيّاتِ وهُما المَجالانِ اللّذان انْتَهى بِهِ الأمْرُ أنْ وَقَفَ عَلَيْهِما مُعْظَم حَياتِه. بالطَّبْع لَمْ يَخْلُ فارادي

فـي هَذَيْـنِ المَجالَيْـنِ مِـنْ أسْلاف؛ فَمِـنْ قَبْلِهِ كان الدِّنْمَرْكِيُّ هانز كريسـتيان أورستد، (١٧٧٧ ـ ١٨٥١)، والفَرَنْسِـيُّ أندريـه مـاري أمبيـر، (١٧٧٥ ـ ١٨٣٦)، والبريطانِـيُّ ويليـم هايده ولسـتو، (١٧٦٦ ـ ١٨٢٨) قَـدْ فَتَحوا فيهِمـا عَدَدًا مِنَ الفُتوحـاتِ، غَيْرَ أنَّ هذهِ الفُتوحـاتِ بَقِيَـتْ مَغْمـورَةً وناقِصَة.

فـي عـامِ ١٨٤١ نَجَـحَ فـارادي فـي حَـلِّ عَـدَدٍ مِنَ المَسـائِلِ التـي لَـمْ يَكُـنْ أسْلافُهُ قَـدْ تَمَكَّنـوا مِنْها واسْـتَحْدَثَ مـا نُسَـمّيهِ بـ«التَّيّـارِ الكَهْرَبائيّ».

بَعْـدَ أرْبَـعِ سَـنَواتٍ علـى ذلـكَ اكْـتَشَفَ تأثيـرَ المِغْنَطيـسِ علـى «الضَّـوْءِ المُسْـتَقْطَبِ» ودَشَّـنَ مَـعَ هـذا الاكْـتِشافِ مَرْحَلَـةً جَديـدةً مِـنْ حَياتِـهِ المِهَنِيَّـةِ والعَمَلِيَّـةِ لا تَـتَدَنّى ألَقًـا عَـنِ المَرْحَلَـةِ الأولى. وإنْ تَـكُنْ اكْتِشـافاتُ فارادي في المَرْحَلَةِ الأولـى قَـدْ تُرْجِمَـتْ إلـى مـا لا حَصْرَ لَـهُ ولا عَدَدَ مِـنَ التَّطْبيقـاتِ والاسْـتِخداماتِ العَمَلِيَّـةِ حَيْـثُ خَفَّفَـتِ الكَهْربـاءُ بِمـا لا يُـقاسُ مِنْ أعْبـاءِ الحَياةِ وتَـكاليفِها، فـإنَّ اكْـتِشافاتِ المَرْحَلَـةِ الثّانِيَـةِ لَمْ

تُتَرْجَمْ، حتّى اليَوْمَ، تَطْبيقاتٍ عَمَلِيَّة. هَلْ لِهذا الفارِقِ بَيْنَ المَرْحَلَتَيْنِ، وما تَرَتَّبَ على كُلِّ واحِدَةٍ مِنْهُما مِنْ نَتائِجَ عَمَلِيَّةٍ أوْ لَمْ يَتَرَتَّب، عِنْدَ فارادي نَفْسِهِ، مِنْ حُسْبان؟ أحْمَقُ مَنْ يَظُنُّ أنَّهُ كذلك!

فَطيلَةَ حَياتِهِ لَمْ يُبالِ فارادي أدْنى مُبالاةٍ بالوَجْهِ العَمَلِيِّ النَّفْعِيِّ لاكْتِشافاتِه. مُسْتَغْرِقًا في فَكِّ أسْرارِ الكَوْن، في مَجالِ الكيمياءِ أوَّلًا ثُمَّ في مَجالِ الفيزياءِ، لَمْ يُلْقِ فارادي أدْنى بالٍ إلى ما يُمْكِنُ أنْ يَتَأَدّى مِنِ اكْتِشافاتِهِ بَلْ لَعَلَّهُ لَوِ انْشَغَلَ بِذَلِكَ لَضَيَّقَ على نَفْسِهِ وعلى فُضولِهِ، واسْتِطْرادًا على مَلَكَةِ الإبداعِ لَدَيْه.

لَمْ تأخُذِ اكْتِشافاتُ فارادي كُلَّ مَداها النَّفْعِيِّ والعَمَلِيِّ إلّا مُتَأَخِّرًا؛ أمّا تَجارِبُهُ التي أتاحَتْ لَهُ الوصولَ إلى تِلْكَ الاكْتِشافاتِ فَلَمْ تَخْضَعْ يَوْمًا لِمِعْيارِ النَّفْعِ والتَّطْبيقِ العَمَلِيّ.

في هذا العالَمِ الذي نَعيشُ فيهِ والذي هو على

ما هـو، مِـنَ الواجِـبِ أنْ نُسـارِعَ إلى القَـوْلِ بـأنَّ يَـدَ العِلْـمِ فـي تَطْويـرِ التِّقْنِيّـاتِ الحَرْبِيَّـةِ، وكُلُّنـا يَعْـرِفُ بـأنَّ هَـذه التِّقَنِيّاتِ تَـزْدادُ فَتْـكًا وتَدْميرًا ـ بِـأنَّ يَـدَ العِلْمِ هـذهِ نَتيجَـةٌ ثانَوِيَّةٌ، وأحْيانًـا طارِئَةٌ، مِـنْ نَتائِـجِ البَحْـثِ العِلْمِـيِّ لا يَتَحَمَّلُ هـذا البَحْثُ مَسْـؤولِيَّتَها والتَّبِعَـةَ عَنْها.

لِعَهْـدٍ قَريـبٍ خَـلا ذَكَّرَنـا اللـورد ريليغ، رَئيـسُ «المَعْهَـدِ البريطانِـيِّ للتَّقَـدُّمِ العِلْمِـيِّ»، مُصيبًـا فـي تَذْكيرِنـا وفي مـا تَكَبَّدَ عَنـاءَ التَّذْكيـرِ بِه، بأنَّ المَسْـؤوليَّةَ عَنِ اسْـتِخْداماتِ العَناصِرِ الكيميائِيَّةِ فـي الحُـروبِ الحَديثَـةِ إنَّمـا تَقَـعُ علـى البَشَـرِ وجُنونِهِـم لا علـى العُلَمـاءِ ومَقاصِدِهِـم.

لَقَدْ أثْمَرَتْ دِراسَةُ مُرَكَّباتِ الكَرْبون وتَفاعُلاتِها، في مَنْأى مِنْ أيِّ غايَةٍ نَفْعِيَّةٍ، ثِمارًا شَتّى مِنْها ما كانَ مِنْ تَخْليقِ مادَّةِ النّيتروغليسيرين، عِلْمًا أنَّ للنّيتروغليسرين اسْتِخْداماتٌ مِنْها النّافِعُ ومِنْها الضّارّ. ثُمَّ كانَ أنْ تَوَصَّلَ الكيميائيُّ السُّوَيْدِيُّ ألفرد نوبل، (١٨٣٣ ـ ١٨٩٦)، بأنْ مَزَجَ بَيْنَ

النّيتروغليسيرين ومَوادَّ أُخْرى، إلى إنْتاجِ مادَّةٍ مُتَفَجِّرَةٍ صَلْبَةٍ تَقْبَلُ التَّحَكُّمَ بها. صَحيحٌ أنَّ الدّيناميتَ باتَ مُرادِفًا لِشُرورِ الحَرْبِ والإرْهابِ ومَآسيهما، ولكِنْ... فَلْنَتَذَكَّرْ أنَّ الفَضْلَ في حَفْرِ المَناجِمِ وَفي شَقِّ أنْفاقِ القِطاراتِ يَعودُ للدّيناميت أيْضًا!

وبِهذا المَعْنى فإنَّ المَسْؤولِيَّةَ عَنِ اسْتِخداماتِ الدّيناميتِ لأغْراضٍ حَرْبِيَّةٍ لا يُمْكِنُ أنْ تُلْقى على العُلَماءِ كما أنَّ دِراسَةَ العُلَماءِ لِطَبَقاتِ الأرْضِ لا يُلْقي عَلَيْهِم مَسْؤوليَّةَ الزَّلازِلِ أو دِراسَةَ المُحيطاتِ مَسْؤوليَّةَ الفَيَضانات!

وما يَصِحُّ على الدّيناميتِ يَصِحُّ على اسْتِعْمالِ بَعْضِ الغازاتِ لِغاياتٍ حَرْبِيَّة. فَلْنَتَذَكَّرْ: لألْفيِّ عامٍ ماتَ پلين(*) اخْتِناقًا نَتيجَةَ اسْتِنْشاقِهِ غازًا سامًّا انْبَعَثَ مِنْ بُركانِ الفيزوف خِلالَ إحْدى ثَوْراتِه. هَلْ مُفادُ ذلك أنَّ دِراسَةَ الفيزوف هي ما تَسَبَّبَ بِمَوْتِ پلين؟

(*) پلين، (٢٣ ـ ٧٩)، عالِمُ طَبيعِيّاتٍ رومانِيّ. مُؤَلِّفُ **التّاريخ الطّبيعي**.

لَـمْ يَقْصِـدِ العُلَمـاءُ يَـوْمَ أنْ عَزَلـوا مـادَّةَ الكلور، أو يَـوْمَ أنْ صَنَعـوا غـازَ الخَـرْدَلِ، إلـى مـا اسْـتُخْدِمَتْ لَـهُ هـذِهِ المَـوادُّ علـى أيْـدي فُلانٍ أو فُلانٍ مِـنَ الذيـن أدْرَكـوا أيْضًـا ما يُمْكِـنُ أنْ يَعْنيه، مَـعَ تَطَوُّرِ عِلْـمِ الطَّيَـرانِ، إلْقـاءُ هذهِ المـوادِّ مِنَ الجَـوّ. مَعْقِدُ الأمْـرِ إذًا، متـى ما تَعَلَّـقَ الأمْرُ بالدّيناميـتِ أو بِغازِ الخَـرْدَلِ، هـو في المَسـؤولِيَّةِ عن الاسْـتِخدامِ لا في المَسْـؤولِيَّةِ عَـنِ الاخْتِراع.

فَلْنَنْتَقِـــلِ الآنَ للحَديـــثِ بَعْـــضَ الشَّـــيْءِ عَـــنِ الرِّياضيّـــاتِ البَحْـــت.

علـى مـا نَعْرِف جَميعًـا فإنَّ الفَتْـحَ الأبْرَزَ فـي عِلْمِ الرِّياضِيّـاتِ خِـلالَ القَرْنَيْـنِ الثّامِـنِ والتّاسِـعَ عَشَـرَ هـو الهَنْدَسَـةُ غَيْـرُ الإقْليديَّـة. هـو كذلـك، بَيْـدَ أنَّ التَّذْكيـرَ واجِـبٌ بـأنَّ العَلّامَةَ الرِّياضـيَّ يوهان كارل فريدريـش چـاوس (١٧٧٧ـ ١٨٥٥)، مـع عُلُـوِّ كَعْبِهِ بَيْـنَ رِياضِيّـي زَمانِـهِ، لَـمْ يَجْرؤ علـى نَشْـرِ نَظَرِيَّتِهِ الخاصَّـةِ بالهَنْدَسَـةِ غَيْـرِ الإقْليديَّـةِ طيلَةَ رُبْـعِ قَرْن. ومِـنْ بـابِ التَّذْكيـرِ أيْضًا فـإنَّ نَظَرِيَّةَ النِّسْـبِيَّةِ ذاتِ

الاسْتِخداماتِ العَمَلِيَّـةِ العَديـدَةِ مـا كانَ لهـا أنْ تُكْتَشَـفَ لَـوْلا الفَتْحُ العِلْمِـيُّ الـذي فَتَحَـهُ چاوس وأبْقـاهُ طَـيَّ الكِتْمـانِ سَـنَواتٍ طَويلَة.

كَذَلِـكَ قُـلْ عَـنِ النَّظَرِيَّـةِ الرِّياضِيَّـةِ المَعْروفَـةِ بـ«نَظَرِيَّـةِ المَجْموعـات». لَمْ تَخْرُجْ هـذهِ النَّظَرِيَّةُ، أوَّلَ الأمْرِ، عَـنْ كَوْنِهـا نَظَرِيَّـةً رِياضِيَّـةً مُجَـرَّدَةً طَوَّرَهـا، جَماعَـةٌ مِـنَ العُلمـاءِ، خِـلالَ أبْحاثِهِـم، علـى نَحْـوٍ مِـنَ الصُّدْفَةِ والاتِّفـاق. على أنَّـهُ، فَهَذِهِ النَّظَرِيَّـةُ غَيْـرُ ذاتِ الاسْـتِخْدامِ العَمَلِـيِّ هـي فـي أسـاسِ نَظَرِيَّـةِ «الكوانتـوم» التـي تُتيـحُ بِدَوْرِهـا لآلافِ البَشَـرِ، يَوْمِيًّـا، أنْ يُخْضَعـوا، لِـدَواعٍ عِلاجِيَّـةٍ، علـى غَيْـرِ بَيِّنَـةٍ مِـنْ كُلِّ هـذهِ التَّفاصيـلِ، للتَّحْليلِ الطِّبِّـيِّ المَعْـروفِ بـ«التَّحْليـلِ الطَّيْفـيِّ»!

لا يَخْـرُجُ حِسـابُ الاحْتِمـالاتِ عَـنْ هـذهِ الدّائِـرَةِ مِـنْ صُـدَفِ البَحْـثِ العِلْمِـيِّ واتِّفاقاتِـه. فَلَقَدْ نَشَـأَ حِسـابُ الاحْتِمـالاتِ مِـنْ عَـزْمِ عَـدَدٍ مِـنْ عُلَمـاءِ الرِّياضيّـاتِ علـى عَقْلَنَـةِ ألْعـابِ الحَـظّ. نَعَـم، لَـمْ يَتَوَصَّلـوا إلـى مـا قَصَـدوا إلَيْـهِ ولـكِنَّ أبْحاثَهُـم

هـي القاعِـدَةُ العِلْمَيَّـةُ التي تَسْـتَنِدُ إلَيْها شَـرِكاتُ التَّأميـنِ فـي العُقـودِ التـي تُوَقِّعُهـا مَـعَ عُمَلائِهـا!

وبمـا أنَّ الشَّـيْءَ بالشَّـيْءِ يُذْكَـرُ، يَحْلـو لـي هُنا أنْ اسْتَشْـهِدَ بِمُقْتَطَـفٍ مِـنْ مَقالَـةٍ نُشِـرَت مؤخَّـرًا في إحْـدى المَجَـلّاتِ العِلْمِيَّة:

«يَبْـدو لـي أنَّ شُـهرَةَ العلّامَـةِ ألبـرت آينشـتاين قَـدْ طـارَتْ إلـى آفـاقٍ أبْعَـدَ مِنْ تِلْـكَ التـي كانَـتْ قَـدْ وَصَلَتْهـا مِـنْ بَعْـدِ أنْ ذاعَ فـي المَـلأ أنَّ هـذا الرِّياضـيَّ والفيزيائـيَّ الفَـذَّ قَـدْ بَلْـوَرَ لِخَمْـسَ عَشَـرَةَ سَـنَةً خَلَـتْ مُعـادَلاتٍ رِياضيَّـةً تُسْـهِمُ فـي تَفْسـيرِ سُـيولَةِ غـازِ الهليـوم الفائِقَـةِ عِنْـدَ تَعْريضِـهِ لِدَرَجـاتِ حـرارةٍ قَريبَـةٍ مِـنَ الصِّفْـرِ المُطْلَق. ففي مُؤْتَمَـرٍ دعـا إليـه "المَعْهَـدُ الكِيميائِـيُّ الأميركـيُّ" نَسَـبَ الأُسْـتاذُ بِجامِعَـةِ باريـس ف. لنـدن ــ الأُسْـتاذُ الزّائِـرُ بِجامِعَـةِ ديـوك حاليًّا ـ نَسَـبَ إلى ألبـرت آينشـتاين الفَضْـلَ فـي اشْـتِقاقِ مَفْهـومِ "الغـازِ المِثالِـيِّ" وذلـك بالإحالَـةِ إلـى عَـدَدٍ مِـنَ المَقـالاتِ التـي كانَ آينشـتاين قَـدْ نَشَـرَها خِـلالَ العامَيْـنِ ١٩٢٤/١٩٢٥.

فـي ذلـكَ الحيـنِ لَـمْ يَكُـنْ آينشـتاين مَشْـغولًا بِنَظَرِيَّـةِ النِّسْـبِيَّةِ وإنَّمـا بِعَـدَدٍ مِـنَ المَسـائِلِ

التَّفْصيليَّـةِ المُنْقَطِعَـةِ، علـى ما بَـدَتْ أيّامَذاكَ، عَنْ أيِّ بُعْـدٍ عَمَلِـيِّ أوْ أيِّ تَطْبيـقٍ مُحَـدَّد.

كانَ آينشـتاين مَشْـغولًا بِوَصْـفِ مـا يَلْحَـقُ بِبَعْـضِ الغـازاتِ لـدى تَعْريضِهـا لِدَرجـاتِ حَـرارةٍ مُتَدَنِّيَـة. وإذْ كانَ مَعْروفًـا لـدى العُلَماءِ، علـى وَجْه العُمومِ، مـا يُصيـبُ الغـازاتِ في مِثْلِ هـذه الحالِ، لَـمْ يُلْقَ بـالٌ إلى أبْحـاثِ آينشـتاين تِلْـكَ ومَقالاتِه.

ثُمَّ كانَ ما كانَ مِنِ اكْـتِشافِ آينشـتاين أنَّ الهليومَ اسْتِثْناءٌ علـى القاعِـدَةِ، حَيْـثُ إنَّـهُ عِنْـدَ تَعْريضِـهِ إلـى حَـرارَةٍ مُتَدَنِّيَـةٍ يَـزْدادُ سُـيولةً عِـوَضَ أنْ يَزْدادَ لُزوجَـةً شـأنَ الغـازاتِ الأُخـرى، ثُـمَّ إنَّـهُ، عِنْـدَ تَعْريضِـهِ لِهَـذِهِ الحَـرارَةِ يَتَحَـوَّلُ إلى ناقِـلٍ للحَرارَةِ لا مَثيـلَ لَـه...».

ويَخْلُـصُ لنـدن بَعْـدَ مَزيـدِ شَـرْحٍ وتَفْصيـلٍ إلى أنَّ سُـيولَةَ الهليـومِ المُدْهِشَـةِ تُبَـرِّرُ تَصَـوُّرَ السُّـيولَةِ كَمَفْهـومٍ قَريـبٍ مِـنْ طَـوافِ الإلكترونـاتِ فـي المَعـادِنِ...

بَيْـتُ القَصيـدِ أنَّ الطَّريـقَ إلـى النِّسْـبِيَّةِ التـي لا تُذْكَـرُ إلّا بالإحالَـةِ إلـى اسْـمِ آينشـتاين لـم تَـكُنْ

خطًّا مُسْتقيمًا بَيْنَ نُقْطتَيْنِ اثْنَتَيْن. لَقَدِ اقْتَضى آينشتاين أنْ يَعْبُرَ بِمَحطَاتٍ بَحْثِيَّةٍ شَتّى، لا جَدْوى مِنْها بالمَعْنى العَمَلِيِّ للكَلِمَةِ، قَبْلَ أنْ انْقَدَحَتْ عَبْقَرِيَّتُهُ عَن تِلْكَ المُعادَلَةِ الفَذَّةِ التي وَسَّعَتْ لنا الكَوْنَ وَوَسَّعَتْ مَعْرِفَتَنا بِه.

فَلْنَعُدْ عَوْدَنا الآنَ مِنْ آينشتاين إلى القَرْنِ التّاسِعِ عَشَرَ وإلى نَموذَجٍ ذي صِلَةٍ بالطِّبِّ وبِالصِّحَّةِ العامَّةِ وأعْني بِهِ عِلْمَ الجَراثيمِ أو البَكْتريولوجيا.

غَداةَ الحَرْبِ الفَرَنْسِيَّة/البروسيَّةِ، (١٨٧٠)، أسَّسَتْ ألمانيا جامِعَةَ ستراسبورج العَريقَةَ وَجَعَلَتْ على رَأْسِها الطَّبيبَ العَلّامَةَ هاينريش ڤيلهم فون ڤالداير (١٨٣٦ ـ ١٩٢١).

وَيَرْوي فون ڤالداير، مِمّا يَرْويهِ في مُذَكِّراتِهِ، أنَّ أحَدَ الطُّلّابِ الذين تابَعوا أوَّلَ الفُصولِ الدِّراسِيَّةِ في الجامِعَةِ المُسْتَحْدَثَةِ كانَ طالبًا في السّابِعَةَ عَشَرَ، لَيْسَ في شَخْصِهِ ما يَسْتَرعي الانْتِباهَ لِلْوَهْلَةِ الأوْلى، اسْمُهُ پول إرليخ. لَمْ يُبْدِ إرليخ،

(١٨٥٤ ـ ١٩١٥)، كَبيرَ اهْتِمامٍ بِدُروسِ التَّشْريحِ التي كانَ تَعْليمُها مِنْ مَسْؤولِيَّةِ فون ڤالداير... على أنَّهُ:

«لَمْ أتَأَخَّرْ بأنْ لاحَظْتُ بأنَّ إرليخ يُمْضي السّاعاتِ الطِّوالَ مُنْكَبًّا على مَكْتَبِهِ مُسْتَغْرِقًا بِتَفَحُّصِ أشياءَ ما بالميكروسكوپ. كذلك لاحَظْتُ أنَّ بُقَعًا مِنْ كُلِّ الألْوانِ تَنْتَشِرُ فَوْقَ مَكْتَبِهِ وَيَزْدادُ انْتِشارُها اليَوْمَ تِلْوَ الآخَر. ذاتَ يَوْمٍ حانَ مِنّي أنْ أفهَمَ في ما يَقْضي هذا الطّالِبُ وَقْتَه؛ فَدَنَوْتُ مِنْهُ واسْتَفْسَرْتُ مِنْهُ عَمّا يُشْغِلُه. بِرَباطَةِ جَأْشٍ شَزَرَني الطّالِبُ وقال: "Ich probiere"، وهي عِبارَةٌ تَحْتَمِلُ التَّأْويلَ على مُؤَوَّلِ "إنَّني أُجَرِّبُ" كما على مُؤَوَّلِ "إنَّني ألْهو". فَقُلْتُ لَهُ: "حَسَنًا، واصل لَهْوَك". كانَ ذلكَ مِنّي ولكِنَّني سُرْعانَ ما تَبَيَّنْتُ أنَّ إرليخَ طالِبٌ اسْتِثْنائِيٌّ وأنَّهُ لَمْ يَحْتَجْ إلى مَزيدِ تَوْجيهٍ لِيَجِدَ طَريقَه!».

عَنْ حُسنِ تَقْديرٍ وحِكْمَةٍ تَرَكَ فون ڤالداير لإرليخ أنْ يُتابِعَ لَهْوَه! واصَلَ التِّلْميذُ، على شَيْءٍ مِنَ التَّعَثُّرِ أحْيانًا، دِراسَةَ الطِّبِّ ونالَ الإجازَةَ فيهِ وعادَ الفَضْلُ في ذلكَ، على نَحْوٍ

حاسِـمٍ، إلـى أسـاتِذَتِهِ الذين أدْرَكوا أنَّـهُ لا يَنْوي اتِّخـاذَ الطِّـبِّ مِهْنَـةً يَعْتـاشُ منهـا.

عِنْدَ تَخَرُّجِهِ قَصَدَ إرليخ مَدينَةَ برسلاو حَيْثُ عَمِلَ تَحْتَ إشْرافِ العَلَّامَةِ يوليوس كونهايم (١٨٣٩ ـ ١٨٨٤) الذي دَرَسَ على يَدِهِ طَبيبٌ نَعْرِفُهُ جَيِّدًا في هذهِ البلادِ، [في الولاياتِ المُتَّحِدَةِ الأميركيَّة]، هو الدّكتور وليم وِلْش، (١٨٥٠ ـ ١٩٣٤)، مُؤَسِّسُ كُلِّيَّةِ الطِّبِّ في جامِعَةِ جون هوبكينز.

لا يَبْـدو أنَّ خاطِـرَ النَّفْـعِ والجَدْوى مَـرّا يَوْمًا في خاطِـرِ إلريـخ. مِـنْ ثَـمَّ تابَـعَ، مـا اسْـتَطاعَ، لَهْوَهُ لا مُقَدِّمًـا علـى فُضولِـهِ العِلْمِيِّ أيَّ شَـيْءٍ آخَر...

ثُـمَّ كانَ أنِ ابْتَـدَعَ العَلّامَـةُ الألْمانِـيُّ هينريـش كـوخ، (١٨٤٣ ـ ١٩١٠)، ومُعاونُـوُه عِلْمًـا جَديدًا عُـرِفَ باسـم البكـتيريولوجيا فأفـادَ أحَـدُ زُمـلاءِ إرليـخ مِـنْ تَجارِبِهِ في مَجـالِ تَلْوينِ البَكْـتيريا، وواصَـلَ إرليـخ نَفْسُـهُ تجارِبَـهُ وَلَهْـوَهُ فَطَـوَّرَ بِنَفْسِـهِ تِقَنيَّـةَ تَلْويـنِ صَفائِـحِ الـدَّمِ الـتي يَقـومُ

علـى أساسِـها تَوْزيـعُ الكُرَيـاتِ الدَّمَوِيَّـةِ إلـى بَيْضـاءَ وحَمْـراء!

فـي آلافٍ مُؤَلَّفَـةٍ مِـنْ مُخْتَبَـراتِ العالَمِ ومَشـافيهِ، تُجْـرى يَوْمِيًّـا آلافٌ مُؤَلَّفَـةٌ مِـنْ فُحوصـاتِ الـدَّمِ التـي تُحيـلُ، علـى عِلْـمٍ وبَيِّنَـةٍ مِمَّـنْ يَقومـونَ بِها وَمِمَّـنْ يَسْـتَفيدونَ مِنْهـا، أو علـى غَيْرِ عِلْـمٍ وَبَيِّنَةٍ منهـم، إلـى تَجـارِبِ إرليـخ وإلـى مـا انَصْـرَفَ إلَيْه يَوْمًـا، فـي زاوِيَـةٍ مِنْ زَوايـا مُخْتَبَرٍ في سَتراسـبوغ، مِـنْ لَهو!

فَلْنَضْرِبْ مَثَلًا آخَرَ، مِنْ عِدادِ أمْثِلَةٍ كَثيرةٍ، مُسْتَوحًى هذهِ المَرَّةِ مِنْ عالَمِ الصِّناعات؛ وأُحيلُ هُنا، في تَفاصيلِ المَثَلِ الذي أضْرِبُهُ، إلى العَلّامةِ والتر برل، (١٩١٧ ـ ١٩٩٨)، مِنْ أعْلامِ مَعْهَدِ كارنجي للتكنولوجيا بمدينة بيتسبرچ الأميركـيَّة: إنَّما نَدينُ بِنُشوءِ تِقْنِيَّةِ الحَريرِ الصِّناعيِّ إلى النَّبيلِ الفَرَنْسِيِّ الكونت شاردونيه، (١٨٣٩ ـ ١٩٢٤)!

كانَـتِ التِّقْنِيَّـةُ التـي يَلْجَـأ إليهـا شـاردونيه تَنُـصُّ

علـى تَذْويـبِ قُطْـنِ النَّيتـرونِ فـي كُحولِ الأثيـرِ ثُـمَّ علـى تَصْفِيَـةِ المَحلـولِ اللَّـزِجِ المُتَخَلِّـقِ مِـنْ هـذا المَزيـجِ خَلَـلَ أنابيـبَ دَقيقَةٍ ثُمَّ علـى تَغْرِيقِ المَزيـجِ المُصَفَّـى فـي المـاءِ بِمـا يَضْمَـنُ تَجَمُّـدَ السَّـائِلِ علـى هَيْئَـةِ شُـعَيْراتٍ تُعَرَّضُ بَعْـدَ تَغريقِهـا فـي المـاءِ للهَـواءِ قَبْـلَ أنْ تُـلَفَّ علـى بكـرات.

ذاتَ يَـوْمٍ لاحَـظَ شـاردونيه خِـلالَ جَوْلَـةٍ لَـهُ فـي مَصْنَعِـهِ فـي بيزانسـون، (شَـرْق فَرَنْسـا)، الـذي كانَـتِ المِيـاهُ قَـدِ انْقَطَعَـتْ عَنْـهُ أنَّ عَمَلِيَّـةَ الغَزْلِ بِـدونُ التَّغريـقِ فـي المـاءِ تُؤْتـي نَتائِجَ أفْضَـلَ مِنْ عَمَلِيَّـةِ الغَـزْلِ مَـعَ التَّغْريـق: يَوْمـذاكَ اكْـتُشِفَ ما يُسَـمَّى الغَـزْلُ الجـافُّ، وهـي تِقْنِيَّـةُ غَـزْلٍ مـا تَزالُ مُسْـتَخدَمَةً إلـى يَوْمِنـا هـذا علـى أوْسَـع نِطـاق.

III

لا يُفْهَمَـنَّ مِمَّـا تَقَـدَّمَ أنَّنـي أزْعُمُ بـأنَّ كُلَّ الأبْحاثِ التـي تُجْرى وَراءَ أبـوابِ المُخْتَبَراتِ المُغْلَقَةِ تَنْتَهي

حَتْمًا إلى نَتائِجَ عَمَلِيَّةٍ أوْ أنَّ هذهِ النَّتائِجَ هي ما يَحْتَجُّ للبَحْثِ العِلْمِيّ.

إنَّما مَعْقِدُ دَعْوَتي البَسيطَةِ والجازِمَةِ، في آنٍ، هي أنَّ نَنْفي مِنْ قاموسِنا كَلِمَةَ «جدْوى»، وأنْ نَدَعَ للفِكْرِ وللخَيالِ البَشَرِيَّيْنَ أنْ يُحَلِّقا على سَجِيَّتِهما.

لا اسْتَبْعِدُ أنْ يَفيدَ بَعْضُ المُشَعْوِذينَ مِنْ هذهِ الحُرِيَّةِ المُطْلَقَةِ في البَحْثِ، ولا أسْتَبْعِدُ اسْتِطرادًا أنْ نَخْسَرَ بَعْضَ الأمْوال؛ ولكِنَّ خَيْرَ هذا، تَحْريرَ العَقْلِ والفِكْرِ، بِشَرٍّ ذا. نَعَم، يَقيني أنَّ المُعادَلَةَ بَيْنَ ما يُمْكِنُ أن يَحْصُلَ مِنْ شَرٍّ ومن خَيْرٍ راجِحَةٌ لِمَصْلَحِةِ هذا الأخير.

ولنَتَذكَّرْ، وَلنُذَكِّرْ بَعْضُنا بَعْضًا: لوْلا ما حَلَّقَتْهُ عَبْقَرِيَّةُ الأميركي جورج هيل، (١٨٦٨ ـ ١٩٣٨)، والبريطاني إرنست رذرفورد، (١٨٧١ ـ ١٩٣٧)، وآينشتاين وأقرانِهِم لما باتَتْ أقاصي الفَضاءِ حَدودَ عالَمِنا، ولما انْطَلَقَتْ مِنَ الذَّرَّةِ هذهِ

الطّاقَـةُ الهائِلَـةُ التي تَحْـتَ أيْدينـا اليـوم. ولَـوْلا داعِيَـةُ الفُضـولِ التـي تَلَبَّسَـتْ أمْثالَ الدَّنْمَركـيِّ نيلـس بـور، (١٨٨٥ ـ ١٩٦٢)، والأميركـيِّ روبـرت ميلّيـكان، (١٨٦٨ ـ ١٩٥٣)، وَرَغَّبَتْ لَهُما، ولآخَرينَ، بِـأنْ يَفُكّوا سِـرَّ الـذَّرَّةِ، وَبـأنْ يَطَّلِعوا على مَكْـنونِ تَـكوينِها، لمـا كانَـتْ حَيـاةُ المَلاييـنِ المُمَلْيَنَةِ مِنَ البَشَـرِ علـى مـا هـي عَلَيْـهِ اليَـوْم.

ولكـنْ فَلْنَتَذَكَّـرْ أيْضًـا أنَّ التَّبَـدُّلَ الـذي دَخَـلَ على حَيـاةِ هَـؤلاءِ البَشَـرِ كانَ نَتيجَـةً ثانَوِيَّـةً وَلَـمْ يَكُـنْ، علـى الإطْلاقِ، داعِيَـةَ فُلانٍ أو فُلانٍ مِـنَ العُلَمـاءِ إلـى مـا انْصَـرَفَ إلَيْـهِ مِـنْ بَحْـثٍ ومـا بَذَلَـهُ مِـنْ جُهْـد. مِـنْ ثَمَّ دَعْوَتـي إلى تَرْكِ الباحِثيـنَ والعُلَماءِ وشأنِهِم.

أحْمَـقُ مَـنْ يَظُـنُّ أنَّ بِوُسْـعِ «مُديرٍ» مـا أوْ «إدارَةٍ» مـا أنْ تُديـرَ الفِكْـرَ والخيـالَ العِلْمِيَّيْنَ بأفْضَـلَ مِمّا يَسْـتَطيعانِ، هُمـا نَفْسُـهُما، أنْ يُديرا نَفْسَـيْهِما.

فَلْنَعُـدْ عَوْدَنـا إلـى نَمـوذَجِ البكتيريولوجيـا: ما مِنْ

عاقِلٍ يُمْكِنُهُ أنْ يَذْهَبَ إلى القَوْلِ بأنَّ أثْمانَ ما انْصَرَفَ إلَيْهِ إرليخ مِنْ لَهْوٍ تَزِينُ مِنْ شَيْءٍ في مِيزانِ المَنافِعِ التي عادَتْ بِها على البَشَرِيَّةِ اكْتِشافاتُهُ واكْتِشافاتُ الفرنسيِّ لوي پاستور (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥)، أوِ الألمانِيِّ روبرت كوخ، (١٨٤٣ ـ ١٩١٠)، أوِ الأميركيِّ ذي الأصولِ الألمانِيَّةِ تيوبالد سميث، (١٨٥٩ ـ ١٩٣٤)، وغيرِهِم. بَلْ هَلْ مَنْ يَسَعُهُ القَوْلُ إنَّ ما اكْتَشَفَهُ هَؤلاءِ كانَ لِيُكْتَشَفَ لَوْ أنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ وَضَعَ نَصْبَ عَيْنَيْهِ الجَدْوى العَمَلِيَّةِ لِما يَقوم بِهِ؟

إنَّ هَؤلاءِ المُبْدِعينَ العِظامَ ــ وكُلُّ عالِمٍ حَقًّا مُبْدِعٌ ــ إنَّما تَبِعوا سَبيلَ الفُضولِ وحُبِّ الاسْتِطلاعِ وهو ما سارَ بِهِم إلى ما تَحَقَّقَ على أيْديهِم مِن اكْتِشافات.

كذلك، لا يُفْهَمَنَّ مِنْ قَوْلي الانْتقاصُ مِنْ معاهِدِ الهَنْدَسَةِ أو الحُقوقِ أو سِواها حَيْثُ يَتَسَيَّدُ الدّافِعُ النَّفْعِيّ. بَلْ قَدْ يَحْدُثُ أحْيانًا أنْ تَسْتَثيرَ عَقَباتٌ أوْ صُعوباتٌ عَمَلِيَّةٌ في مَرافِقِ الصِّناعَةِ

أو فـي المُخْتَبـراتِ تَسـاؤلاتٍ نَظَرِيَّـةً يُـؤدّي التَّأَمُّلُ فيهـا، والسَّـعْيُ إلـى اقْتِـراحِ حُلـولٍ لهـا، إلـى فَتْـحِ آفـاقٍ جَديـدةٍ تُسْـهِمُ فـي تَذْليـلِ تِلْـكَ العَقَبـاتِ أو لا تُسْـهِم كمـا، لَرُبَّمـا، فـي اجْتِـراحِ اجْتِراحـاتٍ غَيْـرِ مُتَوَقَّعَـةٍ ذاتِ تَرْجَمـاتٍ مُسْـتَقْبَلِيَّةٍ، نَظَرِيَّةٍ أو عَمَلِيَّة .

إنَّ المُراكَمَـةَ المُتَسـارِعَةَ لِرَصيـدٍ مُتَعاظِـمٍ مِـنَ المَعـارِفِ اللّانَفْعِيَّـةِ أو النَّظَرِيَّـةِ البَحْـتِ قَدْ أَفْضى إلـى واقِـعٍ غَيْـرِ مَسْـبوقٍ مِـنْ ذي قَبْـل. فـإنَّ عَدَدًا مُتَزايِـدًا مِـنَ المَشـاكِلِ ذاتِ الطَّبيعَـةِ العِلْمِيَّـةِ قَـدْ دَخَلَـتْ تَحْـتَ حَـدِّ التَّفْكيـرِ العِلْمِـيِّ ولا أَعْنـي بذلـكَ التَّفْكيـرَ العِلْمِيَّ المُتَوَجِّـهَ وُجْهَـةً عَمَلِيَّةً بَلِ التَّفْكيـرَ العِلْمِـيَّ الخالِـص.

لَقَـدْ ضَرَبْـتُ في مـا تَقَدَّمَ بِشَخْصِ ماركونـي مِثالًا علـى ذَلِكَ: إنَّ أَفْضـالَ هذا المُخْتَرِعِ على البَشَـرِيَّةِ لا تَنْفـي عَنْـهُ أنَّـهُ لَـمْ يَفْعَـلْ مِـنْ شَـيْءٍ سِـوى تَجْميـعِ مـا كانَ قـدْ سُبِقَ إلَيـهْ مِـنَ الاكْـتِشافاتِ وتَرْجَمَـةِ هـذه الفُتوحـاتِ العِلْمِيَّـةِ إلـى أداةٍ ذاتِ

اسْتِخْداماتٍ عَمَلِيَّةٍ. كَذَلِكَ الأَمْرُ مِنْ توماس أديسون مَثَلًا. أمّا متى نَظَرْنا إلى پاستور وما في رَصيدِهِ مِنْ أفْضالٍ فَسَوْفَ نَجِدُ أنْفُسنا بَيْنَ يَدَيَّ طِرازٍ مُخْتَلِفٍ كُلَّ الاخْتِلاف.

ففي حينِ لَمْ يَتَأنَّفْ پاستور مِنَ التَّصَدّي لِمُشْكلاتٍ ذاتِ طَبيعَةٍ عَمَلِيَّةٍ مِنْ مِثْلِ تِلْكَ التي تَعْرِضُ لأشْجارِ الكَرْمَةِ في نُمُوِّها أو التي تَعْرِضُ لِتَخْميرِ الجِعَةِ، فهو، في اجْتِهادِهِ لاجْتِراحِ حُلولٍ لِهَذِهِ المُشْكلاتِ، كانَ يَسْتَخْلِصُ خُلاصاتٍ نَفيسَةً، وإنْ غَيْرَ ذي قيمَةٍ نَفْعِيَّةٍ مُباشَرَة، لَمْ تَلْبَثِ البَعْضُ مِنْها أنْ أثْبَتَتْ ما هي عَلَيْهِ مِنْ أهَمِيَّةٍ ومِنْ خَطَر.

لَقَدْ كانَ إرليخ، كما جاءَ في ما سَبَقَ مِنْ قَوْلٍ، عالِمًا يَصِحُّ وَصْفُهُ بالتَّأَمُّلِيِّ العاكِفِ على اسْتِرْضاءِ دواعي الفُضولِ وحُبِّ الاسْتِطلاعِ، على أنَّ إرليخ هذا، نَفْسَهُ، انْشَغَلَ ذاتَ حينٍ بِمَرَضِ السِّفْلِسِ وَلَمْ يُغادِرِ انْشِغالَهُ بِهذا المَرَضِ إلّا بَعْدَ أنْ تَمَكَّنَ مِنْ إيجادِ عِلاجٍ لَه.

كذلِكَ قُلْ عَن اكْتِشافِ الأنسولين على يَدِ الكَنَدِيِّ فريدريك بانتينج، (١٨٩١ ـ ١٩٤١)، وعَنِ اكْتِشافِ قُدْرَةِ مُسْتَخْرَجاتِ الكَبِدِ على مُعالَجَةِ الأنيميا الخَبيثَةِ على يَدَيِّ العالِمَيْنِ الأميركِيَّيْنِ جورج مينو، (١٨٨٥ ـ ١٩٥٠)، وَجورج ويبل، (١٨٧٨ ـ ١٩٧٦).

يَشْتَرِكُ هذانِ الاكْتِشافانِ بأنَّ أصْحابَهُما أدرَكوا أنَّ في كَمٍّ المَعارِفَ النَّظَرِيَّةِ التي كَدَّسَها العُلَماءُ قَبْلَهُمُ ولَمْ يُبالَوا باسْتِخْداماتِها التَّطْبيقيَّة ما يُمكِن الإفادَةُ مِنْه لاجْتِراحِ جَواباتٍ عَنْ عَدَدٍ مِنَ الأَسْئِلَةِ ذاتِ الطَّبيعَةِ العَمَلِيَّة. بِناءً عَلَيْهِ، لا بُدَّ مِنْ كَثيرٍ مِنَ الدِّقَّةِ والتَّأنّي في نِسْبَةِ اكْتِشافٍ مُعَيَّنٍ إلى أحَدٍ مِنَ النّاسِ... فَلِمُعْظَمِ الاكْتِشافاتِ أنْسابٌ عَريقَةٌ وأحْيانًا أنْسابٌ غامِضَة.

يَبْدَأُ الأمْرُ باكْتِشافٍ جُزْئِيٍّ هُنا يَليهِ آخَرُ هُناكَ يَليهِ ثالِثٌ هُنالِك ثُمَّ يَتَّفِقُ لأحَدِهِم أنْ يَضُمَّ هذهِ الأجْزاءَ إلى بَعْضِها البَعْضَ ضَمًّا عَبْقَرِيًّا فَيَكونُ ما نُطلِقُ عَلَيْه اسْمَ الاكْتِشاف. هذا شَأْنُ الأنْهارِ الكُبْرى تَبْدَأ حَيْثُ تَبْدَأُ سَواقٍ صَغيرَةٌ في

غابـاتٍ قَصِيَّـةٍ تَرْفِدُهـا سَـواقٍ أكْبَر تَتَجَمَّـعُ مِياهُها لِتَشُـقَّ طَريقَها شَـيْئًا فَشَـيْئًا مُتَحَوِّلَةٍ خِلالَ مَسـيرِها إلـى هـذِهِ الأنْهـارِ العَظيمَةِ الهـادِرة.

تُثْبِـتُ هـذه الشَّـواهِدُ والاعْتِبـاراتُ، إذا كانَ لا بُـدَّ مِـنْ إثْبـات، الأهَمِيَّـةَ القُصْـوى لِحُرِّيَّـةِ الفِكْـرِ والبَحْـث.

لَقَدِ اكْتَفَيْتُ في ما تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلي بِضَرِبِ أمْثِلَةٍ مَأْتاها العُلومُ التَّجْريبِيَّةُ والرِّياضِيّاتُ على أنَّ الحُرِّيَّةَ لا تَـتَجَزَّأُ، وما يَصِحُّ على العُلومِ وعلى الرِّياضيّاتِ يَصِحُّ أيْضًا على الفُنونِ البَصَرِيَّةِ وعلى الموسيقى وعلى شَتّى التَّعْبيراتِ الفِكْرِيَّةِ التي تَحْمِلُ النَّفْسَ إلى أعْلى عِلِّيينَ ولا تَحْتاجُ، اسْتِطرادًا، وخارِجَ هذا المُؤَدّى، إلى ما يُـبَرِّرُ الحُرِّيَّةَ التي تَحْتاجُ إلَيْها.

إنَّ الدِّفاعَ عَنْ أهَمِيَّةِ هذهِ التَّعْبيراتِ بِصَرفِ النَّظَرِ عَنْ أيَّةِ غايَةٍ نَفْعِيَّةٍ هو دِفاعٌ عَنْ مُؤَسَّساتِ البَحْثِ العِلْمِيِّ ومَعاهِدِه. والمُؤَسَّساتُ التي تَسْتَحِقُّ هذا الدِّفاعَ عَنْها هي المُؤَسَّساتُ التي تُسْهِمُ على مدى

أجْيالٍ مُتَتابِعَةٍ في إطْلاقِ طاقاتِ طُلّابِها حتّى لا تَحْتاجُ إلى ما يُبَرِّرُ وُجودَها والمُرافَعَةَ عَنْ بقائِها بِصَرفِ النَّظَرِ عمّا قَدْ يَكونُ لِكُلِّ طالِبٍ بِعَيْنِهِ مِنْ يَدٍ أو فَضْلٍ في نَماءِ المَعارِفِ البَشَرِيَّة. بَلْ أقولُ: إنَّ قَصيدَةً واحِدَةً أو سيمفونِيَّةً واحِدَةً أوِ اكِتْشافًا عِلْمِيًّا واحِدًا كَفيلٌ بأنْ يُبَرِّرَ ضَرورةَ المُحافَظَةِ على هذِه المُؤسَّسات...

ويَبْدو لي، في ما يَبْدو، أنَّ لِما أقولُهُ هُنا مُبَرِّراتٍ آنِيَّةً كثيرةً؛ ففي عَدَدٍ مِنْ بِقاعِ الأرْض، ولا سِيَّما في إيطاليا وفي ألمانيا، تَتَعَرَّضُ حُرِّيَّةُ البَحْثِ والتَّفْكيرِ الحُرِّ إلى إساءاتٍ مُقْلِقَة. لَقَدْ أُعيدَتْ هَيْكَلَةُ بَعْضِ الجامِعاتِ على نَحْوٍ يَجْعَلُ مِنْها مَرافِقَ عِلْمِيَّةً في خِدْمَةِ إيديولوجيّاتٍ سِياسِيَّةٍ واقتصادِيَّةٍ بَلْ وعُنْصُرِيَّةٍ أحيانًا. ولَمْ يَخْلُ الأمْرُ أنْ شَهِدْنا في بَعْضِ الدُّوَلِ الدّيمقراطِيَّةِ القَليلَةِ بَعْدُ في هذا العالَمْ أصْواتًا نَشازًا تُشَكِّكُ في أهَمِيَّةِ الإبْقاءِ على الحُرِّيّاتِ الجامِعِيَّةِ في إتاحَتِها البَحْثَ والتَّعْبيرِ الحُرّ.

فَلْنُسَلِّمْ إذًا، مَرَّةً لا عَوْدَةَ عَنْها، بأنَّ العَدُوَّ اللَّدودَ للجِنْسِ البَشَرِيِّ لَيْسَ العالِمَ الجَرِيءَ الذي لا يَخْشى في البَحْثِ لَوْمَةَ لائِمٍ، سَواءٌ أأصابَ في بَحْثِهِ أم أخْطَأَ، وإنَّما عَدُوُّهُ ذَلِكَ الذي يُحاوِلُ أنْ يَحْبِسَ الفِكْرَ البَشَرِيَّ في زِنْزانَةٍ لا تَتَّسِعُ لِما أثْبَتَ هذا الفِكْرُ في إيطاليا وألمانيا وبريطانيا والوِلاياتِ المُتَّحِدَةِ الأميركيَّةِ وغَيْرِها أنَّ لَهُ مِنْ أجْنِحَةٍ خَفّاقَة!

بالطَّبْعِ، هذهِ الفِكْرَةُ لَيْسَتْ بالجَديدَة. إنَّها الفِكْرَةُ نَفْسُها التي اعْتَمَلَتْ في خاطِرِ ڤيلهم فون همبولت، (١٧٦٧ ـ ١٨٣٥)، يَوْمَ أنْ غزا نابليون ألمانيا فَرَسَمَ لإنْشاءِ جامِعَةٍ في بَرْلينَ وكُتِبَ له أن يُؤَسِّسَها.

إنَّها هِيَ الفِكْرَةُ التي سارَ على هَدْيٍ مِنْها المُرَبّي الأميركيُّ العَلّامَةُ دانيل كويت چيلمان، (١٨٣١ ـ ١٩٠٨)، عِنْدما أنْشَأَ عامَ ١٨٧٦ جامِعَةَ جون هوپكِنز، وهي الجامِعَةُ التي لَمْ تَلْبَثْ جامِعاتُ الوِلاياتِ المُتَّحِدَةِ وسواها أنْ نَهَجَتْ نَهْجَها في هَيْكَلَةِ نَفْسِها.

إنَّها هـيَ هـيَ الفَكْـرَةُ التـي يُفْتَـرَضُ أن يُخْلِصَ لها كُلُّ واحِـدٍ مِـنَ النّـاسِ حَريصٍ علـى الارْتِقاءِ بِنَفْسِـهِ وعَقْلِـهِ كائِنًـا ما تَـكُنِ الأثْمـانُ التي قَـدْ يُرغَمُ على دَفْعِهـا لِقاءَ هـذا الإخْلاص.

أقـولُ قَوْلـي هـذا مَـعَ التَّأْكيـدِ علـى أنَّ التَّمَسُّـكَ بالحُرِّيَّـةِ مُقَـدَّمٌ علـى أشْـكالِ التَّجديـدِ سَـواءٌ أكانَ فـي مَجـالِ الآدابِ أمْ في مَجالِ العُلـومِ، لأنَّ الحُرِّيَّةَ هذهِ هي شَـرْطُ التَّسـامُحِ أمامَ شـتّى أشْـكالِ التَّنَوّعِ والاخْتِلاف.

فَهَـلْ أعْبَثُ، وَهَـلْ أقْتَلُ، بِشـهادَةِ التّاريخِ البَشَـرِيِّ، مِـنَ التَّمْييـزِ القائِـمِ علـى العِرْقِ أوْ علـى الدّيـنِ؟ وَهَـلْ تَحتـاجُ البَشَـرِيَّةُ إلـى عُلـومٍ وفُنـونٍ صَمّـاءَ ثابِتَـةٍ لا تَحـولُ ولا تَـزولَ أمْ أنَّهـا بِحاجَـةٍ، لِتُعَبِّرَ عَنْ نَفْسِـها حَـقَّ التَّعْبيـرِ، إلـى عُلـومٍ وفُنـونٍ، أشـكالَ ألـوانٍ، مُبْدِعوهـا مِنْ كُلِّ ألْوانِ الطَّيْفِ البَشَـرِيِّ في تَـنَوُّعِهِ الدّينـيِّ والجِنْسـيِّ والعِرْقيِّ؟ كُلّـي ثِقَةٌ بِأنَّهُ مـا مِـنْ اثْنَيْـنِ يُسَـلِّمانِ بِهَـذِهِ الأوَّلِيَّـةِ يَخْتَلِفانِ في الجَـوابِ عَـنْ هذا السُّؤال...

١٧

لا إخالُنـي أُبالِـغُ أوْ أتَجـاوَزُ الحَقيقَـةَ إنْ عَـدَدْتُ إنْشـاءَ «مَعْهَـدِ الدِّراسـاتِ المُتَقَدِّمَـةِ» فـي جامِعَـةِ برينسـتون بولايـة نيوجيرسـي علـى يَـدِ رجـل الأعمـالِ والخَيْـرِ لويـس بامبرغـر، (١٨٥٥ ـ ١٩٤٤)، وشَـقيقَتِهِ كارولـين، (١٨٦٤ ـ ١٩٤٤، وكارولين هذِهِ هـي زَوْجُ فيلكـس فولد شَـريكِ شَـقيقِها لويس في أعْمالِـهِ التِّجارِيَّـة)، والازْدِهارَ السَّـريعَ لِهذا المَعْهَدِ، أحَـدَ أبـرَزِ الاسْـتِجاباتِ لِمـا فَشـا فـي العالَـمِ مـن عُنْصُرِيَّـةٍ بَيْـنَ الحَرْبَيْـن. فَلَقَـدْ بَزَغَـتْ فِكْرَةُ إنْشـاءِ هـذا المَعْهَـدِ فـي عـامِ ١٩٣٠، وحَكَـمَ علـى اخْتيارِ برينسـتون تَعَلُّـقُ بامبرغر بنيوجيرسـي. علـى أنَّني أُقَـدِّرُ أنَّ مِـنْ دَواعيـهِ إلـى ذَلِـكَ أيْضًـا، عِـلاوَةً على هَـواهُ الشَّـخْصيِّ، مـا بـدا لَـهُ مِـنْ إمكانيَّـةِ التَّعاوُنِ الوَثيـقِ بَيْـنَ المَعْهَدِ المُزْمَعِ تَأْسيسُـهُ وبَيْـنَ كُلِّيّاتِ جامِعَـةِ برينسـتون.

باشَـرَ المَعْهَـدُ نَشـاطَهُ فـي عـامِ ١٩٣٣ مُسْـتَقْطِبًا

عَـدَدًا مِـنْ أَبْـرَزِ العُلَمـاءِ الأميركيّيـنَ فـي مَجـالِ العُلـومِ البَحْـتِ كمـا فـي مَجـالِ الإنسـانيّات؛ بَيْـدَ أنَّ الفَضْـلَ فـي اسْـتِقطابِ المَعْهَـدِ عُلماءَ مِـنْ وَزْنِ آينشـتاين وجـون فـون نويمـان، (١٩٠٣ ـ ١٩٥٧)، في العلومِ، وإرْنِسـت هرتسـفيلد، (١٨٧٩ ـ ١٩٤٨)، وإرْويـن بانوفسـكي، (١٨٩٢ ـ ١٩٦٨)، فـي الفنـونِ والإنْسـانيّاتِ، إنَّما يَعـودُ، إنْ جازَتِ العِبـارَةُ، ومَهْما بـدا فـي الأمْـرِ مِـنْ تَناقُـضٍ، إلـى هِتْلَر!

ضِفْ أنَّ اسْـتِقْطابَ المَعْهَدِ هَـؤلاءِ العُلَماءِ لَمْ يَرْفَعْ مِـنْ شَـأنِهِ كَمُؤَسَّسَـةٍ فَقَـط وإنَّمـا أتـاحَ لجيـلٍ مِـنَ الباحِثيـنَ الأميركيِّين الشَّـبابِ أنْ يَتَدَرَّبوا على أَيْدي هَـؤلاءِ العُلَمـاءِ الأفْـذاذِ، وأتـاحَ اسْـتِطْرادًا للبَحْـثِ العِلْمِـيِّ فـي الوِلايـاتِ المُتَّحِـدَةِ عامَّـةً أنْ يَتطوَّر.

أمّا بِنْيَةُ المَعْهَدِ فَبَسيطَةٌ وَلَيِّنَةٌ إلى أبْعَدِ الحُدود؛ فهوَ يَتَألَّفُ مِنْ ثَلاثِ كُلِّيّاتٍ، (الرِّياضيّات، العُلوم الإنسانيَّة، العُلوم الاقتصادِيَّةِ والسياسيَّة)، وقِوامُ كُلِّ واحِدَةٍ مِنْ هذهِ الكُلِّيّاتِ هَيْئَةٌ دائِمَةٌ مِنَ الأساتِذَةِ وهَيْئَةٌ مِنَ الأساتِذةِ المُشارِكينَ يَتَبَدَّلُ

أعْضاؤُها سَنَوِيًّا. ولِكَلِّ كُلِّيَّةٍ أنْ تُدِيرَ شُؤونَها على النَّحْوِ الذي تَرْتأي، ولِكُلٍّ مِنْ أفرادِ هَيْئَتَيْها التَّعْليمِيَّتَيْنِ أنْ يُدَبِّرَ وَقْتَهُ وجَهْدَهُ على النَّحْوِ الذي يَراهُ مُناسِبًا. ولا شَرْطَ لِقَبولِ الأساتِذَةِ المُشاركينَ مِنْ جِنْسِيَّةٍ أو مِنْ خَلْفِيَّةٍ أكاديميَّةٍ سِوى الجَدارَةِ والاسْتِحقاق. ولِهَؤلاءِ، كما تَقَدَّمَ، ما للأساتِذَةِ الدّائِمينَ، وللواحِدِ مِنْهُم انْ يَتعاوَنَ مَعَ أُسْتاذٍ دائِمٍ أوْ أنْ يُعْمَلَ لِوَحْدَه. بِالمُخْتَصَر، لا قَواعِدَ مُقَعَّدَةً في مَعْهَد الدِّراساتِ هذا، وعَلَيْهِ زِدْ أنَّ المَعْهَدَ مُنْدَمِجٌ في إطارِ الجامِعَةِ كُلَّ الانْدِماجِ فلا تَكادُ تُمَيِّزُ بَيْنَ أُسْتاذٍ مِنْ أساتِذَةِ الجامِعَةِ وآخرَ مِنْ باحِثي المَعْهَد.

هُنا، في هذا الصَّرْحِ، لا شَيْءَ سِوى المُعْرِفَةِ وهَمٌّ تَنْمِيَتِها.

لا لِجانَ أكاديميَّةً ولا مَجالِسَ كُلِّيّاتٍ ولا مَنْ يَحْزَنون: لِعالِمِ الرِّياضِيّاتِ أنْ يَنْصَرِفَ إلى رِياضِيّاتِهِ، وللباحِثِ في العُلومِ الإنسانِيَّةِ إلى أبْحاثِهِ، وهكذا في مَنْأى مِنْ أيِّ مُنَغِّصٍ إدارِيٍّ أو ما شاكَل. مِنْ ثَمَّ، لا يَشْعُرُ بالغُرْبَةِ في هذا

المَعْهَـدِ إلّا مَـنْ لا فِكَـرَةَ عِلْمِيَّةً تَشْـغَلُ بالُـهُ أو مَنْ لا يَمْلِـكُ الصَّبْـرَ علـى الاسْـتِغراقِ بالكُلِّيَّـةِ فـي ما يَشْـغَلُ بالَـهُ مِـنْ فِكْـرَة.

إقْتَـرَحَ المَعْهَـدُ يَوْمًـا علـى أحَـدِ أسـاتِذَةِ هارفرد أنْ يَلْتَحِـقَ بِهِ فكاتَبَني الأُسْـتاذُ المَحْظوظُ سـائِلًا: «وما عَسـاها أنْ تكونَ واجِباتي عِنـدْ الْتِحاقي بالمَعْهَد؟» وجـاءَ جَوابـي علـى اسْتِفْسـارِهِ بَسـيطًا للغايَـة: «لا واجِبـاتٍ علـى الإطلاق. إنَّهـا فُرَصَـةٌ فانْتَهِزْها».

وهاكُـمْ قِصَّـةُ عالِـمِ رياضيّـاتٍ شـابٌّ لامِـعٍ أُتيـحَ لَهُ أنْ يَسْـتَضيفَهُ المَعْهَـد:

علـى خِتـامِ السَّـنَةِ التـي قَضاهـا العالِمُ الشّـابُّ في المَعْهَـدِ طَـرَقَ بابي مُوَدِّعًـا. وإذْ أوْفَينـا المُجامَلاتِ حَقَّها سَـألَني:

- لَعَلَّـكَ تَرْغَـبُ بـأنْ أُطالِعَـكَ فـي ما قَضَيْـتُ هـذا العام؟

- بالطَّبْع، أُحِبُّ ذلك.

- تَشْـهَدُ العُلـومُ الرِّياضيَّـةُ تَطَوُّرًا سَـريعًا للغايَة. كذلـكَ فـإنَّ نَشَـرَ الأدَبِيّـاتِ ذاتِ الصِّلَـةِ بهـذِهِ

العُلـومِ يَطَّـرِدُ أيْضًا علـى وَقْعٍ سَـريعٍ للغايَة. مِنْ بَعْدِ أنْ أَنْجَـزْتُ أُطْـروحَةَ الدُّكتـوراه، حاوَلْـتُ وُسْـعي، أنْ أُبْقينـي مُطَّلِعًـا علـى مـا يَجِـدُّ مِـنْ أبْحـاثٍ ومِـنْ نِقاشـاتٍ بَيْـدَ أنَّ مَشـاغِلَ الحَيـاةِ قَطَعَـتْ عَلَـيَّ، أحْيانًـا كَـثيرةً، طَريـقَ المُتابَعَـةِ وَحالَـتْ بَيْنـي وبَيْـنَ تَيْويـمِ مَعارفـي. خِـلالَ السَّـنَةِ التـي قَضَيْتُهـا هُنـا اسْـتَدْرَكْتُ علـى كثيرٍ مِمّـا فاتَنـي، ويَبْـدو لـي أنَّ حُجُبًـا كَثيـرَةً قَـدْ رُفِعَـتْ مِـنْ أمامـي وانْفَتَحَـتْ مَعَهـا آفـاقٌ آمَـلُ أنْ أُتَرْجِـمَ عَنْهـا مِـنْ خِـلالِ بَحْثَيْـنِ اثْنَيْـن.

- وكَـمْ سَيَسْـتَغرِقُك مِـن وَقْـتِ أن تَضَـعَ هذَيْـن البَحْثَيْـن؟

- خَمْسَ سَـنَواتٍ، أو لَرُبَّما عَشْرَ سَنَوات.

- وماذا في مَشـاريعِكَ بَعْدَ ذلك؟

- أنْ أعـودَ إلى هُنا!

أمّا السّالِفَةُ الثّالِثَةُ الأحْدَثُ عَهْدًا والتي يَحلو لي أنْ أرْويها فَبَطَلُها أُسْتاذٌ يُعَلِّمُ في إحدى كُبْرَياتِ جامِعاتِ أوروبّا. كانَ في خِطَّةِ هذا الأُسْتاذِ عِنْدَ

وصولِهِ إلى المَعْهَدِ لِوَقْتٍ قَصيرٍ خلا أنْ يَتَعاوَنَ مَعَ أحَدِ أساتِذَةِ المَعْهَدِ البروفيسور شارل موري، (١٨٧٧ ـ ١٩٥٥). ثُمَّ كانَ عِنْدَ وصولِ صاحِبِنا إلى پرينستون أنِ اقْتَرَحَ عَلَيْهِ موري أنْ يَتَعاوَنَ مَعَ إروين پانوفسكي، (١٨٩٢ ـ ١٩٦٨)، وچيورچ زفارزنسكي، (١٨٧٦ ـ ١٩٥٧)، عِوَضًا مِنْهُ لَعَلَّ تَعاوُنَهُ مَعَهُما أنْ يكونَ أجدى. أمّا اليَوْمَ فَهُوَ يَتَعاوُنَ مَعَ الثَّلاثَةِ مَعًا! وإذْ طالَعَني مُؤَخَّرًا أنَّهُ يَنْوي البَقاءَ في المَعْهَدِ طيلَةَ فَتْرَةِ الصَّيْفِ، وأشْفَقْتُ عَلَيْهِ مِنْ حرارَةِ الطَّقْسِ في نيوجيرسي أجابَني: «لا أظُنُّني مَعَ ما أنا مُسْتَغرِقٌ فيهِ سأُلْقي بالًا إلى حَرارَةِ الطَّقْس!».

وخِتامُها نُكْتَة: «هَلْ إنَّ سَهَرَ اللَّيالي دَأْبُ كُلِّ العامِلينَ في المَعْهَد؟»... هذا ما سَأَلَتْنيهِ مُؤَخَّرًا زَوْجُ أحَدِ زُملائِنا البريطانيّين!

لَيْسَ لِلْمَعْهَدِ، بَعْدُ، مَبْنًى خاصًّا بِهِ. مِنْ ثَمَّ فإنَّ العامِلينَ فيهِ يَتَوَزَّعونَ على عَناوينَ عِدَّة: عُلَماءُ الرِّياضِيّاتِ على كُلِّيَّةِ الرِّياضيّاتِ في جامعة پرينستون، وعُلَماءُ الإنسانيّاتِ على كُلِّيَّةِ

الإنسـانِيّاتِ، أمّا الاقْتِصاديّونَ فَيَشْـغَلونَ جَناحًا في أحَـدِ فنـادِقِ الحَـيِّ، فيمـا أنـا فـأُزاوِلُ نَشـاطي في مَبْنًـى تجـارِيٍّ يُجـاوِرُ فيهِ المحامي طبيبَ الأسْـنانِ وأخِصّائِـيَّ التَّدْليـك وهَكَـذا.

الشّـاهِدُ فـي مـا تَقَـدَّم أنَّ شَـرطَ البَحْـثِ العِلْمِـيِّ الحُـرِّ لَيْـسَ الأبْنِيَـةَ المُنيفَـةَ الشّـامِخَةَ، وهـذا فـي أيِّ حـالٍ مـا سَـبَقَ أنْ أثْبَتَـهُ المُرَبّـي الكبيـر دانيال چيلمـان، (١٨٣١ ـ ١٩٠٨)، يَـوْمَ أنْ أسَّـسَ جامِعَـةَ جـون هوپكينـز.

على أنَّهُ، وفي سَـبيلِ تَشْـجيعِ التَّواصُلِ غَيْرِ المُقَيَّدِ بقيـودٍ بَيْـنَ العامِليـنَ بالمَعْهَـدِ، فَسَـوْفَ يَكـونُ لَهُ عمّـا قَريـبٍ مَبْنـىً خاصًّا بِـهِ يَحْمِـلُ اسْـمَ كارولين بامبرغـر فولـد اعْتِرافًـا بِفَضْلِهـا عَلَيْـه. خـلا ذَلِـكَ، لَيْـسَ فـي نِيَّـةِ المَعْهَـدِ أنْ يَتَوَسَّـعَ أو أنْ يَتَفَيَّـلَ بَلْ إنَّ خِطَّتَـهُ أنْ يَبْقى مُتواضِـعَ الحَجْمِ ولكنْ وَفِيًّا كُلَّ الوَفـاءِ للمَبـادِئِ التـي تَأَسَّـسَ عَلَيها: حُرِّيَّـةُ البَحْثِ المُطْلَقَـةُ وحُرِّيَّـةُ الباحثيـنَ فـي مَنـأى مِـنَ القُيودِ والرَّسْميّات.

هُنا، في هذا المَعْهَدِ، لا نَقْطَعُ على أنْفُسِنا وعودًا لِنُسارِعَ إلى البِرِّ بِها.

هَمُّنا في هذا المَعْهَدِ أنْ تُثْبِتَ الجُهودُ التي نَبْذُلُ أنَّ السَّعْيَ وَراءَ المَعارِفِ التي تَبْدو غَيْرَ ذاتِ جَدْوى، وغَيْرَ ذاتِ منافِعَ عَمَلِيَّةٍ - سَعْيًا لا يَعوقُهُ عائِق - هو، اليَوْمَ، كما كانَ في الماضي، سَعْيٌ ذو نَفْعٍ وجَدْوى.

هو كذلكَ ولكِنَّ هذا الهَمَّ لَيْسَ هَمَّنا الأوَّلَ أو الأوْحَد. إنَّما يُريدُ المَعْهَدُ، أوَّلًا وآخِرًا، أنْ يَكونَ فِرْدَوْسًا للعُلَماءِ وللباحِثين... فَمَثَلُ هَؤلاءِ مَثَلُ الشُّعَراءِ والمُوسيقيِّين: لَهُم أنْ يَختاروا الظُّروفَ الأوْفَقَ لِتَفَتُّحِ إبْداعِهِم، أيْ لِبَذْلِ ذَواتِ أنْفُسِهِم وإتاحَتِها، بِلا مُقابِلٍ، للآخرين!

هذِهِ التَّرْجَمَةُ بَلْ هذا التَّلْخيص...
٥

•

الإهداء
١١

مَدْخَل
١٣

في الآدابِ
وَجَدْوَى لاجَدْواها
٤٥

الجامِعَةُ بِوَصْفِها مُؤَسَّسَةً تِجاريَّةً
والطّالِبُ بِوَصْفِهِ زَبونًا
٨٩

مِنَ المِلْكِ ما قَتَل:
في الكَمالِ الإنْسانيِّ والحُبِّ والحَقيقَة
١٣٩

•

أبراهام فلكسنر
في لُزومِ المعارِفِ التي لا لُزومَ لها!
١٨٥

لوجْهِ ما لا يَلزم

مُتَّخِذًا مِنَ التَّأمُّلِ في مَفاهيمِ «اللُّزومِ» و«النُّفولِ» و«الجَدْوى» و«اللَّاجَدْوى» مُقَدِّمَةً وَمُبْتَدأً، يَتَقَمَّصُ الآكادِيمِيُّ المَوْسوعِيُّ نوتشيو أوردينه في كِتابِهِ هذا، وهو كِتابٌ لا يَتَحَرَّجُ من وَصْفِهِ بـ«البَيانِ»، (المانيفستو)، تَدْليلًا على نَفْحَتِهِ السِّجالِيَّةِ قَميصَ الدَّليلِ والهادي، وَيَقْتَرِحُ على قُرّائِهِ سِياحَةً فِكْرِيَّةً بَيْنَ شَواهِدِ تِلْكَ المَفاهيمِ ومَعالِمِها، في الماضي والحاضِرِ، في الفَلْسَفَةِ والأَدَبِ، في الفَنِّ والعُلومِ، في الجامِعَةِ وفي خَلْوَةِ العاشِقَيْنِ، يَنْتَهي مَعَها إلى أنَّ «اللاجَدْوى» ـ أي ما يَتَهَيَّأُ لنا أنَّهُ نافِلٌ وغَيْرُ ذي جَدْوى ولا لُزومَ لَهُ ـ مِلْحُ التَّجْرِبَةِ الإنسانِيَّةِ مِنْ أوَّلِ التّاريخِ إلى اليَوْمِ، وَشَرْطُ الحُرِّيَّةِ المَشْروطُ، مُحَذِّرًا مِنْ مُتَرَتِّباتِ ما يَمْضي فيهِ عالَمُنا، تَحْتَ عَناوينِ «الجَدْوى» و«الرِّبْحِيَّةِ» والنُّزولِ عِنْدَ «أحْكامِ السّوقِ»، مِنْ إفْسادٍ لِهذا المِلْحِ وَمِنْ تَضْييقٍ لِمساحاتِ الحُرِّيَّةِ ومَرافِقِها.

نوتشيو أوردينه
Nuccio Ordine

أُستاذُ الفَلْسَفَةِ والأدَبِ الإيطاليِّ في جامِعَةِ كالابريا.

مِنْ أعْلامِ الباحثين في النَّهْضَةِ الأوروبيَّة.

تَنْزِلُ أبْحاثُهُ وتآليفُهُ في جوردانو برونو، (١٥٤٨ ـ ١٦٠٠)، اللّاهوتيِّ والفَيْلَسوفِ الإيطاليِّ الذي أدانَتْهُ مَحاكِمُ التَّفْتيشِ بِتُهْمَةِ الهَرْطَقَةِ وَحَكَمَتْ عَلَيْهِ بالقَتْلِ حَرْقًا، مَنْزِلَةَ المراجِعِ.

تُرْجِمَ *لوجْهِ ما لا يَلزم*، حتّى اليَوْمَ، بِخَمْسَ عَشْرَةَ لُغَةً... والعَرَبِيَّةُ!

9 789953 111391